

مَاقِدِرُ اللَّهِ حَقَائِدُ

عَبْدُ الْعَزِيزِ صَلَّى الْجَلِيلُ

٢ عبدالعزيز ناصر الجليل، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجليل، عبدالعزيز ناصر

وما قدروا الله حق قدره. / عبدالعزيز ناصر الجليل. - الرياض، ١٤٣٨هـ

٣٥٢ ص؛ ١٦،٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٢ - ٤٣٦٦ - ٠٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١. الوعظ والإرشاد ب. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٨ / ٦٥١١

حقوق الطباعة محفوظة للنشر

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م

الناشر **العبيكان** للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

www.obeikanpublishing.com



بوKS.كوم
B8KS.COM

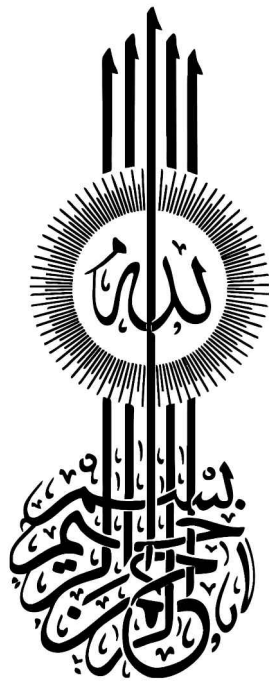
امتياز التوزيع شركة مكتبة **العبيكان**

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف 4808654 هاتف مجاني 920020207 فاكس 4889023 ص.ب. 62807 الرياض 11595

www.obeikanretail.com

جميع الحقوق محفوظة للنشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.



﴿مَجْمُوعَاتُ الْكِتَابِ﴾

→ الصفحة

→ الموضوع

- الفهرس ٥
- تمهيد ١١
- الفصل الأول: ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة
في عظمة الله عَزَّجَلَّ وتعظيمه ٢٣
- أولاً: ذكر بعض الآيات الواردة في ذلك ٣٥
- الآية الأولى ٣٥
- الآية الثانية ٤٥
- الآيتان الثالثة والرابعة ٤٨
- الآيتان الخامسة والسادسة ٤٩
- الآية السابعة ٥٤
- الآية الثامنة ٥٥
- الآيتان التاسعة والعاشر ٥٥
- الآيات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة ٥٦
- الآيات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة ٥٦
- الآيات السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة ٥٦
- الآية العشرون ٥٧
- الآية الواحدة والعشرون ٥٩
- الآية الثانية والعشرون ٥٩
- الآية الثالثة والعشرون ٥٩

- ثانيًا : ذكر بعض الأحاديث الواردة في عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه ٦٠
- الحديث الأول ٦٠
- الحديث الثاني ٦٠
- الحديث الثالث ٦٠
- الحديث الرابع ٦١
- الحديث الخامس ٦٢
- الحديث السادس ٦٢
- الحديث السابع ٦٣
- الحديث الثامن ٦٣
- الحديث التاسع ٦٣
- الحديث العاشر ٦٤
- الحديث الحادي عشر ٦٤
- الحديث الثاني عشر ٦٥
- الحديث الثالث عشر ٦٦
- الحديث الرابع عشر ٦٦
- الحديث الخامس عشر ٦٦
- الأحاديث السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ٦٧
- الحديث التاسع عشر ٦٧
- الحديث العشرون ٦٨
- ثالثًا: الآثار الواردة عن السلف في تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ٦٩
- الآثار الأول ٦٩

٦٩	الأثر الثاني
٧٠	الأثر الثالث
٧٠	الأثر الرابع
٧١	الأثر الخامس
٧٢	الأثر السادس
٧٢	الأثر السابع
٧٣	الأثر الثامن
٧٣	الأثر التاسع
٧٣	الأثر العاشر
٧٤	الأثر الحادي عشر
٧٤	الأثر الثاني عشر
٧٥	الأثر الثالث عشر
٧٥	الأثر الرابع عشر
٧٦	الأثر الخامس عشر
٧٦	الأثر السادس عشر
٧٦	الأثر السابع عشر
٧٧	الأثر الثامن عشر
٧٧	الأثر التاسع عشر
٧٩	• الفصل الثاني: ذكر بعض مظاهر عظمة الله عَزَّجَلَّ
٨١	أولاً: عظمة الذات
٨٢	ثانياً: عظمة الصفات

- ثالثاً: عظمة الأفعال ٨٣
- صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ في سعة علمه وإحاطته ٨٧
- صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ في سمعه وبصره ٨٩
- صور من عظمة الله تعالى في سعة جوده وكرمه وبره وإحسانه ٩٠
- صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ في قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض ومن فيهما ٩١
- صور عظمت سبحانه في رحمته ورأفته وحلمه: ٩٢
- صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ في خلقه وأمره وحكمته البالغة في ذلك ٩٣
- أولهما: عظمة الله عَزَّجَلَّ في خلقه المتجلية في الآفاق والأنفس ٩٤
- أ) صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ في خلق هذا الكون العظيم ٩٤
- ب) صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ في خلق الإنسان ١٠٥
- ثانيهما: عظمة الله عَزَّجَلَّ المتجلية في أمره سبحانه ١١٢
- الفصل الثالث: ذكر بعض مظاهر التعظيم لله عَزَّجَلَّ وعلاماته ١٢١
- المظهر الأول من علامات تعظيم الله عَزَّجَلَّ: توحيد سبحانه لا شريك له ... ١٢٣
- المظهر الثاني: إحسان الظن بالله عَزَّجَلَّ ١٢٧
- المظهر الثالث: تعظيم حرمانات الله عَزَّجَلَّ وحدوده ١٣٨
- أ) تعظيم أوامره عَزَّجَلَّ ونواهيه والوقوف عند حدوده دون غلو ولا جفاء ... ١٣٩
- ب) تعظيم حرمانات الله المكانية والزمانية ١٤٢
- ج) تعظيم حرمة دم المسلم ١٦٥
- المظهر الرابع: تعظيم كتاب الله عَزَّجَلَّ ١٦٥
- المظهر الخامس: تعظيم الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٨٣
- المظهر السادس: تعظيم قدر الصلاة ٢٠٤
- المظهر السابع من مظاهر تعظيم الله عَزَّجَلَّ: تعظيم أسمائه سبحانه وصفاته ٢١٥

المظهر الثامن: تعظيم نصوص الكتاب والسنة وتلقيها بالقبول والتسليم	٢١٨
المظهر التاسع: الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ والإكثار من ذكره ودعائه	٢٤٧
المظهر العاشر: عدم الفتوى والقول على الله عَزَّوَجَلَّ بلا علم	٢٤٨
المظهر الحادي عشر: الموالاة والمعاداة في الله عَزَّوَجَلَّ.	٢٥٦
المظهر الثاني عشر: التواضع للحق وللخلق والتخلص من العجب	٢٥٦
المظهر الثالث عشر: توقير وإكرام ذي الشبهة من المسلمين	٢٦٠
المظهر الرابع عشر: الغيرة على الدين والأمر بالعروف والنهي عن المنكر	٢٦٢
• الفصل الرابع: من ثمرات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ	٢٧٥
الثمرة الأولى: قوة الإيمان واليقين وتحقيق التوحيد:	٢٧٧
الثمرة الثانية: محبة الله عَزَّوَجَلَّ وتقديم محابه سبحانه على جميع المحاب	٢٧٨
الثمرة الثالثة: خشيته سبحانه والخوف منه وحده	٢٧٩
الثمرة الرابعة: الهيبة والحياء منه سبحانه	٢٨٢
الثمرة الخامسة: التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ وحسن الظن به سبحانه	
والثبات أمام الشدائد	٢٨٧
الثمرة السادسة: الطمأنينة والسكينة والسعادة وذوق حلاوة	
العبادة والنشاط لها	٢٩١
الثمرة السابعة: رقة القلب وخشوعه وبكاء العين	٢٩٣
الثمرة الثامنة: محبة الله عَزَّوَجَلَّ للمعظمين له، ورحمته بهم، ونصرته	
لهم ورضاه عنهم	٢٩٥
الثمرة التاسعة: كسب محبة الناس وتقديرهم وإلقاء القبول بينهم	٢٩٦
الثمرة العاشرة: قبول الأعمال عند الله عَزَّوَجَلَّ بصلاح السريرة ...	٢٩٦
الثمرة الحادية عشرة: دعاء الله عَزَّوَجَلَّ والتضرع والانكسار بين يديه	٢٩٧
الثمرة الثانية عشرة: أمن الأسرة المسلمة وطمأنيتها وأمن المجتمع ورخاؤه	٢٩٩
الثمرة الثالثة عشرة: التجافي عن الدنيا والإنابة إلى الله والدار الآخرة	٣٠٠

- الفصل الخامس: الأسباب الجالبة لتعظيم الله عَزَّجَلَّ ٣٠٣
- السبب الأول: دعاء الله عَزَّجَلَّ وصدق الطلب منه سبحانه للفوز بهذه النعمة ٣٠٥
- السبب الثاني: العلم بالله عَزَّجَلَّ وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وآثارها ... ٣٠٨
- السبب الثالث: تدبر كتاب الله عَزَّجَلَّ ٣١١
- السبب الرابع: كثرة ذكر الله عَزَّجَلَّ مع التدبر وكثرة الطاعات مع الخشوع والإخبات ٣٢٤
- السبب الخامس: مصاحبة المعظمين لله عَزَّجَلَّ المخبتين له، الذين إذا رؤوا ذكر الله عَزَّجَلَّ ٣٢٥
- السبب السادس: الإكثار من تذكير النفس المستمر بعظمة الله عَزَّجَلَّ، ومحاسبتها على ذلك وتربية الأهل والأولاد على ذلك ... ٣٢٦
- السبب السابع: تذكر الثمرات اليانعة للتعظيم ٣٢٧
- الخاتمة ٣٢٩
- الوقفه الأولى ٣٢٩
- الوقفه الثانية ٣٣٢
- الوقفه الثالثة ٣٣٤
- التقرير الأول ٣٣٤
- التقرير الثاني ٣٣٥
- التقرير الثالث ٣٣٦
- التقرير الرابع ٣٤٥
- التقرير الخامس ٣٤٨

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فإن الله عَزَّجَلَّ لم يخلق الخلق ولم ينزل الكتب ولم يرسل الرسل إلا من أجل تحقيق أسمى الغايات، ألا وهي عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتوحيده وتحكيم شرعه. ولا يمكن أن تتحقق هذه الغاية إلا بتعظيم الخالق المعبود سبحانه وإجلاله، وتوقيره ومحبته.

ذكر المناوي في تعريف العبادة: «أنها فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا، وقيل هي تعظيم الله وامثال أوامره»^(١).

وقال القنوجي: «وهم أي السلف الصالح أشد تعظيمًا لله وتنزيهاً له عما لا يليق بجلاله»^(٢).

وقال ابن منده في كتاب الإيمان: «والعباد يتفاضلون في الإيمان على قدر تعظيم الله في القلوب والإجلال له، والمراقبة لله في السر والعلانية»^(٣).

(١) التعاريف (ص ٤٩٨)

(٢) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر (ص ٤٨).

(٣) الإيمان (١/ ٣٠٠).

فالتعظيم إذن هو أساس العبودية والتوحيد، وهو الذي يعطي العبادة حلاوتها، وبفقدته أو ضعفه يفقد التوحيد أو يضعف. وهذا بين وظاهر للمتأمل في صور الشرك وأحوال المشركين والكافرين، حيث لم يظهر الكفر على فرد أو مجتمع إلا وكان منشأ ذلك عدم تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم تقديره حق قدره، وصرف ذلك لمخلوقات تعبد من دون الله بالمحبة والتعظيم، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو يدعو قومه ويعظهم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۚ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۚ﴾ [نوح: ١٣-١٤]، وقال سبحانه عن المشركين الذين اتخذوا من دون الله أندادًا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّكَ الْذِيكَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ۚ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

إن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله أمر تقتضيه الفطر السليمة والعقول الصحيحة الصريحة، والمتأمل في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ يجد أن تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه سبحانه لنفسه، وبيان مظاهر عظمته وتعظيمه في خلقه وأمره وشرعه، وحث عباده على تعظيمه وإجلاله، يكاد أن يأتي في كل سورة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما ذاك إلا لأثره واقتضائه لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وتجريد العبودية له وحده، والبراءة من الشرك وأهله.

إن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم شعائره وحرماته وحدوده من أجل العبادات القلبية، التي تثمرها معرفة الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا. وهذا العلم هو أشرف العلوم وأجلها، والذي لا يجوز لمكلف أن يجهله، بل يجب عليه أن يعلمه، ويربي ويعلم من استطاع من أهله وأولاده وغيرهم، هذا العلم الشريف ولا سيما في زماننا اليوم، الذي ضعفت فيه عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب، وتجراً كثير من الناس على ربهم، وعلى نصوص وحيه وشرعه بالاستخفاف والاعتراضات، التي ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ [مریم: ٩٠]. قال الضحاك في تفسير قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ^(١).

وعن أهمية هذا العلم يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عَنْ مَنْزِلَةِ التَّعْظِيمِ: «هذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب. وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً، وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته. قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبیر: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته... وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت»^(٢).

(١) العظمة (١/١٤٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/٤٩٥)، باختصار.

وتتأكد الكتابة والحديث عن هذا الموضوع الجلل في واقعنا المعاصر، الذي طغت فيه المادة على حياة كثير من الناس، حيث قست القلوب، وقحطت العيون، وضعف العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا، مما نشأ عنه ضعف تعظيم الله عَزَّجَلَّ ومحبه وخشيته ورجائه في القلوب.

ولبيان أهمية هذا الموضوع وضرورته أسوق بعض الأمور التي تؤكد أهميته وضرورة الكتابة فيه.

الأمر الأول:

كون تعظيم الله عَزَّجَلَّ والخضوع والتذلل له هو الأساس الذي تبنى عليه كثير من أعمال القلوب التي تقوم عليها العبودية لله عَزَّجَلَّ: كالمحبة والحياء والخوف والرجاء والإخلاص واليقين. وبقدر قوة أو ضعف تعظيم الله عَزَّجَلَّ في القلوب تقوى أو تضعف هذه الأعمال. ومع هذه الأهمية فالقليل من الناس من يعرفها ويعتني بها ويربي نفسه وأهله عليها.

الأمر الثاني:

سبق الحديث في الرسالة السابقة من رسائل الوقفات التربوية عن عبودية التسليم، والموسومة بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وذلك بصورة مفصلة، وذكرت فيها أن من

أعظم وسائل التسليم والانقياد لله عَزَّجَلَّ تعظيم الله عَزَّجَلَّ، والتعبد له سبحانه باسمه (العظيم)، و(الكبير) وقد قاذني ذلك الحديث بتوفيق الله عَزَّجَلَّ إلى ضرورة تخصيص رسالة كاملة يكون موضوعها تعظيم الله عَزَّجَلَّ وتوقيره وإجلاله، فجاءت هذه الرسالة الموسومة بقوله عَزَّجَلَّ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

الأمر الثالث:

ما ظهر في زماننا اليوم من ضعف شديد لهذا العمل القلبي العظيم عند كثير من الناس، وظهر هذا الضعف في صور كثيرة، منها: الجراءة على كلام الله عَزَّجَلَّ ووحيه المنزل، وما فيه من الأخبار والأحكام، وكأنه كلام مخلوق، فتناولوه بالاعتراضات والاستخفاف، ومما ساعد من تفاقم هذه الحالة الخطيرة ما ظهر في زماننا اليوم من وسائل إعلامية، طغت على حياة الناس، وبث فيها أصحاب القلوب المريضة والمنافقون شبهاتهم وشهواتهم، من خلال الكلمة المقروءة والمسموعة والمشاهدة التي تضخ الكفر البواح، وقد بلغ من تأثير هذه الشبهات وضخها في أوساط الأمة أن تأثر بها بعض المنهزمين من كتاب ودعاة محسوبين على الإسلام ودعاته، فراحوا يواجهون هذه الحملات الخبيثة بمواقف انهزامية، وكأن الإسلام وأصوله وأحكامه في قفص الاتهام، فصاروا يرددون بعض الجمل الانهزامية دفاعاً عن الإسلام

زعموا، وذلك مثل قولهم: (روح الإسلام)، (جمال الإسلام)، (سمعة الإسلام) مقدمين بعض الأقوال المرجوحة، بل الشاذة على الدليل الصحيح بقصد التيسير على الناس، وتحسين سمعة الإسلام عند الأعداء.

بل إن بعض المتدينة والمنتسبين إلى العلم والدعوة قد تساهلوا في اقتنائهم لهذه الوسائل المفسدة والدخول على مواقع أهل الزندقة والكفر والإلحاد، التي تدعو إلى الانسلاخ من الإسلام والسنة والقراءة في كتبهم، فأفضى ببعضهم إلى استمراء سماع ومشاهدة وقراءة الكفر والشرك والضلال، وتوسعوا في ذلك بدعوى الرصد ومعرفة سبيل المجرمين، حتى صار أمراً معتاداً أن يسمع الباطل والاستخفاف بالدين وبالله عَزَّوَجَلَّ ورسله وسب الصحابة والصالحين، وما ذاك إلا لكثرة الدخول والاطلاع على هذه المواقع والكتب، وقد حذرنا الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال في سورة النساء: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، والخطير في هذا الأمر أنه قد يؤول بصاحبه إلى ضعف الغيرة الإيمانية ورقة الدين وتهوين شأن الاستهزاء بالدين وأهله، فلا يتمعر الوجه غضباً لله كما يجب، بل ربما علق بالقلب شيء من هذه الشبه الخطافة، فيصعب بعد ذلك التخلص منها.

إن إبراز عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وبيانها للناس لمن أعظم الأسباب في التصدي للهجمة الشرسة من الكفار والمنافقين، الذين يثيرون الشبهات والشهوات للنيل من أصول هذا الدين وأحكامه. إن امتلاء القلب من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم كلامه هو الحصانة من هذه الهجمات.

الأمر الرابع:

ما ظهر في زماننا من تعظيم للرؤساء والعظماء، وما يشرعونه من قوانين وأنظمة، حيث رفعها عامة الناس وعظموها، وأعطوها من القداسة ما لا يصلح إلا لله عَزَّوَجَلَّ وشرعه ودينه، وكذلك ما ظهر من تعظيم الرجال وتقديم أقوالهم وآرائهم على نصوص الكتاب والسنة. وكذلك ما ظهر في زماننا من تعظيم ما لم يعظمه الله عَزَّوَجَلَّ من الأمكنة والأزمنة: كتعظيم الآثار، وتعظيم بعض الأيام، وتسميتها عيداً: كعيد الوطن، وعيد الأم.

الأمر الخامس:

قلة الغيرة على محارم الله عَزَّوَجَلَّ وانتهاك حدوده، فانتشرت المنكرات، وشاع الفساد من غير إنكار، إلا من قلة من المحتسبين الذين عظموا الله عَزَّوَجَلَّ، وعظموا حرماته، فغاروا عليها وأمروا ونهوا، ومعلوم أن تعظيم حرمان الله عَزَّوَجَلَّ والغضب لها من تعظيم

الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه بقدر تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلب يكون تعظيم حرمان الله والغيرة عليها.

الأمر السادس:

ما يلاحظ اليوم من قلة في الخشوع والخاشعين في حياتنا، فقل وندر وجود الخاشعين والمختبين في عباداتهم، وقست كثير من القلوب، حتى لم يعد الوعظ يؤثر فيها، وما ذاك إلا من ضعف التعظيم في القلوب، إذ إن الإخبات والخشوع إنما ينشأ من إجلال الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه ومحبته والخوف منه، ولن يجد العبد حلاوة العبادة ولذتها دون التعظيم، وهذا ما يشكوه كثير من الناس اليوم.

الأمر السابع:

لأن شأن التعظيم وأثره في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات شأن عظيم، إذ لا شيء يدفع المسلم إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وترك معاصيه والتسليم له سبحانه مثل التعظيم والمحبة والخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، فبقدر تعظيم الأفراد والمجتمعات لله عَزَّوَجَلَّ يكون الانزجار عن كل ما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ، والمسارة إلى كل ما يحبه سبحانه ويأمر به، ولذا يتأكد الحديث عن عبودية التعظيم لله تعالى في زماننا اليوم الذي كثر فيه المتجرأون على محارم الله عَزَّوَجَلَّ، والمجاهرون فيه بالمعاصي.

الأمر الثامن:

إن المتأمل لكتاب الله عَزَّجَلَّ ليهره كثرة الآيات التي فيها التعظيم لله تعالى: تارة بتنزيهه سبحانه عن كل نقص وسوء، وتارة بالثناء عليه وحده على صفات الكمال والعظمة في خلقه وأمره، وتارة بإبراز عظمته في شرعه وحكمه وخلق، وتارة بذكر النماذج من المعظمين له سبحانه من رسله وعباده الصالحين، وما فيها من التعظيم والإخبات والتذلل والخضوع لله عَزَّجَلَّ. وتارة بذكر صفاته الحسنی وأسمائه العلاء، التي تتضمن تعظيم الله عَزَّجَلَّ وإجلاله والخوف منه سبحانه. ومع كثرة هذه النصوص في كتاب الله عَزَّجَلَّ، وما ظهر في سيرته عليه الصلاة والسلام من مظاهر التعظيم والتنزيه لله تعالى، فإن الكتابة في هذا الموضوع قليلة وشحيحة مع أن مادة هذا الموضوع كثيرة وميسرة في الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح.

الأمر التاسع:

إن الحديث عن عظمة الله عَزَّجَلَّ وتعظيمه هو مقتضى أسمائه سبحانه: (العظيم، والكبير، والمتكبر) ولا يتوقف ذلك على نوع محدد من العظمة، بل إن الحديث عن اسمه سبحانه (العظيم) سيؤدي إلى الحديث عن كثير من الأسماء والصفات، لأنه سبحانه عظيم في ذاته، عظيم في رحمته، عظيم في قوته وقدرته، عظيم في غناه وكرمه، عظيم

في حلمه وعفوه ومغفرته، عظيم في خلقه، عظيم في حكمه وحكمته، عظيم في عزته وجبروته، عظيم في علمه وإحاطته، عظيم في لطفه وخبرته، عظيم في سمعه وبصره، عظيم في عدله وجزائه. وبهذا يتأكد الاهتمام بهذا الأمر والكتابة فيه، وتعريف الناس به.

الأمر العاشر:

إبراز منهج السلف الصالح الذي تميز من بين المناهج المختلفة في إبراز عبودية التسليم لله عَزَّجَلَّ، الناشئة من تعظيم الله عَزَّجَلَّ ومحبته، وتعظيم وحيه وحرماته، وتقديم ذلك على كل قول وعقل ورأي من آراء البشر. وهذا ما حرره السلف الصالح عبر أقوالهم وأفعالهم، ثم نقله جيلاً بعد جيل ليسير الخلف على طريق السلف.

الأمر الحادي عشر:

كثرة ما يثمره تعظيم الله عَزَّجَلَّ إذا قر في القلوب من الشار اليانعة في الدنيا والآخرة، وقوة أثره وعلاجه لكثير من آفات القلوب وأمراضها، وسيأتي إن شاء الله عَزَّجَلَّ ذكر بعض هذه الشار في ثنايا الكتاب.

وبعد ذكر هذه الأمور التي تؤكد أهمية العناية بهذا الأمر العظيم والكتابة فيه، أذكر أهم الفصول التي يقوم عليها مضمون الكتاب، وأسأل الله عَزَّجَلَّ أن ينفع بهذه الكتابة كاتبها وقارئها ومستمعها، وأن يجعلها خالصة لوجهه سبحانه وصواباً.

الفصل الأول: ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار في بيان
عظمة الله تعالى وتعظيمه.

- الفصل الثاني: ذكر بعض مظاهر العظمة لله تعالى.
- الفصل الثالث: ذكر بعض لوازم التعظيم ومظاهره وعلاماته.
- الفصل الرابع: ذكر بعض ثمرات التعظيم لله تعالى.
- الفصل الخامس: ذكر بعض الوسائل المؤدية لتعظيم الله عزَّوَجَلَّ.
- الخاتمة.

الفصل الأول

ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة

في عظمة الله عزَّجَلَّ وتعظيمه

ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه

(العظيم): اسم من أسماء الله تعالى، ثابت في الكتاب والسنة، حيث ورد في القرآن في تسعة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٣]. وفي السنة قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١).

ويحسن قبل ذكر هذه الآيات والأحاديث والآثار التعرف على معنى «العظيم» في اللغة، ومعناه في حق الله تعالى، وكذلك التعرف على (حقيقة التعظيم ومعناه).

المعنى اللغوي (للعظيم):

(العظيم): خلاف الصغير، عَظُمَ يَعْظُمُ عِظْمًا وَعِظَامَةً: كَبُرَ. وهو عظيم وعُظَام، وعَظُمَ الأمر: كبره، وأعظمه، واستعظمه: رآه عظيمًا فهو مُعْظَم.

والتعظيم: التبجيل، والعظمة: الكبرياء.

(١) البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

والتعظيم في النفس: هو الكبر والزهو والنخوة. والعظمة
والعظمت: الكبر^(١).

أما معناه في حق الله تعالى:

قال الزجاجي: « (العظيم): ذو العظمة والجلال في ملكه
وسلطانه عَزَّجَلَّ، كذلك تعرفه العرب في خطبها ومحاوراتها، يقول
قائلهم: من عظيم بني فلان اليوم؟ أي: من له العظمة والرئاسة،
فيقال له: فلان عظيمهم، ويقولون: هؤلاء عظماء القوم أي:
رؤساءهم وذوي الجلالة والرئاسة منهم... »^(٢).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

« وهو العظيم بكل معنى يوجب التعظيم لا يحصيه من إنسان »^(٣)

فهو عظيم في كل شيء، عظيم في ذاته وفي أسمائه وصفاته،
عظيم في رحمته، عظيم في قدرته، عظيم في حكمته، عظيم في جبروته
وكبريائه، عظيم في هبته وعطائه، عظيم في لطفه وخبرته، عظيم في
بره وإحسانه، عظيم في عزته وعدله وحمده، فهو العظيم المطلق، فلا

(١) انظر: الصحاح (٥/١٩٨٧)، ولسان العرب (٤/٣٠٠٤، ٣٠٠٥).

(٢) اشتقاق أسماء الله (ص ١١١، ١١٢).

(٣) الكافية الشافية، البيت (رقم ٣٢٢٢).

أحد يساويه، ولا عظيم يدانيه^(١)، والعظيم: هو الذي يعظمه خلقه ويهابونه ويذلون له ويتقونه.

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «العظيم الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت في الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم»^(٢).

وأما (حقيقة التعظيم) فيوضحها الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان:

أحدهما: أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله، وأعظمه وأوسع، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء، والعظمة، ومن عظمت أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة، كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [الشورى: ٤-٥].

(١) أسماء الله الحسنى للأشقر (ص ١٤٦).

(٢) الحق الواضح المبين (ص ٢٧).

وفي الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعِظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَبْتُهُ»^(١)، فله تعالى الكبرياء والعظمة، والوصفان اللذان لا يقدر قدرهما، ولا يبلغ كنههما. النوع الثاني من معاني عظمتة تعالى: أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يعظم كما يعظم الله؛ فيستحق جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم، وألسنتهم، وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته، ومحبته، والذل له، والانكسار له، والخضوع لكبريائه، والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته. ومن تعظيمه: أن يُتَّقَى حق تقاته؛ فيطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

ومن تعظيمه: تعظيم ما حرّمه وشرّعه من زمان ومكان وأعمال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

ومن تعظيمه: أن لا يعترض على شيء مما خلقه أو شرّعه»^(٢).

ألفاظ أخرى تتضمن معنى التعظيم:

وفي كتاب الله عَزَّجَلَّ من الآيات الكثيرة التي فيها تعظيم لله تعالى ما له صلة مباشرة بمعنى التعظيم، وما له صلة غير مباشرة.

(١) مسلم (٢٦٢٠).

(٢) الحق الواضح المبين (ص ٢٧، ٢٨).

أولاً: الألفاظ التي لها صلة مباشرة بمعنى (التعظيم):

(أ) ألفاظ التسبيح ومشتقاتها: وما أكثرها بالقرآن الكريم والسنة النبوية، حيث استفتحت بها بعض السور، وتكررت في أذكار اليوم والليلة والأذكار المطلقة.

والتسبيح يعني تنزيه الله عَزَّجَلَّ وتعظيمه وإجلاله، قال سبحانه ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ .. الآية [الإسراء: ١]. وقال سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن ذلك ما ورد في أذكار الركوع: (سبحان ربي العظيم)، وأذكار السجود: (سبحان ربي الأعلى).

(ب) ألفاظ التكبير: والتكبير هو التعظيم، والكبير هو الموصوف بالجلال وكبير الشأن، الذي كل شيء دونه، ولا شيء أكبر، ولا أعظم منه: ذاتاً وقدرًا، وعزة وجلالة، وقد جاء الحث في القرآن على تكبير الله عَزَّجَلَّ، ووصفه سبحانه بالكبير، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]. وقال سبحانه: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا

اللَّهُ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿البقرة: ١٨٥﴾، ووصف نفسه سبحانه (بالكبير) في آيات كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وجاء في السنة الصحيحة التوجيه بكثرة ذكر الله بالتكبير في مواطن كثيرة منها:

- ١- قول: (الله أكبر) للدخول في الصلاة، فتحريم الصلاة التكبير، وتحليلها التسليم.
- ٢- وكذلك تكرار التكبير للانتقال من ركن إلى ركن في الصلاة.
- ٣- الإتيان به في الأذان والإقامة في أولها وآخرها وبصورة مكررة.
- ٤- عند الشروع في الطواف حول الكعبة، وعند محاذاة الحجر الأسود في كل شوط.
- ٥- عند الصفا والمروة في السعي بينهما.
- ٦- عند ركوب الدابة في السفر، وعند الارتفاع على كل شرف من الأرض.
- ٧- عند رمي الجمرات.
- ٨- مشروعيته مع التسبيح والتحميد عند النوم.
- ٩- مشروعيته مع التسبيح والتحميد عقب صلاة الفريضة.
- ١٠- مشروعيته عند رؤية الهلال.
- ١١- عندما يستيقظ الإنسان من نومه في أثناء الليل.

١٢ - الذكر المطلق بالتحميد والتسبيح والتكبير، وأنهن الباقيات الصالحات.

١٣ - قول (بسم الله، والله أكبر) عند ذبح الأضاحي والهدي والذبح عمومًا.

١٤ - أثر التكبير في الجهاد في سبيل الله تعالى في هزيمة الأعداء.

١٥ - مشروعيته في عشر ذي الحجة وأيام التشريق.

١٦ - عند رؤية آيات الله عَزَّجَلَّ، وتعظيم الله تعالى.

وأكتفي بهذه الأمثلة من المواطن التي يشرع فيها التكبير دون ذكر أدلتها طلبًا للاختصار، والاستفاضة لصحة كثير منها. وعن سر التكبير في مثل هذه المواطن، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا كله يبين أن التكبير مشروع في المواضع الكبار لكثرة الجمع، أو لعظمة الفعل، أو لقوة الحال، أو نحو ذلك من الأمور الكبيرة، لبيان أن الله أكبر، وتستولي كبريائه في القلوب على كبرياء تلك الأمور الكبار؛ فيكون الدين كله لله، ويكون العباد له مكبرين، فيحصل لهم مقصودان: مقصود العبادة بتكبير قلوبهم لله، ومقصود الاستعانة بانقياد الطالب لكبريائه»^(١).

وعن معنى (الله أكبر): يقول رَحِمَهُ اللهُ: «وفي قول (الله أكبر) إثبات عظمته، فإن الكبرياء يتضمن العظمة، ولكن الكبرياء أكمل، ولهذا

(١) مجموع الفتاوى (٤/٢٢٩).

جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: (الله أكبر)، فإن ذلك أكمل من قول الله أعظم»^(١).

جـ) أَلْفَاظُ (تَبَارَكَ): وهي كثيرة من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وهذا الوصف لله تعالى يختص به سبحانه لكثرة خيراته ونعمائه الدينية والدنيوية وكثرة بركتها، وهذا الاختصاص يدل على عظمته سبحانه، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «تبارك: أي تعظم وتعالى»^(٢).

د) الخوف والخشية من الله عَزَّجَلَّ، وهما من لوازم التعظيم والإجلال والمحبة، وكلما كان العبد أعلم بالله عَزَّجَلَّ وأكثر تعظيمًا له كان خائفًا وجلًا خاشعًا له سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أنقي»^(٣).

هـ) التوقير والتقدير: كما في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، أي ما لكم لا تخافون الله عظمة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، أي وما عظموا الله حق عظمته.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٣).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢٣٧).

(٣) مسلم (١١١٠).

ثانيًا: ألفاظ ذات صلة غير مباشرة تتضمن التعظيم والإجلال: مثل إسلام الوجه لله، والسجود والتحميد والاستسلام، كما في قول الله عزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقوله سبحانه عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]. وأما في السجود كما في قوله سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمُ الْغُذُورُ وَالْأَصَالُ﴾ [الرعد: ١٥].

وأما (التحميد) فكثير في القرآن الكريم، وهو ثناء على الله عزَّجَلَّ مصحوبًا بالمحبة والتعظيم، وقد استفتح الله عزَّجَلَّ به بعض سور القرآن، منها فاتحة الكتاب وسورة الأنعام وسورة الكهف وسورة سبأ وسورة فاطر. وتكرر الأمر بالحمد في القرآن في مواطن كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِيكَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايِنُهُ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل ٩٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

كما تكرر الذكر بالتحميد في أذكار اليوم والليلة، والأذكار المطلقة مع التسبيح والتكبير والتهليل.

وبعد: فإن مما سبق ذكره من بعض الألفاظ المتضمنة للتعظيم إن هي إلا غيض من فيض، مما في كتاب الله عَزَّجَلَّ، ومما في أدعية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأذكار اليوم والليلة، التي كان يواظب ويحث عليها، لأن أسماء الله الحسنى التي امتلأ بها القرآن الكريم، وأدعية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي في حقيقتها تعظيم وثناء وتذلل وإجلال لله عَزَّجَلَّ.

والتعظيم يزيد وينقص: كالإيمان، فمنه تعظيم واجب، ومنه تعظيم مستحب.

وبعد هذه التوطئة التي تبين لنا فيها معنى (العظيم)، وحقيقة التعظيم، وما رادفه من الألفاظ الأخرى، نذكر ببعض الآيات من كتاب الله عَزَّجَلَّ، وبعض الأحاديث من أقواله وأفعاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعض الآثار عن السلف الصالح، التي تتجلى لنا منها عظمة الله عَزَّجَلَّ، وما يجب على العباد من تعظيمه سبحانه وإجلاله.

أولاً: ذكر بعض الآيات الواردة في ذلك.

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: «يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حَقَّ قدره، حينَ عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. وقال السدي: ما عظموه حق عظمتهم. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرته الله تعالى عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك، فلم يقدر الله حق قدره»^(١).

ويقول السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الآية: «يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا

(١) تفسير ابن كثير (٧/١١٣).

ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئاً. فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات - على سعتها وعظمتها - مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوى به غيره، ولا أظلم منه. ﴿سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تنزه وتعظيم عن شركهم به»^(١).

وقد روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه حديثاً عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول هكذا بيده، ويحركها، يقبل بها ويدبر، يمجّد الرب نفسه: «أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنبر حتى قلنا ليخرن به»^(٢).

وقد ختم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ أبواب كتابه النفيس (كتاب التوحيد) بقوله: «باب في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ

(١) تفسير السعدي (ص ٧٢٩).

(٢) أحمد (٥٤١٤)، وابن حبان (٧٣٢٧)، وقال شعيب الأرناؤوط (محقق الكتاب): وإسناده صحيح.

حَقَّ قَدْرُهُ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ ، وساق فيه الحديث المتفق على صحته، الذي رواه عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الخبر، ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]»^(١).

ولعل قصد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ختم كتاب التوحيد بهذا الباب لشموله على الأسماء والصفات، فأراد أن يكمل الكتاب بتوحيد الأسماء والصفات، لأن ما سبق من أبواب الكتاب كله كان عن توحيد الألوهية، وما يضادها من أنواع الشرك، كما أراد التنبيه إلى أن من أشرك بالله عَزَّجَلَّ من أي نوع من أنواع التوحيد لم يقدر ربه ويعظمه حق التعظيم، إذ إن تعظيم الرب فاطر السموات والأرض، الذي له الأسماء الحسنی يقتضي عبادته وحده والبراءة من الشرك وأهله. يقول الشيخ صالح الفوزان في شرح كتاب التوحيد عند هذا الباب: «وهذه آية عظيمة فيها عبر وعظات، وأن هذا الكون بسماائه

(١) البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦)، واللفظ للبخاري.

وأرضه وجباله وشجره ومائه وثرائه وجميع المخلوقات، يجعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوم القيامة على أصابعه، ويجمعها في كفيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما صحت بذلك الأدلة، فهذا يدل على عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصغر هذه المخلوقات الهائلة بالنسبة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويدل على عظمته وكبريائه وجبروته سبحانه، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أي ما عظموه حق تعظيمه. ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، هذا بيان لعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وسيأتي بيان ذلك في الحديث الذي يسوقه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ. ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾. من كان يقدر على هذه الأمور، فإنه لا أعظم منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكل الكون -بمن فيه- صغير بالنسبة إلى خالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١).

وقد ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ في ثلاثة مواطن في القرآن الكريم:

الأولى: آية الزمر الأنفة الذكر.

الثانية: قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

يقول السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الآية: «هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود والمشركون، وزعم أن الله ما أنزل على بشر من

(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (٢/٣١٦).

شيء، فمن قال هذا، فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفي لأعظم منة، امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة، التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة والفلاح إلا بها، فأَيُّ قدح في الله أعظم من هذا؟»^(١).

ويقول سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية: «لقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج، يقولون: إن الله لم يرسل رسولاً من البشر؛ ولم ينزل كتاباً يوحي به إلى بشر. بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود؛ ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب، ولا أن الله أنزل التوراة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنما هم كانوا يقولون ذلك القول في زحمة العناد واللجاج، ليكذبوا برسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم: ما أنزل الله على بشر من شيء؛ كما يواجههم بالكتاب الذي جاء به موسى من قبل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم، يقوله أمثالهم في كل زمان؛ ومنهم الذين يقولونه الآن؛ ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم.

(١) تفسير السعدي (ص ٢٦٤).

لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم، كالوثنيات كلها قديماً وحديثاً، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم، ولكنها تظل خارج دين الله كله، وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله، وهي ثابتة على أصولها الأولى؛ جاء بها كل رسول؛ فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة؛ ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد، بذات الدين الواحد الموصول.

وهذا القول يقوله -قديماً أو حديثاً- من لا يقدر الله حق قدره؛ ومن لا يعرف كرم الله وفضله، ورحمته وعدله، إنهم يقولون: إن الله لا يرسل من البشر رسولاً ولو شاء لأنزل ملائكة! كما كان العرب يقولون، أو يقولون: إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعني بالإنسان (الضئيل) في هذه الذرة الفلكية التي اسمها الأرض! بحيث يرسل له الرسل؛ وينزل على الرسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير! وذلك كما يقول بعض الفلاسفة في القديم والحديث! أو يقولون: إنه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل.. إنما هي أوهام الناس، أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين! كما يقول الماديون الملحدون!

وكله جهل بقدر الله سبحانه، فالله الكريم العظيم العادل الرحيم، العليم الحكيم، لا يدع هذا الكائن الإنساني وحده، وهو خلقه، وهو

يعلم سره وجهره، وطاقاته وقواه، ونقصه وضعفه، وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوراته وأفكاره، وأقواله وأعماله، وأوضاعه ونظامه، ليرى إن كانت صوابًا وصلاحيًا، أو كانت خطأ وفسادًا. ويعلم سبحانه أن العقل الذي أعطاه له، يتعرض لضغوط كثيرة من شهواته ونزواته ومطامعه ورغباته، فضلًا على أنه موكل بطاقات الأرض التي له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله، وليس موكلًا بتصور الوجود تصورًا مطلقًا، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة»^(١).

ويقول محمد رشيد رضا في تفسير المنار عند هذه الآية: «نطقت الآية بأن منكري الوحي ما عرفوا الله تعالى حق معرفته، ولا وصفوه بما يجب وصفه به، ولا عرفوا كنه فضله على البشر، إذ قالوا: إنه ما أنزل شيئًا على أحد منهم، فهي دليل على أن إرسال الرسل وإنزال الكتب من شئونه سبحانه، ومتعلق صفاته في النوع البشري، فإنها من مقتضى الحكمة، وأجل آثار الرحمة، فمن عرفه تعالى بصفات الكمال، التي هي متعلق ومصدر النظام التام، في عالم الأرواح والأجسام، كالحكمة البالغة، والرحمة السابغة، والعلم المحيط، والقيام بالقسط، ونظر في الآيات البينات في أنفس البشر والآفاق، فعلم منها أنه أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه، وخلق الإنسان في

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٩٥).

أحسن تقويم، مستعدًّا للعروج إلى أعلى عليين، والهبوط إلى أسفل سافلين، من عرف الله بما ذكرنا من الصفات، وعرف البشر بما أجملنا من الأحوال والمميزات، عَلِمَ عَلِمَ اليقين أن إرسال الرسل وإنزال الكتب من آثار تلك الصفات التي هي مصادر النظام ومظاهر الكمال، قد توقف عليه إكمال استعداد البشر للعروج الذي أشرنا إليه، وتوقي الهبوط الذي ذكرنا به، فكان إرشاد الوحي سببًا لكل ارتقاء إنساني، في ركني وجوده الجسماني والروحاني، وقد فُتِنَ في هذا العصر خلق كثير بترقي النظام الاجتماعي، وسعة التمتع الشهواني في شعوب كانت قد استفادت كثيرًا من هداية الوحي، ثم نسيت ذلك الأصل الذي هو مصدر كل الخير، فعتت عن أمر ربها ورسله، فمنهم من كفر بهم وحدهم، ومنهم من كفر بهم وبه، وادعوا أنهم قد استغنوا بعقولهم عن تلك الهداية، بل وصموها بما وسموها به من سمات الغواية، حتى إذا ما برح الخفاء، وفضح الرياء، وانكشف الغطاء، ظهر أن تلك المدنية، هي أفضع الوحشية والهمجية، فأهم أوسع فيها علومًا وفنونًا وأدق نظامًا وقانونًا، هم أشد فتكًا بالإنسان وتخريبًا للعمران، وأن غاية هذا الترقى استعباد الأقوياء للضعفاء بتسخيرهم لخدمتهم، واستخراج خيرات الأرض لهم، استمتاعًا بالشهوات الحيوانية السفلى، وإسرافًا في زينة هذه الحياة الدنيا»^(١).

(١) تفسير المنار (٧/ ٥٠٩).

والآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۗ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]. يشرح ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المثل في هذه الآية، فيقول: «حقيق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدونها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقهم، فكيف ما هو أكبر منه، ولا يقدر على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذونه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب، الذي هو من أضعف الحيوان، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله تعالى، وهذا المثل من أبلغ ما أنزل الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشياطين قد تتلاعب بهم أعظم من تتلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، والغنى

عن جميع المخلوقات، وأن يعتمد إلى الرب في جميع الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإجابة الدعوات، فأعطوها صوراً وتماثيل تمتنع عليها القدرة على مخلوقات الآلهة الحق، وأذلها وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء آهتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف، لو اختطف منهم شيئاً واستلبهم، فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه، لعجزوا عن ذلك، ولم يقدرُوا عليه ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب العابد، والمطلوب المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز^(١).

ويلحق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ على الآيات الثلاث السابقة، التي تكرر فيها قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ فيقول: «والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة ما قدرُوا الله حق قدره في ثلاثة مواضع؛ ليثبت عظمته في نفسه، وما يستحقه من الصفات، وليثبت وحدانيته، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وليثبت ما أنزله على رسله، فقال في الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧]، وقال في الحج: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، وقال في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

(١) الأمثال في القرآن (ص ٤٦).

وفي المواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار، فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره، كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته، وأن يجاهد فيه حق جهاده، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، والمصدر هنا مضاف إلى المفعول، والفاعل مراد أي حق جهاده الذي أمركم به، وحق تقاته التي أمركم بها، واقدروه قدره الذي بينه لكم وأمركم به، فصدقوا الرسول فيما أخبر، وأطيعوه فيما أوجب وأمر. وأما ما يخرج عن طاقة البشر، فذلك لا يذم أحد على تركه، قالت عائشة: (فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو) ^(١).

ودلت الآية على أن له قدرًا عظيمًا، لا سيما قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ^(٢).

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ^(١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ^(١٤) [نوح: ١٣، ١٤]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الآية: «﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي عظمة، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك. وقال ابن عباس: لا تعظمون الله حق عظمته. أي: لا تخافون من بأسه ونقمته» ^(٣).

(١) البخاري (٥١٩٠)، مسلم (٨٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣٧/٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٣٣/٨).

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون الله عظمة، وليس الله عندكم قدر. ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: خلقًا من بعد خلق في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التميز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم^(١).

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لهذه الآية: «قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ قيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف، أي ما لكم لا تخافون الله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة، أي عذر لكم في ترك الخوف من الله؟ وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء ابن أبي رباح: ما لكم لا ترجون لله ثوابًا ولا تخافون له عقابًا؟ وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس: ما لكم لا تخشون الله عقابًا، وترجون منه ثوابًا؟ وقال الوالبي والعمري عنه: ما لكم لا تعلمون الله عظمة؟ وقال ابن عباس أيضًا ومجاهد: ما لكم لا ترون الله عظمة؟ وعن مجاهد والضحاك: ما لكم لا تبالون الله عظمة؟ قال قطرب: هذه لغة حجازية وهذيل وخزاعة ومضر يقولون: لم أرح: لم أبال. والوقار: العظمة. والتوقير: التعظيم. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبة؟

(١) تفسير السعدي (ص ٨٩٩).

كأن المعنى: ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان؟ وقال ابن كيسان: في عبادة الله وطاعته أن يشيكم على توقيركم خيرًا. وقال ابن زيد: ما لكم لا تؤدّون لله طاعة؟ وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون الله حقًا، ولا تشكرون له نعمة؟ وقيل: ما لكم لا توحّدون الله، لأن من عظمه فقد وحده؟ وقيل: إن الوقار الثبات لله عَزَّجَلَّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، أي اثبتن، ومعناه ما لكم لا تثبتون وحدانية الله تعالى، وأنه إلهكم لا إله لكم سواه. قال ابن بحر: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده، قال ابن عباس: أطوارًا يعني نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، أي طورًا بعد طور إلى تمام الخلق، كما ذكر في سورة المؤمنين. والطور في اللغة: المرة، أي من فعل هذا وقدر عليه، فهو أحق أن تعظموه، وقيل: أطوارًا: صبيانًا، ثم شبابًا، ثم شيوخًا، وضعفاء، ثم أقوياء. وقيل: أطوارًا، أي أنواعًا: صحيحًا وسقيمًا، وبصيرًا وضريًا، وغنيًا وفقيرًا. وقيل: إن أطوارًا اختلافهم في الأخلاق والأفعال»^(١).

ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير من الناس، وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره. فإنك توقر المخلوق وتجعله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها. قال تعالى: ﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي لا تعاملونه معاملة

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٣٠٣).

من توقرونه. والتوقير العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوقِرُوهُ﴾ قال الحسن: ما لكم لا تعرفون الله حقاً، ولا تشكرونه؟ وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون الله طاعة. وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته. وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم لو عظموا الله، وعرفوا حق عظمته، وحدوه وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه اجتناب معاصيه، والحياء منه بحسب وقاره^(١).

الآيتان الثالثة والرابعة:

قوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيُبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].
وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

يقول الطبري رحمه الله في تفسيره لآية الحج «يقول: كي تعظموا الله على ما هداكم، يعني على توفيقه إياكم لدينه وللنفسك في حجكم»^(٢).
ويقول السعدي رحمه الله: «أي تعظموه وتجلوه (على ما هداكم)، أي: مقابلة هدايته إياكم، فإنه يستحق أكمل الشناء، وأجل الحمد، وأعلى التعظيم»^(٣).

(١) الفوائد (ص ١٨٧).

(٢) تفسير الطبري (١٨ / ٦٤١).

(٣) تفسير السعدي (ص ٥٣٨).

وأما آية الإسراء فقد قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرها: ﴿وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه عظمة تامة، ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر. أي صفه بأنه أكبر من كل شيء... وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دخل في الصلاة قال: الله أكبر^(١).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في تفسير أضواء البيان: «وقوله ﴿وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه تعظيمًا شديدًا. ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه، والمسارعة إلى كل ما يرضيه، كقوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾، ونحوها من الآيات»^(٢).

الآيتان الخامسة والسادسة:

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(٤) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٤ - ٥].

ومن أحسن ما وقفت عليه من تفسير هذه الآيات ما ذكره الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في أضواء البيان، حيث يقول: «واعلم أن سبب مقاربة السماوات للتفطر، في هذه الآية الكريمة، فيه للعلماء وجهان، كلاهما يدل له قرآن:

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠ / ٣٤٥).

(٢) أضواء البيان (٣ / ١٩٠).

الوجه الأول: أن المعنى تكاد السماوات يتفطرن خوفاً من الله، وهيبة وإجلالاً، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى قبله ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]. لأن علوه وعظمته سبب للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تتفطر.

وعلى هذا الوجه فقوله بعده: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ مناسبة لما قبله واضحة؛ لأن المعنى: أن السماوات في غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سكانها من الملائكة، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، أي ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال، خوفاً منه وهيبة وإجلالاً، كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [النحل: ٤٩-٥٠].

فهم لشدة خوفهم من الله، وإجلالهم له يسبحون بحمد ربهم، ويخافون على أهل الأرض، ولذا يستغفرون لهم خوفاً عليهم من سخط الله، وعقابه، ويستأنس لهذا الوجه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، لأن الإشفاق الخوف.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، يعني لخصوص الذين آمنوا منهم، وتابوا إلى الله، واتبعوا سبيله، كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧].

فقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يوضح المراد من قوله: ﴿لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾. ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى عنهم: إنهم يقولون في استغفارهم للمؤمنين: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧]، لأن ذلك يدل دلالة واضحة على عدم استغفارهم للكفار.

الوجه الثاني: أن المعنى ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ﴾ من شدة عظم الفرية التي افترها الكفار على خالق السماوات والأرض جلّ وعلا، من كونه اتخذ ولداً، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وهذا الوجه جاء موضحاً في سورة مريم، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ۖ تَتَنَسَّقُ الْأَرْضُ وَتُخَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۖ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٨٩ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٠﴾ [مريم: ٨٨-٩٣]، كما قدمنا إيضاحه.

وغاية ما في هذا الوجه أن آية الشورى هذه فيها إجمال في سبب تفطر السماوات، وقد جاء ذلك موضحاً في آية مريم المذكورة. وكلا الوجهين حق.

وقد قدمنا آنفاً أنه دلت عليه آية مريم المذكورة، وعليه فمناسبة قوله: ﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ لما قبله أن الكفار وإن قالوا أعظم الكفر وأشنعه، فإن الملائكة بخلافهم، فإنهم يداومون ذكر الله وطاعته.

ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ، بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] ^(١).

وأما الآيات التي ذكرها الشيخ الشنقيطي آنفاً في سورة مريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ^(٨٨) ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ^(٨٩) ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ ^(٩٠) ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ^(٩١) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ^(٩٢) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لهذه الآيات:

«وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ ^(٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أي: يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفاء له، بل هو الأحد الصمد:

(١) أضواء البيان (٧/ ٣٩-٤١).

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحد

قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبدالله، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ (١٠) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿﴾ قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين... وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشقن فرقا من عظمة الله.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ أي: غضبا لله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ قال ابن عباس: هدمًا. وقال سعيد بن جبیر: ﴿هَذَا﴾ ينكسر بعضها على بعض متتابعات.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبدالله بن سويد المقبري، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مسعر، عن عون بن عبدالله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكر لله عَزَّوَجَلَّ؟ فيقول: نعم، ويستبشر. قال عون: لهي للخير أسمع، أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ (١٠) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿﴾... وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واستعرت النار، حين قالوا

ما قالوا. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي موسى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنه يشرك به، ويجعل له ولد، وهو يعافيههم ويدفع عنهم ويرزقهم»^(١). أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: «أنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيههم»^(٢).

وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفاء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾^(١٢) **﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾**^(١٣) **﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾**، أي: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم، وصغيرهم وكبيرهم»^(٣).

الآية السابعة:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) **﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾**

(١) مسند أحمد (١٩٦٣٣)، وتمام في فوائده (١٧٢)، ولم أجده بهذا اللفظ في الصحيحين.

(٢) البخاري (٧٣٧٨)، مسلم (٢٨٠٤).

(٣) تفسير ابن كثير، ت سامي سلامة (٥/ ٢٦٦-٢٦٧).

فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٍ لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

[فصلت: ٩-١٢].

الآية الثامنة:

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٨، ٢٩﴾.

الآيتان التاسعة والعاشر:

وفيها بيان سعة علمه وعظمته وإحاطته، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِالْإِيلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨-١٠]، والآيات في سعة علم الله عَزَّجَلَّ وشمول إحاطته كثيرة.

الآيات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة:

وفيهما بيان عظمة رحمته وسعة مغفرته، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله سبحانه عند دعاء حملة العرش للمؤمنين من عباده: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، والآيات في سعة مغفرته ورحمته كثيرة.

الآيات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة:

وفيهما بيان عظمة ملك الله عَزَّوَجَلَّ وعظمة قدرته، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِلْ عَنْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، والآيات في ذكر عظمة قدرة الله وقوته وسعته كثيرة.

الآيات السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة:

وفيهما بيان سعة كرمه ورزقه وفضله العظيم سبحانه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا

كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿[هود: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَ تُؤَفَّكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩]، والآيات في بيان سعة كرمه عَزَّجَلَّ وورزقه وفضله كثيرة جدًا.

الآية العشرون:

وهي التي تضمنت بعض أسمائه سبحانه الدالة على عظمته وكبريائه، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

فمن بين هذه الأسماء الواردة في الآية الكريمة: (الملك)، وهو الذي لا ملك فوقه ولا شيء دونه، والله عَزَّجَلَّ هو الملك على الحقيقة، وملك غيره عارية ومحدودة زائلة، والله عَزَّجَلَّ هو المتصرف في الممالك كلها وحده، تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه معارض، وتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك^(١)، وهو سبحانه مالك يوم الدين والدنيا.

(١) انظر: طريق المهجرتين (ص ٢٢٨، ٢٢٩).

ومن هذه الأسماء الواردة في الآية اسمه سبحانه (القدوس)، وهو المنزه من كل شر ونقص وعيب، المنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، والقدوس كالسلام ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله^(١).

ومن هذه الأسماء (المتكبر)، وهو ذو الكبرياء المتعالي عن صفات خلقه، المتكبر على عتاتهم، والكبرياء: العظمة. وهو المتكبر المنزه عن كل سوء، المتكبر عن ظلم عباده.

ومن هذه الأسماء الواردة في الآية السابقة اسمه سبحانه (الجبار): وهو العالي فوق خلقه، القاهر لهم بقدرته، الذي يجبر كسر الكسير، ويغني الفقير. والجبار من أسماء العظيم: كالكبير والمتكبر والمملك والعظيم القهار.

ومن هذه الأسماء الحسنی الواردة في الآية اسمه سبحانه (العزیز)، وهو الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته^(٢).

(١) انظر: تفسير السعدي (٥/ ٤٨٧).

(٢) انظر: تفسير السعدي (ص ٩٤٦).

الآية الواحدة والعشرون:

قوله تعالى في أعظم آية في كتاب الله عَزَّجَلَّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الآية الثانية والعشرون:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرِ يَمْدُ، مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

الآية الثالثة والعشرون:

في سعة سمعه سبحانه وإحاطته بجميع المسموعات والمبصرات، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلمته في جانب البيت، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ...﴾ الآية»^(١).

(١) النسائي (٦/ ١٦٨)، والبخاري معلقاً.

ثانياً : ذكر بعض الأحاديث الواردة في عظمة الله عزَّجَلَّ وتعظيمه.

الحديث الأول:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جاء خبر من الأخبار إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يُجْعِلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالشَّرَى عَلَى إصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْخَبَرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] ^(١).

الحديث الثاني:

عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» ^(٢).

الحديث الثالث:

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمَنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا

(١) البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) مسلم (٢٧٨٨).

قَبَضَتْهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» ، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول هكذا بيده، يحركها، يقبل بها ويدبر، يمجّد الرب تعالى نفسه: أنا الجبار المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم. فرجف برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنبر، حتى قلنا: ليخرن به»^(١).

يلحق الشيخ عبدالرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الأحاديث فيقول: «قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته، وقد تعرف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى عبادته بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة وأئمتها، ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان»^(٢).

الحديث الرابع:

عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقَسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ

(١) مسند أحمد (٥٤١٤)، وأصله في مسلم (٢٧٨٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص ٦٧).

قبل عمل النهار، حجاب به النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه،
ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).

الحديث الخامس:

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أتى رسول
الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرابي فقال: يا رسول الله: جهدت الأنفس،
وضاغت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله
لنا، فإننا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال رسول
الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ويحك! أتدري ما تقول؟»، وسبح رسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم
قال: «إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك،
ويحك! أتدري ما الله، إن عرشه على سماواته هكذا». وقال بأصابعه
مثل القبة عليه^(٢).

الحديث السادس:

وعن ابن عباس قال: قال رجل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما شاء الله
وشئت، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أجعلتني لله ندًّا؛ لا، بل ما شاء الله وحده»^(٣).

(١) مسلم (٤٤٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٢٨)، وقال الذهبي: إسناده حسن. وضعفه بعض أهل العلم،
منهم الألباني.

(٣) أحمد (١٧٤٢).

الحديث السابع:

عن رجاء بن حيوة عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ يُوحِيَ بِأَمْرِهِ تَكَلِّمَ بِالْوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتْ السَّمَاوَاتُ رَجْفَةً»، أَوْ قَالَ: «رَعْدَةً شَدِيدَةً خَوْفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ صَعَقُوا، وَخَرُوا لِلَّهِ سَجْدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ جَبْرِيلُ: قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جَبْرِيلُ، وَيَنْتَهِي جَبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١).

الحديث الثامن:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعُظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنُ أَنْ يَسْتَجَابَ لَكُمْ»^(٢).

الحديث التاسع:

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطُ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (ص ٢٠٣)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ٤٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٠٠)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢١٦)، وابن الأعرابي في معجمه (٨٦٣).

(٢) مسلم (٤٧٩).

إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى»^(١).

الحديث العاشر:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(٢).

الحديث الحادي عشر:

عن سعيد بن عبدالعزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ

(١) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وقال: حسن غريب. وحسنه الألباني.

(٢) البخاري (٦٣٤٦)، مسلم (٢٧٣٠).

فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفىكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

قال سعيد أحد رواة الحديث: «كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه»^(١).

الحديث الثاني عشر:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «إِنْ الْعَزَّازِي، وَالْكَبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهَا عَذَبْتُهُ»^(٢).

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٥٢)، وقال الألباني: صحيح.

الحديث الثالث عشر:

عن عبدالله بن الشخير قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله» فقلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يَسْتَجْرِينَكُمُ الشَّيْطَانُ»^(١).

الحديث الرابع عشر:

عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من استعاذ بالله عَزَّجَلَّ فأعيدوه، ومن سأل بوجه الله عَزَّجَلَّ فأعطوه»^(٢).

الحديث الخامس عشر:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع رجلاً يحلف بأبيه، فقال: «لا تحلفوا بأبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض بالله فليس من الله»^(٣).

(١) أبو داود (٤١٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٥٥).

(٢) أبو داود (٥١١٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٣).

(٣) ابن ماجه (٢١٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٤٧).

الأحاديث السادسة عشر والسابع عشر والثامن عشر:

أذكار الركوع في الصلاة:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فَأَمَّا الركوع فعظموا فيه الرب»^(١).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اجعلوها في ركوعكم».. الحديث^(٢).

عن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قمت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما ركع مكث قدر سورة البقرة، ويقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»^(٣).

الحديث التاسع عشر:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لا يمتنع أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أن يذكر تعظيم الله، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يبعد من رزق»^(٤).

(١) مسلم (٤٧٩)، وهو جزء من حديث حال مرضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي توفي فيه.

(٢) أبو داود (٨٦٩)، وحسنه الألباني.

(٣) النسائي (١٠٤٩)، وصححه الألباني في المشكاة (٨٨٢).

(٤) مجمع الزوائد (١٢١٢٨)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير شيخ الطبراني، ورواه أحمد في المسند بلفظ آخر (٤٧٤).

الحديث العشرون:

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحده، فجلست إليه، فقلت: يا رسول الله أيما آية نزلت عليك أفضل؟ قال: «آية الكرسي، ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»^(١).

(١) ابن جرير في تفسيره (٣٩٩/٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، بمجموع طرقه (١٧٤/١) رقم (١٠٩).

ثالثاً: الآثار الواردة عن السلف في تعظيم الله عز وجل

الأثر الأول:

عن مسروق قال قلت لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا أمتاه هل رأى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه؟ فقالت: «لقد قفَّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث، من حدثكهن فقد كذب. من حدثك أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ...» الحديث (١).

الأثر الثاني:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر، ومشاوريه كهولاً أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

﴿حُذِ الْعَفْوَ وَأُمْرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله»^(١).

الأثر الثالث:

عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما اشتد برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعه، قيل له في الصلاة، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلبه البكاء، قال: «مروه فليصل» فعاودته، فقال: «مروه فليصل، فإنكن صواحب يوسف»^(٢).

الأثر الرابع:

عن وهب بن منبه قال: «بلغ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن مجلس، كان في ناحية بني سهم، يجلس فيه ناس من قريش يختصمون، فترفع أصواتهم، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: انطلق بنا إليهم، فانطلقنا حتى وقفنا، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أخبرهم عن كلام الفتى الذي كلم به أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في بلائه. قال: فقلت: قال الفتى: يا أيوب، أما كان في عظمة الله وذكر الموت، ما يكل لسانك، ويقطع قلبك، ويكسر حجتك؟ يا أيوب، أما علمت أن لله عبداً أسكتتهم خشية الله من

(١) البخاري (٤٦٤٢).

(٢) البخاري (٦٨٢).

غير عي، ولا بكم، وإنهم هم النبلاء، الفصحاء، الطلقاء، الألباء، العالمون بالله وآياته، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله، انقطعت قلوبهم، وكلت ألسنتهم، وطاشت عقولهم وأخلاقهم، فرقاً من الله، وهيبة له، وإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله عَزَّجَلَّ بالأعمال الزاكية، لا يستكثرون لله الكثير، ولا يرضون له بالقليل، يعدون أنفسهم مع الظالمين الخاطئين، وإنهم لأنزاه أبرار، ومع المضيعين المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء، ناحلون، ذائبون، يراهم الجاهل فيقول: مرضى، وليسوا بمرضى، قد خولطوا، وقد خالط القوم أمر عظيم»^(١).

قال محمد بن الحسين: «هذه الأخبار تدل على ما وصفنا به العلماء والفقهاء، فإن قال قائل: ولم داخل العلماء هذا الإشفاق الشديد، وخافوا من علمهم هذا الخوف كله؟ قيل له: علموا أن الله عَزَّجَلَّ يسألهم عن علمهم: ما عملوا فيه؟ فجعلوا مسائلته الله نصب أعينهم، فألزموا أنفسهم شدة الحذر، وأخذوا بالثقة في كل أمرهم، إن قال قائل: فإن العلماء يسألون عن علمهم: ما عملوا فيه؟ قيل: نعم»^(٢).

الأثر الخامس:

قال جعفر بن عبد الله: «كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل، فقال: يا أبا عبد الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟

(١) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢/ ١٢١ رقم ١٢٧٢)، والآجري في أخلاق

العلماء (رقم ٤٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٧٩).

(٢) أخلاق العلماء، للآجري (ص ٧٤، ٧٥).

فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده، حتى علاه الرخصاء - يعني العرق - ثم رفع رأسه ورمى بالعود، وقال: كيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة، وأمر به فأخرج»^(١).

الأثر السادس:

كان أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ إمام أهل السنة إذا نظر إلى نصراني أغمض عينيه، فقليل له في ذلك، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا أقدر أن أنظر إلى من افتري على الله وكذب عليه»^(٢)، فانظر كيف كان تعظيم الله وتوقيره في قلب الإمام أحمد، يجعله لا يطيق النظر إلى من افتري على الله وكذب عليه، وأي افتراء أعظم من مقالة النصارى: إن الله ولدًا. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

الأثر السابع:

مر الإمام أحمد مع ابنه عبد الله على قاص يقص حديث النزول، فيقول: «إذا كان ليلة النصف من شعبان ينزل الله عَزَّجَلَّ إلى سماء الدنيا، بلا زوال ولا انتقال، ولا تغير حال، يقول عبد الله: فارتعد أبي،

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٢٥).

(٢) طبقات الحنابلة (١٠/ ١).

واصفر لونه، ولزم يدي، وأمسكته حتى سكن، ثم قال: قف بنا على هذا المتخرس، فلما حاذاه، قال: يا هذا رسول الله أغير على ربه عَزَّوَجَلَّ منك، قل كما قال رسول الله»^(١).

الأثر الثامن:

قال عون بن عبد الله: «ليعظم أحدكم ربه أن يذكر اسمه في كل شيء، حتى يقول: أخزى الله الكلب، وفعل الله به كذا»^(٢).

الأثر التاسع:

قال الخطابي: «وكان بعض من أدركنا من مشايخنا قل ما يذكر اسم الله تعالى إلا فيما يتصل بطاعة»^(٣).

الأثر العاشر:

عن جعفر بن سليمان قال: سمعت خليفة العبد يقول: «لو أن الله لم يعبد إلا عن رؤية، ما عبده أحد، ولكن المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء، فملاً كل شيء وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء، فمحا سلطان الليل؛ وفي السحاب المسخر بين

(١) انظر مقال (تعظيم الله تعالى وشعائره) في مجلة البيان (العدد ١٠١).

(٢) شأن الدعاء للخطابي (ص ١٨).

(٣) شأن الدعاء (ص ١٨، ١٩).

السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء، وفي الصيف؛ والله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم، حتى أيقنت قلوبهم بربهم؛ وحتى كأنها عبدوا الله تعالى عن رؤية»^(١).

الأثر الحادي عشر:

قال الخطيب: «أنبأنا الجوهري، أنبأنا المرزباني، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى، حدثنا أبو العيناء قال: لما حج المهدي دخل مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يبق أحد إلا قام، إلا ابن أبي ذئب، فقال له المسيب بن زهير: قم، هذا أمير المؤمنين. فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فقال المهدي: دعه، فلقد قامت كل شعرة في رأسي»^(٢).

الأثر الثاني عشر:

قال هرم بن حيان لأويس القرني: «أوصني. قال: توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئاً أشد عليك منهما؛ بينا قلبك معك ونيتك إذا هو مدبر، وبيننا هو مدبر إذا هو مقبل، ولا تنظر في صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت»^(٣).

(١) حلية الأولياء (٦/٣٠٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/١٤٣).

(٣) صفة الصفوة (٣/٥٥).

الأثر الثالث عشر:

وكتب عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ إلى بعض عماله: «أما بعد، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم أن الله عَزَّجَلَّ آخذ للمظلومين من الظالمين، والسلام»^(١).

الأثر الرابع عشر:

قال الباجي: «خرج السلطان أيوب في يوم العيد في أبهة الملك، وأخذت الأمراء تقبل الأرض، فالتفت إليه الشيخ العز بن عبد السلام وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك ملك مصر، ثم تبيح الخمر؟

فقال السلطان: هل جرى هذا؟

قال العز: نعم، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، يناديه بأعلى صوته والعساكر واقفون.

فقال السلطان: يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال العز: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة؟!!

فأمر السلطان بإبطال تلك الخانة.

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٥).

فسأله الباجي: أما خفته؟ قال العز: والله يا بني، استحضرت
هيبة الله تعالى، فصار السلطان قدامي ...»^(١).

الأثر الخامس عشر:

قال إبراهيم بن الأشعث: «ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم
من الفضيل، كان إذا ذكر الله، أو ذكر عنده، أو سمع القرآن، ظهر به
الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من بحضرته»^(٢).

الأثر السادس عشر:

قال ابن عيينة: «دخل هشام الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبدالله،
فقال: سلني حاجة؛ قال: إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره،
فلما خرجا قال: الآن فسلني حاجة. فقال له سالم: من حوائج الدنيا
أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا قال: والله ما سألت
الدنيا من يملكها، فكيف أسأله من لا يملكها»^(٣).

الأثر السابع عشر:

كان زين العابدين علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قام إلى الصلاة
اضطرب وارتعد، فقليل له، فقال: تدرون بين يدي من أقوم وأناجي؟

(١) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي (٨/ ٢١٢).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ٨٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦٦).

وكان إذا توضأ للصلاة، اصفر لونه من شدة الوجل والحياء والخوف، واستشعار عظمة الله عَزَّجَلَّ^(١).

الأثر الثامن عشر:

قال سليمان بن عبد الملك: «يا أبا حازم أوصني، قال: نعم، سوف أوصيك وأوجز: نزه الله تعالى وعظمه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك. ثم قام، فلما ولى قال: يا أبا حازم هذه مئة دينار، أنفقها، ولك عندي أمثالها كثير، فرمى بها، وقال: والله ما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي، إني أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً وردي عليك بذلاً»^(٢).

الأثر التاسع عشر:

عن ابن السماك قال: «أوصاني أخي داود بوصيته، قال: انظر أن لا يراك الله حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك، واستح في قربه منك وقدرته عليك»^(٣).

(١) تهذيب الكمال (٢٠ / ٣٩٠).

(٢) حلية الأولياء (٣ / ٢٣٥).

(٣) المصدر نفسه (٧ / ٣٥٨).

الفصل الثاني

ذكر بعض مظاهر عظمة الله عزَّجَلَّ

ذكر بعض مظاهر عظمة الله عَزَّجَلَّ

إن ما سبق بيانه في الفصل السابق من الآيات والأحاديث في ذكر عظمة الله عَزَّجَلَّ تصلح أن يستشهد ببعضها في هذا الفصل، ومنعاً للتكرار أكتفي بذكر دلالات هذه الآيات والأحاديث على عظمة الله عَزَّجَلَّ في ذاته وصفاته وأفعاله.

أولاً: عظمة الذات:

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، يقول الشيخ السعدي عند هذه الآية: «أي ليس يشبهه تعالى، ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثل شيء لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه»^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يقول السعدي عند هذه الآية: «أي لعظمته وجلاله وكماله لا تحيط به الأبصار ... (وهو يدرك الأبصار) أي هو

(١) تفسير السعدي (ص ٧٥٤).

الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وسمعه بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره بجميع المبصرات صغارها وكبارها»^(١).

ويقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَبَيَّنَ رَبُّهُ لِّلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ويقول تعالى في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقد مر بنا الحديث الذي رواه البخاري عند قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. وكذلك حديث: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة...» الحديث^(٢).

ولا يخفى ما في هذه الآيات والأحاديث من بيان عظمة ذاته عَزَّوَجَلَّ، التي لا تحيط بها العقول.

ثانيًا: عظمة الصفات:

وقد مر بنا في الفصل السابق ذكر بعض هذه الصفات، وما فيها من العظمة والسعة والشمول والإحاطة، فهو سبحانه عظيم

(١) المصدر نفسه (ص ٢٦٨).

(٢) سبق تخريجه.

وواسع في رحمته وقدرته وقوته وجوده وكرمه وعفوه ومغفرته ولطفه وحكمته، وفي علمه وخبرته وسمعه وبصره. ومظاهر العظمة في هذه الصفات لا تخفى على أدنى متأمل، وسبق ذكر الأدلة على ذلك. وسيأتي مزيد من أدلة الكتاب والسنة على ذلك قريباً إن شاء الله تعالى:

ثالثاً: عظمة الأفعال:

فأفعاله سبحانه تتجلى فيها العظمة والشمول، التي تدل على عظمة فاعلها سبحانه، وتتجلى هذه الأفعال التي هي مقتضى أسمائه وصفاته، وذلك في أمرين:

(١) في خلقه سبحانه.

(٢) وفي أمره.

وقبل التوسع في ذكر عظمة خلق الله سبحانه وعظمة أمره، الدالان على عظمتيه سبحانه، أسوق كلاماً نفيساً للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يوضح فيه جانباً من مظاهر عظمة الله تعالى في صفاته سبحانه وأفعاله. يقول رَحِمَهُ اللهُ: «يدبر أمر الممالك، ويأمر وينهى، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقضي وينفذ، ويعز ويذل، ويقلب الليل والنهار، ويداول الأيام بين الناس، ويقلب الدول، فيذهب بدولة، ويأتي بأخرى.

والرسل من الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بين صاعد إليه بالأمر، ونازل من عنده به، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات، نافذة

بحسب إرادته ومشيتته، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء على الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدم ولا تأخر، وأمره وسلطانه نافذ في السموات والأرض وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما تحتها، وفي البحار والجو، وفي سائر أجزاء العالم وذراته، يقلبها ويصرفها، ويحدث فيها ما يشاء، وقد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة وحنانة، ووسع سمعه الأصوات، فلا تختلف عليه ولا تشبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على تفنن حاجاتها، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلظه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ذوي الحاجات.

وأحاط بصره بجميع المراتب، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفى من السر؛ فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد، وخطر بقلبه، ولم تتحرك به شفتاه، وأخفى منه: ما لم يخطر بقلبه بعد، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا.

وله الخلق والأمر، وله الملك وله الحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، وله الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كل شيء؛ ووسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كل حي: ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿[الرحمن: ٢٩]﴾، يغفر ذنبًا، ويفرج همًّا، ويكشف كربًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويعلم جاهلًا، ويهدي ضالًّا، ويرشد حيرانًا، ويغيث لهفانًا، ويفك عانيًا، ويشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتلىً، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا، ويقصم جبارًا، ويقيل عشرةً، ويستر عورةً، ويؤمن روعةً، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين.

لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابهُ النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. يمينه ملأى لا تغيبها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق، فإنه لم يغض ما في يمينه.

قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره، الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، يقبض سماواته كلها بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئًا، وأنا الذي أعيدها كما بدأتها. لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، ولا حاجة يسألها أن يعطيها.

لو أن أهل سماواته، وأهل أرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، كانوا على أتقى قلب رجل منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئًا،

ولو أن أول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، كانوا على أفجر قلب رجل منهم، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً، ولو أن أهل سماواته، وأهل أرضه، وإنسهم وجنهم، وحيهم وميتهم، كانوا على أفجر قلب رجل منهم، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً، ولو أن أهل سماواته، وأهل أرضه، وإنسهم وجنهم، وحيهم وميتهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد، فسألوه فأعطى كلاً منهم مسألته، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

ولو أن أشجار الأرض كلها - من حين وجدت إلى أن تنقضي الدنيا - أقلام، والبحر - وراءه سبعة أبحر تمده من بعده - مداد، فكتب بتلك الأقلام، وذلك المداد، لفنيت الأقلام ونفد المداد، ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى.

وكيف تفنى كلماته جل جلاله، وهي لا بداية لها ولا نهاية؟! والمخلوق له بداية ونهاية، فهو أحق بالفناء والنفاد، وكيف يُفنى المخلوق غير المخلوق؟!!

هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

تبارك وتعالى، أحق من ذكر، وأحق من عبد، وأحق من حمد، وأولى من شكر، وأنصر من ابتغي، وأرأف من ملك، وأجود من سُئل، وأعفى من قدر، وأكرم من قُصد، وأعدل من انتقم.

حكمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته، وموالاته عن إحسانه ورحمته.

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا فبفضله، وهو الكريم الواسع

هو الملك الذي لا شريك له، والفرد فلا ند له، والغني فلا ظهير له، والصمد فلا ولد له، ولا صاحبة له، والعلي فلا شبيه له، ولا سمي له، كل شيء هالك إلا وجهه، وكل ملك زائل إلا ملكه، وكل ظل قالص إلا ظله، وكل فضل منقطع إلا فضله.

لن يُطاع إلا بفضله ورحمته، ولن يُعصى إلا بعلمه وحكمته، يُطاع فيشكر، ويعصى فيتجاوز ويغفر، كل نعمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، ونسخ الآثار، وكتب الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، عطاؤه كلام، وعذابه كلام: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ في سعة علمه وإحاطته:

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى

(١) الوابل الصيب (ص ٧٢).

مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿المجادلة: ٧﴾، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ويقول سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ويقول عز وجل: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨-١٠]، ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٢، ٣]، ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وفي قصة موسى عليه السلام مع الخضر، قال الخضر لموسى عليه السلام عندما رأيا عصفورًا ينقر في البحر بمنقاره نقرة: «ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر»^(١).

(١) البخاري (٤٧٢٥).

صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ في سمعه وبصره:

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

ويقول سبحانه عن موسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

ويقول تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَانَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ويقول عَزَّجَلَّ عن نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

ويقول سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويقول تعالى: ﴿أَخْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

والآيات في ذكر سعة سمع الله وبصره وعظمتها كثيرة جداً.

صور من عظمة الله تعالى في سعة جوده وكرمه وبره وإحسانه:

قال الله عزَّجَلَّ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۗ وَاللَّهُ خَرَّانُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

ويقول عزَّجَلَّ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

ومر بنا الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر»^(١).

(١) سبق تخريجه (ص ٦٥).

صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ في قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض ومن فيهما:

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴾ [الاحقاف: ٣].

ويقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٨].

ويقول سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَّكُمُ إِلَّا نَا لَا تُرْجَعُونَ ۚ ﴾ [١١٥] فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

ويقول سبحانه عن تحدي هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِذْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

ويقول عَزَّجَلَّ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَئِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الاحقاف: ٣٣].

والآيات في ذكر قدرته سبحانه وحكمته كثيرة جدًا.

صور عظمتة سبحانه في رحمته ورأفته وحلمه:

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

ويقرب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً من صور رحمة الله عَزَّجَلَّ الواسعة العظيمة لأذهان الناس في الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذ وجدت صبيّاً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(١).

(١) البخاري (٢٧٥٣).

وكذلك الحديث الآخر الذي قال فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»^(١).

ويقول سبحانه عن سعة حلمه وصفحه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ في خلقه وأمره وحكمته البالغة في ذلك: إن المتأمل في خلقه سبحانه وأمره الشرعي والقدري، ليرى آثار أسماء الله الحسنى العظيمة متجلية في ذلك، فالخلق والأمر هما مقتضى أسمائه سبحانه الحسنى وصفاته العلا، وإن أبرز ما يظهر للمتأمل في هذا الكون وما قدره سبحانه فيه من الخلق والأمر أربع صفات عظيمة من صفاته سبحانه، تتضمن هذه الصفات الأربع بقية الصفات الحسنى، وهذه الصفات هي صفة العظمة، وصفة الرحمة، وصفة الحكمة، وصفة القدرة. فعظمة هذا الخلق تدل على عظمة خالقه سبحانه. وما يظهر فيه من الرحمة واللفظ والنعم العظيمة والمخلوقات المسخرة لبني آدم. تدل على رحمته سبحانه الواسعة،

(١) مسلم (٢٧٥٢).

وما يتجلى من الحكم البالغة والنظام الدقيق تدل على حكمته سبحانه
الواسعة البالغة، وما فيه من قوة ومتانة وتماسك وتنظيم بقدرة
الله عَزَّوَجَلَّ، وقوته تدل على القدرة العظيمة التي خلق الله عَزَّوَجَلَّ بها
هذا الخلق، ودبر فيه الأمر. قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ
حَيْثُا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ
رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فعظمة الله عَزَّوَجَلَّ تتجلى في أمرين عظيمين:
(في خلقه وفي أمره).

أولهما: عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه المتجلية في الآفاق والأنفس:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ
لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾
[الذاريات: ٢٠-٢١].

وإن عظمة المخلوقات ودقة نظامها تدل على عظمة خالقها
سبحانه، وحكمته البالغة في خلقها.

صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلق هذا الكون العظيم:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ
اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَن عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾
[الأعراف: ١٨٥].

ويقول سبحانه حاثًا لعباده على النظر والتفكير في عظمة هذا الكون: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويقول عزَّجَلَّ مادحًا عباده الذين يتفكرون في عظمة هذا الكون، وما يثمر في نفوسهم من ذكر الله عزَّجَلَّ وتعظيمه وتنزيه له سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وأسوق فيما يلي تفصيلًا لبعض هذه الآيات الباهرات في خلق السموات والأرض وما بينهما، التي تتجلى فيها عظمة خالقها سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك كما يصورها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه النفيس (مفتاح دار السعادة)، حيث يقول: «فتأمل خلق السماء، وارجع البصر فيها كرة بعد كرة، كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها، بحيث لا تصعد علوًّا كالنار، ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة، ولا عمد تحتها، ولا علاقة فوقها، بل هي ممسوكة بقدرة الله، الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ثم تأمل استواءها واعتدالها، فلا صدع فيها، ولا فطر، ولا شق، ولا

أمت، ولا عوج. ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون، الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له، حتى إن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة، وما قرب منها إلى السواد. وقال الأطباء: إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجانة خضراء مملوءة ماء، فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه، ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له، هذا بعض فوائد هذا اللون، والحكمة فيه أضعاف ذلك.

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما، لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معاشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور، ثم تأمل الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع فرط الحاجة إلى السبات، وجھوم الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها، حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتاً بمنزلة السراج، يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك، ليقروا ويهدؤوا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا، مع تضادهما متعاونين متظاهرين، بهما

تمام مصالح العالم، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى، ونبه عباده عليه بقوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الفصل: ٧١، ٧٢]، خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع، لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار، لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات. وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر. والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع، فقله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ وقوله: ﴿أَوْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ وقال تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٦١) وهو الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، فذكر تعالى خلق الليل والنهار، وإنهما خلفه أي يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما، وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار، كون كل واحد منهما يخلف الآخر، لا يجامعه ولا يحاذيه، بل يغشى أحدهما صاحبه، فيطلبه حثيثاً يزيله عن

سلطانه، ثم يجيء الآخر عقيبه، فيطلبه حثيثاً حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائماً يتطالبان، ولا يدرك أحدهما صاحبه»^(١).

وقال أيضاً: «ومن آياته وعجائب مصنوعات البحار المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض، حتى إن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمورة بالماء، ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته، وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها، هذا طبع الماء، وهذا حير عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه، وأن يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية، التي اقتضت ذلك العيش الحيواني الأرضي في الأرض، وهذا حق، ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله، ولا محيص عنه. وفي مسند الإمام أحمد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم»^(٢) وهذا أحد الأقوال في قوله عَزَّجَلَّ: (والبحر المسجور): إنه المحبوس. حكاه ابن عطية وغيره، قالوا: ومنه

(١) مفتاح دار السعادة (١/٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) مسند أحمد (٣٠٣)، ولفظه: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض، يستأذن الله في أن يتضح عليهم، فيكفه الله عَزَّجَلَّ».

ساجور الكلب، وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه، وكذلك لولا أن الله يجبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض، فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض، ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الرياح، التي يسخرها الله لإجرائها، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راکدة على وجه الماء، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) إِنَّ يَسَاءَ يَسْكُنَ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣] وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ كَمَا يَمْشِي فِي مَوْجِهِ وَتَلْتَبَتُّوهُ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، فما أعظمها من آية، وأبينها من دلالة، ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيراً، وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]» (١).

إلى أن قال: «ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها، وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها، وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بالذي نصب الجبال، وأودع فيها المنافع، الله أمرك

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٤، ٢٠٥).

بكذا وكذا؟ قال «اللهم نعم» فمن منافعها أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلاً لشراب الناس إلى حين نفاذه، وجعل فيها ليزوب أو لا فأول، فتجيء منه السيول الغزيرة، وتسيل منه الأنهار والأودية، فينبت في المروج والوهاد والربا ضروب النبات والفواكه والأودية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل، فلولاً الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض، فانحل جملة وساح دفعة، فعدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملة السيول، التي تهلك ما مرت عليه، فيضر بالناس ضرراً لا يمكن تلافيه ولا دفعه لأذيته، ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعازل، التي هي بمنزلة الحصون والقلاع، وهي أيضاً أكنان للناس والحيوان، ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها، ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد، وأضعاف ذلك من أنواع المعادن، الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل، حتى إن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة، وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه، ومن منافعها أيضاً أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها، فلا تدعها تصدم ما تحتها، ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية، ومن منافعها

أيضاً أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها، فتصرفها عنهم ذات اليمن وذات الشمال، ولولاها خربت السيول في مجاريها ما مرت به، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن، ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات، فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق، ولهذا سماها الله أعلاماً، فقال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢]، فالجواري: هي السفن، والأعلام: الجبال»^(١).

وتحدث في موطن آخر عن عظمة الله عزَّجَلَّ، وحكمته في خلق الرياح بأنواعها وتصريفها والسحاب المسخر بين السماء والأرض، فيقول: «ومن آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، يدرك بحس اللمس عند هبوبه. يدرك جسمه ولا يرى شخصه، فهو يجري بين السماء والأرض، والطير مختلفة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه، كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه، كما تضطرب أمواج البحر، فإذا شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحاً للسحاب يلقيه بحمل الماء، كما يلقيح الذكر الأنثى بالحمل، وتسمى رياح الرحمة: المبشرات، والنشر، والذاريات، والمرسلات، والرخاء، واللواقح. ورياح العذاب: العاصف والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر، وهما في

(١) المصدر نفسه (ص ٢١٨-٢١٩).

البر، وإن شاء حركه بحركة العذاب، فجعله عقيماً، وأودعه عذاباً أليماً، وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصراً ونحساً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه، وهي مختلفة في مهاها، فمنها صبا، ودبور، وجنوب، وشمال. وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تشده وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه، ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها، فريح تثير السحاب، وريح تلقحه، وريح تحملها على متونها، وريح تغذي النبات، ولما كانت الرياح مختلفة في مهاها وطبائعها، جعل لكل ريح ريحاً مقابلتها، تكسر سورتها وحدتها، ويبقى لينها ورحمتها، فرياح الرحمة متعددة. وأما ريح العذاب، فإنه ريح واحدة، ترسل من وجه واحد، لإهلاك ما ترسل بإهلاكه، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها... ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف -الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه- من الشدة والقوة والبأس ما يقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة، ويزعجها عن أماكنها ويفتتها، ويحملها على متنه، فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق مثلاً وامتلاً به، ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره، وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق، ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه، فامتنع هذا اللطيف

من قهر الماء له، ولم يمتنع منه القوي الشديد، وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء، فإنه لا يرسب فيه، لأن الهواء يمتنع من الغموس في الماء، فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة، فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به، حتى أمن من الغرق، وهذا كالذي يهوي في قليب، فيتعلق بذيل رجل قوي شديد، يمتنع عن السقوط في القليب، فينجو بتعلقه به، فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد.

ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض، كيف ينشئه سبحانه بالرياح، فتثيره كسفًا ثم يؤلف بينه، ويضم بعضه إلى بعض، ثم تلقحه الريح، وهي التي سماها سبحانه لواقع، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوى عليها أهرق ماء عليها، فيرسل سبحانه عليه الريح، وهو في الجو فتذروه وتفرقه، لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته، حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها، فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح، وفي الترمذي وغيره: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رأى السحاب، قال: «هذه روايا الأرض، يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه»، فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم، التي عليها ميرتهم، وكان

الحسن إذا رأى السحاب، قال: في هذا والله رزقكم، ولكنكم تحرموه بخطاياكم وذنوبكم. وفي الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بينما رجل بفلاة من الأرض، إذ سمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان. فمر الرجل مع السحابة، حتى أتت على حديقة، فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها، فإذا برجل معه مسحاة يسحي الماء بها، فقال: ما اسمك يا عبدالله؟ قال: فلان. للاسم الذي سمعه في السحابة»^(١)، وبالجملة فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لاكدورة فيه، وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء، وهو مع لينة ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض، إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء، فيرسله وينزله منه مقطعاً بالقطرات، كل قطرة بقدر مخصوص، اقتضته حكمته ورحمته، فيرش السحاب الماء على الأرض رشاً، ويرسله قطرات مفصلة، لا تختلط قطرة منها بأخرى، ولا يتقدم متأخرها، ولا يتأخر متقدمها، ولا تدرك القطرة صاحبته، فتمزج بها، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها، لا تعدل عنه، حتى تصيب الأرض قطرة قطرة، قد عينت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة، أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه، فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقاً

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٤).

للعباد والدواب والطيور والذر والنمل يسوقه رزقاً للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني، فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش، في وقت كذا وكذا، ثم كيف أودعه في الأرض، ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات، فهذا النبات يغذي، وهذا يصلح الغذاء، وهذا ينفذه، وهذا يضعف، وهذا سم قاتل، وهذا شفاء من السم، وهذا يمرض، وهذا دواء من المرض»^(١).

وهذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض، وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، وما في الأرض من الجبال والشجر والنبات والدواب، كلها مسبحة لله عَزَّجَلَّ، خاضعة له ساجدة معظمة له، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

ب) صور من عظمة الله عَزَّجَلَّ وإتقانه في خلق الإنسان:

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، وقال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [الآية [فصلت: ٥٣]،

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠١، ٢٠٢).

وعن خلق الإنسان وما فيه من العجائب والحكم البالغة، التي تدل على عظمة خالقه، يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب، منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذلة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها، إلى أن ساقها إلى مستقرها وجمعها، وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع، الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك المائين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارًا مكينًا، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقه حمراء تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعله عظامًا مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها، وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك، ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشدّه، وأبعده عن الانحلال، وكيف كساها

لحمًا ركبه عليها، وجعله وعاء لها وغشاء وحافظًا، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها، وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين وبسطهما، وقسم رؤوسهما بالأصابع، ثم قسم الأصابع بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه، ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قوامًا للبدن وعمادًا له، وكيف قدرها ربه وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة، فمنها الصغير والكبير، والطويل والقصير، والمنحني والمستدير، والدقيق والعريض، والمصمت والمجوف، وكيف ركب بعضها في بعض، فمنها ما تركيبه الذكر في الأنثى، ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط، وكيف اختلف أشكالها باختلاف منافعها: كالأضراس، فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة، ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة، ولما كان الإنسان محتاجًا إلى الحركة بجملة بدنه و ببعض أعضائه، للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظمًا واحدًا بل عظامًا متعددة، وجعل بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة، وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه، وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء، وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات، أنبتها من أحد طرفي العظم، وألصق

أحد طرفي العظم بالطرف الآخر: كالرباط له، ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه، وفي الآخر نقرًا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد، ليدخل فيها وينطبق عليها، فإذا أراد العبد أن يحرك جزءًا من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه، وتأمل كيفية خلق الرأس، وكثرة ما فيه من العظام، حتى قيل: إنها خمسة وخمسون عظمًا مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الْبَدَنِ، وجعله عاليًا علو الراكب على مركوبه، ولما كان عاليًا على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وجعل حاسة البصر في مقدمه، ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن، وركب كل عين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص، ومقدار مخصوص، ومنفعة مخصوصة، لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع، أو زالت عن هيئتها وموضعها، لتعطلت العين عن الإبصار، ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقًا عجيبًا، وهو إنسان العين بقدر العدسة، يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء»^(١).

... إلى آخر ما ذكره من العجائب في خلق الإنسان من الأجهزة والوظائف المختلفة.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٨، ١٨٩).

ويتحدث سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ عن عجائب خلق الإنسان، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فيقول: «وهذا المخلوق الإنساني هو العجبية الكبرى في هذه الأرض، ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسرارهِ الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الإيمان، وحين يحرم نعمة اليقين، إنه عجيبة في تكوينه الجسماني، في أسرار هذا الجسد. عجيبة في تكوينه الروحي، في أسرار هذه النفس، وهو عجيبة في ظاهره، وعجيبة في باطنه، وهو يمثل عناصر هذا الكون، وأسراره وخفائيه.

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير، تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف، عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفس والاحتراق، دورة الدم في القلب والعروق، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم، الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها، وتجاوبها الكامل الدقيق، وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب.

وأسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة، إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها، هذه المعلومات والصور المخزنة،

أين؟ وكيف؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت؟ وأين؟ وكيف تُستدعى فتجيء، وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى، فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر، تظهر آثاره بين الحين والحين في لمسات وإشرافات تدل على ما وراء الظاهر من المغيب المجهول.

ثم أسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه، خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص؛ وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين، فأين تكمن هذه الخصائص في تلك الخلية الصغيرة؟ وكيف تهتدي بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل، فتمثله أدق تمثيل، وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب؟

وإن وقفة أمام اللحظة التي يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض، وهو منفصل عن أمه ويعتمد على نفسه، ويؤذن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة، إن وقفة أمام هذه اللحظة وأمام هذه الحركة، لتدهش العقول وتحير الأبواب، وتغمر النفس بفيض من الدهش وفيض من الإيمان، لا يقف له قلب، ولا يتماسك له وجدان.

وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات، بل أمام النطق ذاته، نطق هذا اللسان، وتصويت تلك الحنجرة، إنها عجيبة عجيبة تفقد وقعها لأنها تمر بنا كثيرًا، ولكن الوقوف أمامها لحظة في

تدبر يجدد وقعها، إنها خارقة، خارقة مذهلة، تنبئ عن القدرة التي لا تكون إلا لله، وكل جزئية في حياة هذا المخلوق توقفنا أمام خارقة من الخوارق، لا ينقضي منها العجب ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده، ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله، في صورة خاصة لا تتكرر أبدًا على مدار الدهور، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعًا، لا في شكله وملاحه، ولا في عقله ومداركه، ولا في روحه ومشاعره، ولا في صورة الكون كما هي في حسه وتصوره، ففي هذا المتحف الإلهي العجيب الذي يضم ملايين الملايين، كل فرد نموذج خاص، وطبعة فريدة لا تتكرر، يمر من خلالها الوجود كله في صورة كذلك لا تتكرر، كما لا توجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى في هذه الأرض في جميع العصور.

وكثير من عجائب الجنس البشري مكشوفة للبصر، تراه العيون ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وما تراه العيون من عجائبه يشير إلى المغيب المكنون.

وهذه العجائب لا يحصرها كتاب، فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات، والمجهول منها ما يزال أكثر من المعلوم، والقرآن لا يحصيها ولا يحصرها، ولكنه يلمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لهذا المتحف الإلهي المعروض للأبصار والبصائر، وليقضي رحلته

على هذا الكوكب في ملاحظة وتدبر، وفي متاع رفيع يتأمل هذا الخلق العجيب، الكامن في ذات نفسه، وهو عنه غافل مشغول»^(١).

ثانيهما: عظمة الله عَزَّجَلَّ المتجلية في أمره سبحانه:

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَنْقُونُ﴾ [يونس: ٣١].

ويقول عَزَّجَلَّ: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

ويقول عَزَّجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٧٩، ٣٣٨٠).

يقول السعدي رَحْمَةُ اللَّهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ، مَبِينًا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ وعلاقته بما قبله: «هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق ويغني ويفقر، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقلل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها، التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره، وينزل الكتب الإلهية على رسله، وبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل، بيانها وإيضاحها وتمييزها»^(١).

ويقول عند آية السجدة: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ أي الأمر القدري والأمر الشرعي^(٢).

إذن (فالأمر) المذكور في هذه الآيات، وأنه لله وحده يدبره ويصرفه، كما يشاء، هما أمره القدري الكوني، وأمره الديني الشرعي. وكلا الأمرين فيهما من مظاهر العظمة والجلال والحكمة ما يبهر العقول، ويدل على عظمة الله عَزَّجَلَّ وجلاله المتفرد بتصرف الأمور بعلمه وحكمته وعزته ورحمته وقدرته.

(١) تفسير السعدي (ص ٤١٢).

(٢) تفسير السعدي (ص ٦٥٣).

يتحدث الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن الحكمة من الأمر والخلق، فيقول: «فانظر حكمة الله عَزَّجَلَّ في خلقه وأمره فيما خلقه وفيما شرعه تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة، التي لا يختل نظامها، ولا ينخرم أبداً، ولا يختل أصلاً، ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق، وهؤلاء خواص العباد، الذين عقلوا عن الله أمره ودينه، وعرفوا حكمته فيما أحكمه، وشهدت فطرهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة وإحسان ومصلحة أريدت بالعباد في معاشهم ومعادهم، وهم في ذلك درجات لا يحصيها إلا الله، ومنهم من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الأمر، وهم أكثر الأطباء، الذين صرفوا أفكارهم إلى استخراج منافع النبات والحيوان، وقواها وما تصلح له مفردة ومركبة، وليس لهم نصيب في حكمة الأمر، إلا كما للفقهاء من حكمة الخلق، بل أقل من ذلك، ومنهم من فتح عليه بمشاهدة الخلق والأمر، بحسب استعداده وقوته، فرأى الحكمة الباهرة التي بهرت العقول في هذا وهذا، فإذا نظر إلى خلقه وما فيه من الحكم ازداد إيماناً ومعرفة وتصديقاً بما جاءت به الرسل.

وإذا نظر إلى أمره وما تضمنه من الحكم الباهرة ازداد إيماناً و يقيناً وتسليماً، لا كمن حجب بالصنعة عن الصانع، وبالكواب عن مكوبها، فعمى بصره، وغلظ عن الله حجابها، ولو أعطى علمه

حقه لكان من أقوى الناس إيماناً، لأنه اطلع من حكمة الله وباهر آياته وعجائب صنعته الدالة عليه، وعلى علمه وقدرته وحكمته، على ما خفي عن غيره، ولكن من حكمة الله أيضاً أن سلب كثيراً من عقول هؤلاء خاصيتها وحجبها عن معرفته، وأوقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، لدناءتها وخستها وحقارتها وعدم أهليتها لمعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته، وأسرار دينه وشرعه، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وهذا باب لا يطلع الخلق منه على ما له نسبة إلى الخافي عنهم منه أبداً، بل علم الأولين والآخرين منه كنقرة العصفور من البحر»^(١).

ويتحدث سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ عن أمر الله الكوني القدي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾ فيقول: «كل شيء، كل صغير، وكل كبير، كل ناطق وصامت، كل متحرك، وكل ساكن، كل ماض وكل حاضر، كل معلوم وكل مجهول... كل شيء خلقناه بقدر، قدر يحدد حقيقته، ويحدد صفته، ويحدد مقداره، ويحدد زمانه، ويحدد مكانه، ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء»^(٢).

إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: «إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدرة مدبرة صغيرها وكبيرها، كل حركة في التاريخ ككل

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣).

انفعال في نفس فرد، ككل نفس يخرج من صدر، إن هذا النفس مقدر في وقته، مقدر في مكانه، مقدر في ظروفه كلها، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون، محسوب حسابه في التناسق الكوني، كالأحداث العظام الضخام.

وهذا العود البري النابت وحده هناك في الصحراء، إنه هو الآخر قائم هناك بقدر، وهو يؤدي وظيفة ترتبط بالوجود كله منذ كان، وهذه النملة السارية، وهذه الهبأة الطائرة، وهذه الخلية السابحة في الماء، كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء.

تقدير في الزمان، تقدير في المكان، تقدير في المقدار، وتقدير في الصورة، وتناسق مطلق بين جميع الملابسات والأحوال...

إنه قدر الله وراء طرف الخيط البعيد، لكل حادث، ولكل نشأة، ولكل مصير، ووراء كل نقطة، وكل خطوة، وكل تبديل أو تغيير.

إنه قدر الله النافذ، الشامل، الدقيق، العميق.

وأحياناً يرى البشر طرف الخيط القريب، ولا يرون طرفه البعيد، وأحياناً يتطاول الزمن بين المبدأ والمصير في عمرهم القصير، فتخفى عليهم حكمة التدبير، فيستعجلون ويقترحون، وقد يسخطون، أو يتطاولون، والله يعلمهم في هذا القرآن أن كل شيء بقدر، ليسلموا الأمر لصاحب الأمر، وتطمئن قلوبهم وتستريح، ويسيروا مع قدر

الله في توافق وفي تناسق، وفي أنس بصحبة القدر في خطوه المطمئن
الثابت الوثيق ومع التقدير والتدبير، القدرة على تفعيل أعظم
الأحداث بأيسر الإشارات.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ فهي إشارة واحدة، أو كلمة
واحدة، يتم بها كل أمر، الجليل والصغير سواء، وليس هنالك جليل
ولا صغير، إنما ذلك تقدير البشر للأشياء، وليس هنالك زمن ولا ما
يعادل لمح البصر، إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر، فالزمن
إن هو إلا تصور بشري ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة، ولا وجود
له في حساب الله المطلق، من هذه التصورات المحدودة، واحدة تنشئ
هذا الوجود الهائل، وواحدة تبدل فيه وتغير، وواحدة تذهب به كما
يشاء الله، وواحدة تحيي كل حي، وواحدة تذهب به هنا وهناك،
وواحدة ترده إلى الموت، وواحدة تبعثه في صورة من الصور، وواحدة
تبعث الخلائق جميعاً، وواحدة تجمعهم ليوم الحشر والحساب»^(١).

هذا عن أمره الكوني القدري وما فيه من العلم الواسع العظيم
والحكمة العظيمة، والقدرة والقوة والرحمة الواسعة العظيمة.

أما ظهور العظمة والجلال في أمره الشرعي الديني، فهذا جلي
لأهل البصائر وأولي الألباب، فما أعظم وأنفع ما تضمنته أوامر الله

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٤١)، باختصار.

ونواهيته، وأحكامه الشرعية، من مصالح عظمى، تدرك العقول بعضها، ويخفى عليها بعضها، كاملة شاملة متوازنة مبرأة من الجهل والظلم والهوى والقصور، وما أحسن ما قاله الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو يصف حسن هذه الشريعة وكمالها وعظمة نفعها للعباد في الدنيا والآخرة، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم، والملة الحنيفة، والشريعة المحمدية، التي لا تنال العبارة كمالها، ولا يدرك الوصف حسننها، ولا تقترح عقول العقلاء - ولو اجتمعت، وكانت على أكمل عقل رجل منهم - فوقها، وحسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسننها، وشهدت بفضلها، وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له، والحجة والمحتج له، والدعوى والبرهان، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهاناً وآية وشاهداً على أنها من عند الله، وكلها شاهدة له بكمال العلم، وكمال الحكمة، وسعة الرحمة والبر والإحسان، والإحاطة بالغيب والشهادة، والعلم بالمبادئ والعواقب، وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها، وجعلهم من أهلها، ومن ارتضاها لهم وارتضاهم لها، فلهذا امتن على عباده بأن هداهم لها؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ

كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿[آل عمران: ١٦٤]﴾، وقال معرفاً لعباده، ومذكراً لهم عظيم نعمته عليهم، مستدعيًا منهم شكرهم على أن جعلهم من أهلها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذاناً في الدين بأنه لا نقص ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذاناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يُتمها لهم بالدوام في هذه الديار، وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم، إذ هم القائمون به المقيمون له، وإضافة النعمة إليه، إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقاً وهم قابلوها...

وقد ذكرنا فصلاً مختصراً في دلالة خلقه على وحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، وأسمائه الحسنى، وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب، ثم رأينا أن نتبعه فصلاً في دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه، وحكمته ورحمته، وسائر صفات كماله، إذ هذا من أشرف العلوم التي يكتسبها العبد في هذه الدار يدخل بها إلى الدار الآخرة.

وقد كان الأولى بنا الإمساك عن ذلك؛ لأن ما يصفه الواصفون منه، وتنتهي إليه علومهم هو كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم ينزعها! فهو يصف البحر بما يعلق على إصبعه من البلل، وأين ذلك من البحر؟! فيظن السامع أن تلك الصفة أحاطت بالبحر، وإنما هي صفة ما علق على الإصبع منه، وإلا فالأمر أجل وأعظم وأوسع من أن تُحيط عقول البشر بأدنى جزء منه.

وماذا عسى أن يصف به الناظر إلى قرص الشمس من ضوئها وقدرها وحسنها وعجائب صنع الله فيها، ولكن قد رضي الله من عباده بالثناء عليه، وذكر آلائه، وأسمائه وصفاته، وحكمته وجلاله، مع أنه لا يحصي ثناء عليه أبداً، بل هو كما أثنى على نفسه، فلا يبلغ مخلوق ثناء عليه تبارك وتعالى، ولا وصف كتابه ودينه بما ينبغي له، بل لا يبلغ أحد من الأمة ثناء على رسوله كما هو أهل أن يُثنى عليه، بل هو فوق ما يثنون به عليه، ومع هذا فإن الله تعالى يحب أن يحمد ويشنى عليه، وعلى كتابه ودينه ورسوله.

فهذه مقدمة اعتذار بين يدي القصور من راكب هذا البحر الأعظم، والله عليم بمقاصد العباد ونياتهم، وهو أولى بالعذر والتجاوز^(١).

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠١-٣٠٣).

الفصل الثالث

ذكر بعض مظاهر التعظيم لله عَزَّوَجَلَّ وعلاماته

ذكر بعض مظاهر التعظيم لله عَزَّجَلَّ وعلاماته

إن تعظيم الله عَزَّجَلَّ ليس كلمة تقال باللسان، وادعاء يدعيه الإنسان، ولكنه عمل قلبي شريف، إذا تمكن في القلب وامتلاً به ظهرت آثاره وعلاماته على حال الإنسان وأقواله وأعماله ومواقفه، فتعظيم الله عَزَّجَلَّ له لوازمه ومقتضياته، وسنقف في هذا الفصل إن شاء الله تعالى مع بعض هذه المظاهر واللوازم، التي تدل على تعظيم صاحبها لله تعالى، وبفقدائها أو ظهور ما يضادها يكون التعظيم في القلب ضعيفاً أو معدوماً.

المظهر الأول من علامات تعظيم الله عَزَّجَلَّ:

توحيد الله عَزَّجَلَّ وعبادته وحده لا شريك له، والخلوص من جميع أنواع الشرك صغيره وكبيره. فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه التعظيم الذي يليق به سبحانه من أشرك مع الله أحداً من خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ٦٦ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٧].

وسبق ذكر قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو يحاج قومه، ليركوا الشرك بالله عَزَّجَلَّ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۖ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكيف يسوى من خلق من التراب برب الأرباب، وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوى الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج، بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم بالغني، بالذات القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته، فأَيُّ ظلم أقبح من هذا، وأي حكم أشد جوراً منه»^(١).

ومن تلاعب الشيطان بالمشركين: أن صور لهم عملهم وإشراكهم بالله عَزَّجَلَّ بأنه تعظيم لله تعالى، وطلب القرب منه، حيث زعموا أن صرف بعض أنواع العبادة لغير الله عَزَّجَلَّ من أحجار وأشجار أو كواكب أو أشخاص أو ملائكة، إنما أرادوا أن يشفعوا لهم عند الله عَزَّجَلَّ، ويقربونهم إليه، لأنهم يرون أنفسهم أقل وأحق من أن يدخلوا على الله العظيم دون واسطة، قال الله عَزَّجَلَّ عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، ومثل ذلك من يعبد الشمس والقمر، بحجة أن هذه الأجرام أقرب إلى الله عَزَّجَلَّ منهم.

(١) الجواب الكافي (ص ٩٢).

ومن توحيد الله عَزَّجَلَّ توحيده في أسمائه سبحانه وصفاته، وذلك بإثبات ما أثبتته الله عَزَّجَلَّ لنفسه، أو أثبتته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات، من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف، فلا قدر الله عَزَّجَلَّ، ولا عظمه من عطل صفات الله عَزَّجَلَّ، أو أولها أو كیفها أو شبهها بصفات المخلوقين، قال الله عَزَّجَلَّ في الرد على نفاة الصفات وعلى المشبهة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأول الآية رد على المثلة المشبهة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وآخرها رد على النفاة والمعطلة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، رد على المؤولة المكيفة وعلى المشبهة، وهذا هو الهدى الذي هدى الله عَزَّجَلَّ أهل السنة والجماعة إليه، فهم يثبتون له سبحانه ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات، مع تنزيهه سبحانه من أن يشابهه أحد من خلقه فيها، مع قطع الطمع من إدراك الكيفية، وهذا هو منهج المعظمين لله عَزَّجَلَّ، الموحدين له سبحانه التوحيد الذي يحبه ويرضاه.

ومن تلاعب الشيطان بهؤلاء النفاة المعطلة: أنه أغراهم بهذا السبيل تعظيمًا لله وتنزيها، فقالوا: إنا إذا أثبتنا له الصفات التي هي من صفات المخلوقين شبهناه بهم، والله منزّه عن ذلك. ويمكن أن يقال في الرد على هذه الشبهة: «إن تسبيح الله وتنزيهه وتقديسه وتعظيمه يجب أن يكون وفق الضوابط الشرعية، وعلى ضوء الأدلة النقلية، ولا

يجوز بحال أن يُبنى ذلك على الأهواء المجردة، أو الظنون الفاسدة، أو الأقيسة العقلية الكاسدة، كما هو الشأن عند أرباب البدع المعطلين لصفات الرب سبحانه، ومن كان يعتمد في باب التعظيم على هواه بغير هدى من الله، فإنه يزل في هذا الباب، ويقع في أنواع من الباطل وصنوف من الضلال، جاء عن عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ اللَّهُ وقد ذكر عنده أن الجهمية ينفون أحاديث الصفات، ويقولون: الله أعظم من أن يوصف بشيء من هذا، أنه قال: «قد هلك قوم من وجه التعظيم، فقالوا: الله أعظم من أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولاً، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ ثم قال: هل هلك المجوس إلا من جهة التعظيم؟ قالوا: الله أعظم من أن نعبد، ولكن نعبد من هو أقرب إليه منا، فعبدوا الشمس وسجدوا لها، فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]»^(١).

وفي الرد على المشركين ونفاة الصفات وعلى القدرية والجبرية الذين انحرفوا في باب القدر وعلى الرافضة المشركين، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَنَخْلُقُوهُمْ ذَبَابًا وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ» إلى قوله ﴿لَقَوِيَ عَزِيزٌ﴾، فما قدر الله

(١) انظر: مجلة الجامعة الإسلامية (٢٣٦/٤٣).

حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغر، وإن يسلبهم الذباب شيئاً مما عليه لم يقدرُوا على الاستعادة منه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية، فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الدليل، وكذا ما قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنی وصفاته العلا، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته ومشيتته، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاؤون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون، فتعالى عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً، وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقتته...» (١).

المظهر الثاني: إحسان الظن بالله عَزَّجَلَّ

إن من تعظيم الله عَزَّجَلَّ وإجلاله وتقديره حق قدره إحسان الظن به سبحانه في جميع أفعاله، وتنزيهه سبحانه من أن يكون في شيء منها

(١) الجواب الكافي (ص ٩٦، ٩٧).

نقص أو جهل أو ظلم أو عبث، وإنما هي في غاية الكمال والجمال والحكمة والعدل والفضل والإحسان، وما قدر الله عَزَّجَلَّ حق قدره، وما عظمه التعظيم الذي ينبغي له من أساء الظن به سبحانه، وظن في أفعاله من الخلق والأمر ظن السوء، وكل ظن لا يليق بحمده وحكمته ورحمته وعلمه وعدله، فهو ظن سوء بالله عَزَّجَلَّ، وقدح في أسمائه الحسنى، وقد فضح الله أقوامًا من المشركين والمنافقين، ووصفهم بقوله: ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ﴾ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَعَظَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿[الفتح: ٦].

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على هذه الآية صورًا متعددة من صور إساءة الظن بالله عَزَّجَلَّ، التي تتنافى مع تعظيمه وإجلاله، أسوقها بشيء من الاختصار، كي نحاسب أنفسنا في التخلص منها إن وجدت، ونحذر منها ونحذر المسلمين من الوقوع فيها، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرد به بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعد الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجندهم بأنهم هم الغالبون.

فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حزبه، ويُعليهم، ويظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُدِيلُ الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً، لا يقوم بعده أبداً، فقد ظن بالله ظن السوء؛ ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته، وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة، والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله^(١).

وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيته، وملكه وعظمته^(٢).

وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة -يستحق الحمد عليها- وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة، عن حكمة وغاية مطلوبة، هي أحب إليه من فوتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يُحِبُّ، وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى، ولا

(١) يعني بذلك المنافقين المرجفين.

(٢) يعني بهم المعتزلة القدريّة.

أَنْشَأَهَا عَبَثًا، وَلَا خَلَقَهَا بَاطِلًا: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] ^(١).

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا سلم من ذلك إلا من عرف الله، وعرف أسماؤه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن جوز عليه أن يعذب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه، فقد ظن به ظن السوء ^(٢).

ومن ظن به أن يترك خلقه سُدى، معطين عن الأمر والنهي، ولا يُرسل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملاً كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبين لخلقهِ حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويُبطله عليه بلا سبب من العبد، أو

(١) يعني بهم نفاة الحكمة والتعليل من الأشاعرة.

(٢) يعني بهم نفاة الحكمة والتعليل من الأشاعرة وأهل الكلام.

أنه يُعاقبه بما لا صُنِعَ له فيه، ولا اختيار له، ولا قدرة، ولا إرادة في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به.

أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداء الكاذبين عليه بالمعجزات، التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها على أيديهم يضلون بها عباده.

وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين، ويُنعم من استنفد عمره في عداوته، وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر، فقد ظن به ظن السوء^(١).

ومن ظن به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيهه، وتمثيل. وترك الحق لم يُخبر به، وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلغزة لم يصرح به، وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتعبوا أذهانهم، وقواهم، وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالمهم في معرفة

(١) يعني بهم الأشاعرة الذين ينفون معرفة العقل بالحسن والقيح.

أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم ألا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه، فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان، وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يُوقع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء، وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهر كلام المتهاوكين الحيارى، هو الهدى والحق، وهذا من أسوأ الظن بالله، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية^(١).

ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجادهِ وتكوينه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً، فقد ظن به ظن السوء.

(١) يعني بهم المعطلة نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة والأشاعرة.

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السماوات والأرض، ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان، فقد ظن به ظن السوء^(١).

ومن ظن أنه لا سمع له، ولا بصر، ولا علم له، ولا إرادة، ولا كلام يقول به، وأنه لم يُكلم أحداً من الخلق، ولا يتكلم أبداً، ولا قال ولا يقول، ولا له أمرٌ ولا نهى يقوم به، فقد ظن به ظن السوء^(٢).

ومن ظن أنه ليس فوق سماواته على عرشه بائناً من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفل، كما أنه أعلى، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه^(٣).

ومن ظن به أنه يحب الكفر، والفسوق، والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان، والبر، والطاعة، والإصلاح، فقد ظن به ظن السوء^(٤).

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد،

(١) يعني بهم زنادقة الفلاسفة وأتباع أرسطو وأفلاطون.

(٢) يعني بهم المعطلة نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة والأشاعرة.

(٣) يعني بهم المعطلة نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة والأشاعرة.

(٤) يعني بهم الجبرية الذين لا يفرقون بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين، فقد ظن به ظن السوء^(١).

ومن ظن أنه يسوي بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يُجَبِّط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الأبدن بتلك الكبيرة، ويُجَبِّط بها جميع طاعاته ويُخلده في العذاب، كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء^(٢).

وبالجملة، فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رسله، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أن له ولداً، أو شريكاً أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم، ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

(١) يعني بهم المعطلة نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة والأشاعرة.

(٢) يعني بهم الخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة، ويحكمون عليه بالخلود في النار إن لم يتب.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقرب إليه، فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسماؤه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يعوضه خيراً منه، أو من فعل لأجله شيئاً لم يُعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يغضب على عبده، ويُعاقبه ويحرمه بغير جُرم، ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة، ومحض الإرادة، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرغبة، وتضرع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يُعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن به أنه يشبه إذا عصاه بما يشبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه، وأسخطه، وأوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه ولياً، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً حياً أو ميتاً، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء، وذلك زيادة في بعده من الله، وفي عذابه.

ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعداءه تسليطاً مستقراً دائماً في حياته وفي مماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصية، وظلموا أهل بيته، وسلبوهم حقهم، وأذلّوهم، وكانت العزة، والغلبة، والقهر لأعدائه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأولياءه، وأهل الحق، وهو يرى قهرهم لهم، وغضبهم إياهم حقهم، وتبديلهم دين نبيهم، وهو يقدر على نصره أولياءه وحزبه وجنده، ولا ينصرهم ولا يُدِيلهم، بل يدِل أعداءهم عليهم أبداً، أو أنه لا يقدر على ذلك، بل حصل هذا بغير قُدرته ولا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تُسلم أمته عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضة، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه، سواء قالوا: إنه قادر على أن ينصرهم، ويجعل لهم الدولة والظفر، أو أنه غير قادر على ذلك، فهم قادحون في قدرته، أو في حكمته وحمده، وذلك من ظن السوء به، ولا ريب أن (الرب) الذي فعل هذا بغیض إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك، لكن رفوا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرضاء بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرة على دفعه ونصر أولياءه، فإنه لا يقدر على أفعال عباده، ولا هي داخلة تحت قدرته، فظنوا به ظن إخوانهم المجوس والثنوية برهم، وكل مبطل، وكافر، ومبتدع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر، والعلو من خصومه.

فأكثر الخلق، بل كلهم -إلا من شاء الله- يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامناً كُمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت يُنبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته، لرأيت عنده تعتياً على القدر وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك.

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فإني لا أخالك ناجياً

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله تعالى وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين^(١).

وماله علاقة بحسن الظن بالله عَزَّجَلَّ: التفاؤل وترك التشاؤم والتطير، لأن الكلمة الطيبة إذا سمعها فتفاءل بها، وأنه سيحصل

(١) زاد المعاد (٣/ ٩٠).

له كذا وكذا من الخيرات، يكون من باب حسن الظن بالله جَلَّ وَعَلَا،
فالفأل حسن ظن بالله، والتشاؤم سوء ظن بالله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا كان
الفأل ممدوحًا ومحمودًا، والشؤم مذمومًا.

ومعلوم أن العبد مأمور بأن يحسن الظن بالرب جَلَّ وَعَلَا، ولهذا
كان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل ويكره التشاؤم، وكل ذلك من
تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا، وحسن الظن به، وتعلق القلب به، وأنه لا يفعل
للعبد إلا ما هو أصلح له.

المظهر الثالث: تعظيم حرمان الله عَزَّجَلَّ وحدوده

إن تعظيم حرمان الله عَزَّجَلَّ وأوامره ونواهيه علامة على تعظيم
الامر وإجلاله سبحانه، وعلى العكس من ذلك من يتعدى حدود
الله عَزَّجَلَّ ولا يعظم حرمانه، فإن هذا دليل على ضعف تعظيم الله
عَزَّجَلَّ في القلب أو انعدامه، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ
اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]، ويقول في السورة نفسها:
﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، قال
الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾
«أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه،
فهو خير له عند ربه»^(١).

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤١٩).

ولتعظيم حرمان الله عَزَّجَلَّ صورٌ متعددة من أهمها:

أ) تعظيم أوامره سبحانه ونواهيه والوقوف عند حدوده دون غلو ولا جفاء:

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه... فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرمانه. وتعظيم حرمانه يحول بينه وبين الذنوب، والمتجربون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه ويكبره ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه، هذا من أمحل المحال وأبين الباطل، وكفى بالمعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وعظيم حرمانه، ويهون عليه حقه»^(١).

ولتعظيم أوامر الله عَزَّجَلَّ ومناحيه علامات، أشار إليها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «تعظيم الأمر والنهي ناشئ عن تعظيم الأمر والنهي، فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون الله

(١) الجواب الكافي (ص ٦٩).

تعالى عظمة... وأول مراتب تعظيم الحق عَزَّجَلَّ تعظيم أمره ونهيه... وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عَزَّجَلَّ واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان، والتصديق وصحة العقيدة، والبراءة من النفاق؛ فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم، وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع على المناهي، فهذا ليس فعله وتركه صادراً عن تعظيم الأمر والنهي، ولا تعظيم الأمر والنهي.

ومن علامات التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكما لها، والحرص على تحينها في أوقاتها، والمصارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها، كمن يحزن على فوت الجماعة، ويعلم أنه لو تقبلت منه صلاته منفرداً، فإنه قد فاتته سبعة وعشرون ضعفاً، ولو أن رجلاً يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون ديناراً، لأكل يديه ندماً وأسفاً، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف، وألف ألف، وما شاء الله تعالى، فإذا فوت العبد عليه هذا الربح قطعاً، وهو بارد القلب فارغ من هذه المصيبة غير مرتاع لها، فهذا من عدم تعظيم أمر

الله تعالى في قلبه، وكذلك إذا فاته أول الوقت الذي هو رضوان الله تعالى، أو فاته الصف الأول... وكذلك فوت الخشوع في الصلاة، وحضور القلب فيها.

وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان، والإخلاص، والمحبة، وتوابعها.

وأما علامات تعظيم المناهي: فالحرص على التباعده من مظانها وأسبابها، وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس... ومجانبة من يجاهر بارتكابها، ويحسنها، ويدعو إليها، ويتهاون بها، ولا يبالي بما ارتكب منها؛ فإن مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط الله تعالى وغضبه، ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته.

ومن علامات تعظيم النهي: أن يغضب الله عزَّجَلَّ إذا انتهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزنًا وحسرة إذا عصي الله تعالى في أرضه، ولم يُضطلع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافيًا غير مستقيم على المنهج الوسط؛ مثال

ذلك أن السنة وردت بالإبراد بالظهر في شدة الحر، فالترخص الجافي أن يبرد إلى فوات الوقت أو مقارنة خروجه، فيكون مترخصاً جافياً. فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يعارضاً بترخص جاف، ولا يعرضاً لتشديد غالٍ، فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله عَزَّجَلَّ بسالكه. وما أمر الله عَزَّجَلَّ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يحمل الأمر على علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله عَزَّجَلَّ، بل يسلم لأمر الله تعالى وحكمه، ممتثلاً ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حملة ذلك على مزيد الانقياد والبذل والتسليم»^(١).

ب) تعظيم حرمة الله المكانية والزمانية:

من تعظيم الله عَزَّجَلَّ تعظيم ما عظمه من الأمكنة والأزمنة، ولا يجوز أن يخص زمان أو مكان بتعظيم إلا ما ورد في الكتاب والسنة اختصاصه بالتعظيم، وقد سبق ذكر قوله تعالى في شعيرة الحج: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

(١) الوابل الصيب، ت: بشير عيون (ص ١٢-٢٠٦)، باختصار شديد.

- فمن الشعائر المكانية التي خصها الله عَزَّوَجَلَّ بالحرمة والتعظيم المسجد الحرام، وما فيه من الشعائر المعظمة كالكعبة المشرفة، والطواف بها، ومقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والصلاة خلفه، والصفاء والمروة والسعي بينهما، وبقية مشاعر الحج كعرفة والوقوف بها ومزدلفة والمبيت فيها ومنى ورمي الجمار فيها.
- ومن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ تعظيم حرم مكة حرسها الله عَزَّوَجَلَّ بأن لا ينفر، ولا يقتل صيدها، ولا يقطع شجرها، ولا تلتقط لقطتها، وحرمة القتال فيها، إلا لدفع صائل. والحذر من المعصية فيها، لأنها تضاعف حرمة المكان.

قال الله عَزَّوَجَلَّ في تعظيم الكعبة والبيت الحرام: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَةَ ذَلِكَ لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقد كانت العرب على شركهم وجاهليتهم يعظمون البيت الحرام، ويؤمنون من دخله، حتى إن الرجل ليرى قاتل أبيه في الحرم فلا يزعهجه ولا يثار لأبيه تعظيماً للبيت، حتى جاء الله عَزَّوَجَلَّ بهذا النبي العظيم، فلم يعظم أحد هذا البيت كتعظيمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال يوم هجرته: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما

خرجت»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم صلح الحديبية: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها»^(٢).

وأخرج الإمام أحمد وحسنه ابن حجر من حديث عياش بن أبي ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها، فإذا تركوها وضعوها هلكوا»^(٣)، وإن أعظم شيء قام به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعظيمه لهذا البيت تطهيره من مظاهر الشرك والأصنام وعبادة غير الله تعالى. ولذا فإن مشركي قريش متناقضون في تعظيمهم لمكة والبيت الحرام، فهم يعظمونه من جانب، ويقعون فيما ينقض هذا التعظيم بعبادتهم للأصنام والأوثان. وقد كان للسلف أحوال في تعظيم بيت الله الحرام والحذر من معصية الله فيه، بل إنهم يجعلون الدنيا خلف ظهورهم، ولا يذكرونها في مثل هذه الأماكن المعظمة:

- فهذا سالم بن عبدالله بن عمر يرسم لنا درساً، كيف يكون المسلم في المسجد الحرام؟ قال ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «دخل هشام الكعبة فإذا هو بسالم بن عبدالله، فقال سلني حاجة، قال: إني أستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرجا، قال: الآن

(١) ابن ماجه (٣١٠٨)، وصححه الألباني.

(٢) البخاري (٢٧٣١).

(٣) مسند أحمد (١٩٠٤٩)، ومصنف ابن أبي شيبة (١٤٢٨٩).

فسلني حاجة، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا، قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألكها من لا يملكها»^(١). فقارن هذه الأحوال بأحوالنا في مثل هذه الأماكن المقدسة.

• وهذا نافع يقول: لقد رأيتنا ذات عشية وراح ابن عمر على نجيب، قد أخذه بهال، فلما أعجبه سيره أناخه بمكانه، ثم نزل عنه، فقال: يا نافع انزعوا زمامه ورحله، وجللوه، وأشعروه، وأدخلوه في البدن^(٢).

• ومن الأماكن المعظمة مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحرم المدينة النبوية، وعدم رفع الصوت فيه، وتنظيفه وتطهيره من أدران الشرك والبدع والمعاصي، وعمارته بالعبادة والذكر وطلب العلم.

- ومن المساجد المعظمة عند الله عَزَّوَجَلَّ المسجد الأقصى، طهره الله من أدران اليهود الغاصبين والمنافقين المفسدين. ومن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ لهذه المساجد الثلاثة: (المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى) أن جعل الصلاة فيها تضاعف عن غيرها من مساجد الدنيا، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فضل الصلاة في المسجد الحرام

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦٦).

(٢) معرفة الصحابة، لأبي نعيم (٣/ ١٧١٠).

على غيره مئة ألف صلاة، وفي مسجدي ألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس خمس مئة صلاة»^(١)، ومن تعظيم الله عزَّجَلَّ لهذه المساجد الثلاثة أن أذن الشارع في شد الرحال إليها دون غيرها من المساجد والأمكنة الأخرى، حيث يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»^(٢).

- ومن المساجد التي خصها الله عزَّجَلَّ بالفضل مسجد قباء، يقول سبحانه: ﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

- ومن الأماكن التي ينبغي أن تعظم وترفع مساجد الله عزَّجَلَّ، التي تقام فيها الصلاة والذكر لله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، ومن تعظيمها تنظيفها وإزالة الأقدار عنها وتطيبها وتنزيهاها عن أمور الدنيا: كالبيع والشراء ولغو الكلام، وإنشاد الضالة فيها، ورفع الأصوات فيها، وأخذ الزينة عند إرادة الصلاة فيها، لقوله تعالى: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ حُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

(١) شعب الإيمان (٣/ ٤٨٤) رقم (٤١٤٠).

(٢) مسلم (١٣٠٣).

ومما يتنافى مع تعظيم المساجد ما ظهر في السنوات الأخيرة في
نغمة الجوالات من أصوات موسيقية وأجراس وكاميرات التصوير
التي تضج منها جنبات المساجد، وتشوش على المصلين فيها، ولا
ريب في أن هذا مما يحط من تعظيم بيوت الله وقديسيها.

أما الشعائر الزمانية التي عظمها الله عزَّجَلَّ وشرفها، والتي يجب
أن نعظمها، كما أمرنا الله عزَّجَلَّ لأن تعظيمها من تعظيم الله تعالى:
﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، فهي
كثيرة، ومنها:

(١) الأشهر الأربعة الحرم:

وهي (ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب)، وذلك كما في قوله
تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفِيْمُ فَلَا تَظْلِمُوا
فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾.. الآية [التوبة: ٣٦]، ومن أكد هذه الأشهر الحرم:
شهر ذي الحجة وعشره المباركة، وشهر الله المحرم، حيث جاء فيه
قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله
الحرام»^(١)، وفيه يوم عاشوراء الذي نجى فيه الله عزَّجَلَّ موسى وقومه
المؤمنين من فرعون وقومه، وخلق لهم البحر يمشون فيه يسًا، ولذا

(١) مسلم (١١٦٣).

جاء في فضل صيامه مع يوم قبله أو يوم بعده قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبلها»^(١).

ومن يعظم الله عَزَّجَلَّ في هذه الأشهر الحرم تعظيم أيامها بالإكثار من الأعمال الصالحة فيها، وترك المعاصي وظلم النفس فيها، حيث إن إثم المعصية فيها أشد من غيره في باقي الشهور، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]. ومن تعظيمها عدم القتال فيها على القول الراجح.

٢) شهر رمضان المبارك:

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾... الآية [البقرة: ١٨٥]، فهو من الشهور المعظمة عند الله عَزَّجَلَّ، خصه سبحانه بصيامه وقيام ليلاليه، وفيه ليلة عظيمة القدر، هي ليلة القدر، خير من ألف شهر، وفيه تضاعف الحسنات، وتغفر فيه الزلات، كما جاء في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث طويل: «من تقرب فيه بخصلة من الخير كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه... وهو شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار»^(٢)، فتعظيم هذا الشهر من تعظيم الله عَزَّجَلَّ.

(١) مسلم (١١٦٢).

(٢) صحيح ابن خزيمة (٣/ ١٩١)، وقال الأعظمي: إسناده ضعيف، علي بن زيد بن جدعان ضعيف.

ومن تعظيم هذا الشهر التفرغ فيه للطاعات، والتنافس فيها، وحفظ القلوب والجوارح من الآثام والمعاصي، التي تفسد الصوم أو تنقصه، فإن إثم المعاصي في هذا الشهر أشد من غيره، ومن تعظيم هذا الشهر تعظيم شهر شعبان الذي يسبقه، وذلك بصوم أكثره استعداداً لشهر رمضان، كما جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث قالت: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول، لا يصوم». وما رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استكمل صيام شهر قط إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صياماً في شعبان»^(١).

ومن الأمور المؤسفة اليوم ما ظهر عند كثير من الناس من قلة تعظيم هذا الشهر الكريم العظيم، حيث يكثر في هذا الشهر إفساد المفسدين أصحاب القنوات الفاسدة المفسدة، وذلك مما يثبونه في هذا الشهر العظيم من أفلام ومسلسلات وأغاني، تسخط الله عَزَّجَلَّ، وتقضي على المروءة والعفة والحياء، ومع ما فيها من الفساد، إلا أن كثيراً من المسلمين الصائمين قد فتحوا بيوتهم وأعينهم لهذه القنوات، يسهرون عليها، وما يعلمون أنهم بذلك قد انحط قدر شهر رمضان وتعظيمه في نفوسهم، وهذا يدل على ضعف تعظيم الله عَزَّجَلَّ في القلوب.

- ومن الأزملة المعظمة عند الله عَزَّجَلَّ أشهر الحج، ولا سيما عشر ذي الحجة، التي أقسم الله تعالى بها في سورة الفجر، بقوله سبحانه:

(١) مسلم (١١٥٦).

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿الفجر: ١، ٢﴾، وهي التي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨].

ومن تعظيمها كثرة ذكر الله عزَّ وجلَّ فيها، والتنافس فيها بأنواع الطاعات من صيام وصلاة وصدقة وقراءة قرآن وصلة رحم وإغاثة ملهوف ومحتاج. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام». يعني أيام العشر^(١)، ومن تعظيمها اجتناب المعاصي والأرجاس وقول الزور، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتُ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

- ومن الأزمنة المعظمة عند الله عزَّ وجلَّ الأعياد التي شرعها لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي (عيد الفطر وعيد الأضحى والعيد الأسبوعي وهو يوم الجمعة)، حيث خص سبحانه يوم الفطر ويوم الأضحى بصلاة العيدين وخطبتها والذكر وصدقة الفطر والأضاحي، وخص صلاة الجمعة بخطبتها وساعة الإجابة فيها.

ومما يتنافى مع تعظيم هذه الأيام المشهودة تعدّي حرّمات الله فيها بفعل المعاصي وإظهار المنكرات والبدع، التي لم يشرعها الله عزَّ وجلَّ في

(١) البخاري (٩٦٩).

هذه الأيام أو الإسراف في الزينة والمآكل والمشارب، أو تضييع أوقاتها في اللهو واللعب.

تعظيم الشعائر المكانية والزمانية بين الغلو والجفاء

سبق القول بأننا لا نعرف حرمة مكان أو زمان ووجوب تعظيمهما، إلا من تعريف الله عَزَّجَلَّ لنا، أو تعريف رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن هذا المكان بعينه أو هذا الزمان بعينه معظم عند الله عَزَّجَلَّ، فنعظمه تعظيمًا لله سبحانه، وما سوى هذين المصدرين فلا عبرة به في ذلك، ومع ذلك، فإن ما عظمه الله عَزَّجَلَّ، أو عظمه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب أن ينضبط تعظيمنا له بضابط الشرع وميزانه، وأن أبرز سمة لهذا الميزان الوسطية والتوازن فيه بين الغلو والجفاء، وبين الإفراط والتفريط، وباب الإفراط وباب التفريط هما بابان للشيطان، لا يبالي من أيهما دخل على العبد، لأن مراد الشيطان صرف العبد عن الصراط المستقيم الوسط العدل، والميل عن الوسط، سواء إلى الغلو والإفراط، أو إلى الجفاء والتفريط، هو انحراف عن الحق، وهذا ما يريده الشيطان ويفرح به، وهنا سؤال: كيف يسلم العبد من الانحراف في باب تعظيم حرمة الله المكانية والزمانية من الغلو والجفاء؟

إن السلامة من الانحراف عن الوسط العدل في باب تعظيم حرمة الله عَزَّجَلَّ تقوم على أسس ثلاثة:

الأساس الأول: أن يكون المكان أو الزمان المراد تعظيمهما قد دل الدليل عليه من الكتاب أو السنة الصحيحة على حرمة ووجوب تعظيمه. وما لم يعظمه الله عَزَّوَجَلَّ ولا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأزمنة أو الأمكنة، فلا يجوز تعظيمهما كمن يعظم من الأزمنة ما يسمى بالأيام الوطنية، ومن الأمكنة ما ظهر في الآونة الأخيرة من إحياء سوق عكاظ وما يكون فيه من الأعمال الجاهلية.

الأساس الثاني: عدم التقصير والتفريط في القيام بتعظيم ما عظمه الله عَزَّوَجَلَّ التعظيم الذي أمر الشارع به، وذلك بأن يقوم في القلب حبه وتعظيمه وعدم استهائنه وامتهانه، لأن هنالك من لا يبالون بتعظيم حرمة ولا شعيرة زمانية أو مكانية، وهؤلاء قد ضرب الله تعالى على قلوبهم الغفلة، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ العافية، وقد سبق ذكر شيء من الأمثلة على امتهان حرمة الله المكانية أو الزمانية.

ومما يدخل في عدم تعظيم حرمة الله المكانية والزمانية فعل ما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ فيها، وقد ذكر الشيخ سفر حفظه الله تعالى في محاضرة له عن تعظيم حرمة الله عَزَّوَجَلَّ أمثلة للتفريط في تعظيم شهر الله الحرام أو حرمة المسجد الحرام، حيث يقول: «ومن تعظيم شعائر الله في هذا الشهر أو في هذا البلد ما يلي:

(١) تعظيمه عن الشرك:

إن من أول وأعظم ما يعظم به هذا البلد الحرام، أن يجتنب فيه أكبر الكبائر وأعظم الموبقات، وهو الشرك بالله تعالى، فإنه لا يليق بهذا البلد الطيب الطاهر، وهذا البيت الذي بناه الخليل عليه وعلى نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة والسلام، على التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، لا يليق به أبداً أن يحدث فيه محدث، ولا سيما إذا كان الإحداث هو الشرك الأكبر، عافاني الله وإياكم، والله سبحانه وتعالى لم يحذر في كتابه، ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من ذنب أعظم من الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فهذا هو الداء العضال الذي بعث الله تبارك وتعالى الرسل جميعاً لينقذوا الناس منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فلا يليق بهذا البيت المعظم المطهر أن يحدث فيه الشرك أبداً بأي حال من الأحوال، وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوحيد، وبتجديد ملة إبراهيم عليه السلام، وتحطيم الأصنام، والقضاء على الشرك بكل أنواعه وأشكاله، فمن جاء وأراد أن يحدث أو يعيد معالم الشرك وشعائر الشرك في هذا البلد؛

فقد ضاد ما أمر الله تبارك وتعالى به، وخان الله ورسوله والمؤمنين، وقد تخلى عن ملة إبراهيم الخليل التي أمرنا الله تبارك وتعالى باتباعها، وجاءنا ليجدد ملة عمرو بن لحي الخزاعي، الذي كان أول من سيب السوائب، والذي حرف الناس وأهل هذه الجزيرة من عبادة الله وحده لا شريك له على ملة إبراهيم إلى عبادة الأصنام والحجارة، كما كان يفعل أهل الجاهلية في الأرض، فهذا أول ما يجب اجتنابه.

(٢) تعظيمه عن البدع:

إن البدع هي أعظم المعاصي بعد الشرك بالله تبارك وتعالى، وكفى بها شؤماً وشرّاً؛ لأنها ربما أحبطت العمل كله، بل بعضها لا شك أنه يحبط العمل كله، فلا تنفع الإنسان عبادة ولا قراءة ولا ذكر ولا جهاد مع هذه البدع. كما صح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيحين وغيرهما في صفة الخوارج أنه قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية»^(١)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، وقراءتكم إلى قراءتهم»^(٢)، إن المخاطبين بهذا هم الصحابة الكرام، ومع ذلك فإن قراءة الخوارج، وعبادتهم أشد وأكثر من عبادة الصحابة، أي: أن الصحابة يحقرون قراءتهم

(١) البخاري (٥٠٥٨).

(٢) لم أقف عليه بهذا النص مرفوعاً، ولكنه من قول هشام بن حسان. انظر: الاعتصام للشاطبي (٥٨/١).

وصلاتهم وعبادتهم عندما يرون قراءة الخوارج، كما ذكر ذلك أبو سعيد، وكما رأى ذلك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، لما دخل إلى معسكرهم، ومع ذلك فإنهم يمرقون من الدين، بل لا تتجاوز قراءتهم حناجرهم، كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك بسبب ما ابتدعوه من البدع، وقد جاء أيضًا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لا يقبل الله من صاحب بدعة صرفًا ولا عدلاً ولا صيامًا ولا صلاة»^(١)، فماذا يريد صاحب البدعة بها، إذا كان الله تبارك وتعالى لا يقبل منه شيئًا، ولا تنفعه مهما كثرت، ومهما تعبد واجتهد فيها؟! فكيف يجرؤ مبتدع أن يبتدع، ويرتكب هذا الإثم العظيم في بلد الله الحرام، الذي أمر الله تبارك وتعالى بتعظيمه؟!

٣) تعظيمه وتطهيره من المعاصي الظاهرة:

يجب تعظيم وتطهير هذا البيت الحرام، وهذه البقعة الطيبة الطاهرة من المنكرات والمعاصي الظاهرة، ونحن نشاهد في الأيام التي يسمونها أيام العطلة أو الإجازة - والتي يتوافد فيها الناس، والحمد لله على هذا البلد الحرام - كثيرًا من المظاهر التي تدل على أن كثيرًا من هؤلاء الناس من المقيمين أو القادمين لا يعظمون شعائر الله، ولا يعظمون هذا البيت، كما أمر الله تبارك وتعالى. فبعضهم يأتي إلى هذا

(١) والبدعة التي لا يقبل الله عَزَّجَلَّ من صاحبها قولًا ولا عملًا هي البدعة المكفرة.

البلد الحرام، وما يكاد يتحلل من عمرته حتى ينطلق في الأسواق، ويرتع في الملاهي وفي ترك الفرائض، وتبدأ النساء بالتبرج، والتهتك، وتكون من المصائب والأمر ما يضج منها المؤمنون، ويضج منها هذا البلد الحرام. وهذه مأساة كبرى ومصيبة عظمى، مع ما هو معلوم من ضعف في الهيئات أو المؤسسات القائمة على الإنكار، لكن يزيد الطين بلة أن تأتي هذه الجموع، فتنتشر المحرمات من السفور والتبرج وترك صلاة الجماعة، فترى الناس أكوامًا وجماعات، حتى بالقرب من المسجد الحرام، وتقام الصلاة، ولا يجدون من ينكر عليهم من أهل البلد، وهذه من المنكرات، ومن المظاهر الدالة على أن هؤلاء لا يعظمون شعائر الله، ولا يعظمون ما عظم الله تبارك وتعالى. وإنه مما يثير العجب أن يجد الإنسان أن هنالك مظاهر كثيرة، كان بالإمكان أن تتدارك، ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلو أننا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، وكل من ذهب إلى الصلاة أمر وحث إخوانه عليها، وكل من كان في السوق وأقفل دكانه أمر ونهى إخوانه -أيضًا- بذلك وحثهم عليه، ولا يشترط أن يكون عضوًا في الهيئة، كما يتبادر إلى أذهان البعض، بل كل من رأى التبرج أو السفور أو الانحلال أو المغازلات أو ما أشبه ذلك من المعاكسات، فإنه يبادر وينكر، لو فعلنا هذه الأمور لأحيينا هذا الأمر العظيم. إن تركنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو -أيضًا- من عدم

تعظيم شعائر الله، فيتبدل الحس على المنكرات والمعاصي والذنوب، حتى تصبح مألوفة، نسأل الله العفو والعافية. وأعظم من ذلك وأشد منه، وهو من المنكرات الدائمة في هذا البلد الحرام، في مواسم الخير وفي كل العام، وهو مما يدمي قلوب المؤمنين، ويجرح مشاعرهم، ويتنافى مع تعظيم هذا البلد، وتعظيم حرمان الله: أن نجد منارات أو علامات أو شعائر ما حرم الله تبارك وتعالى تنتشر في هذه البلدة الطيبة الطاهرة. ومن أوضحها البنوك الربوية التي كما ترون - في هذه الأيام - يكتب البعض في جلها، ويحذر العلماء، وعلى رأسهم سماحة الشيخ الوالد عبدالعزيز ابن باز رَحِمَهُ اللهُ من هذا الاكتتاب. والواجب في الحقيقة - كما تعلمون - وكما هو ظاهر من فتاوى علمائنا الأفاضل، وهو صريح كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ألا توجد هذه العمارات أو المنارات أو الشعائر - شعائر الضلال والفجور والمعصية - ولا يجوز أن تبقى في هذا البلد الحرام، في أي مكان، وفي أي زمان، فعندما يجد الحاج أو المعتمر أو المقيم أن هذه الأجهزة أو المؤسسات الربوية قائمة في هذا البلد ثم يسكت، فالذي يحدث - كما ترون - أن الناس يألفون هذا المنكر، ويصبح لديهم أمر مألوف، ثم بعد ذلك يصبح الإنكار على من أنكره، وهذا بلا شك من عدم تعظيم شعائر الله. وفي الجاهلية - كما تعلمون - كانوا يستحلون المحارم ومنها الربا، ولم يكن العرب - أقول هذا بكل أسف - يعلنون الربا بمثل هذا الإعلان، وبمثل

هذا الشكل الصريح، الذي يفعله الإنسان في هذا العصر حول بيت الله الحرام، نسأل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرفع هذا البلاء عن المسلمين إنه سميع مجيب.

ويلحق بذلك مما يتنافى مع تعظيم شعائر الله ما يجده القادم إلى هذا البلد أو المقيم فيه من انتشار أماكن لبيع اللهو والفساد ومشجعات الرذيلة من محلات بيع الأفلام الخليعة الماجنة ومحلات الأغاني ويعجب الإنسان كيف توحد هذه الملاهي وهذه الدواعي إلى الرذيلة والفساد في هذا البلد الحرام، وكيف استجاز أصحابها أن يفتحوها فيها، وكيف استجاز القائمون على الأمر أن يسكتوا عن وجود هذه الأمور. والله إنها لمصيبة عظيمة أن يأتي الحاج من أقاصي الدنيا، وإذا به يجد الأفلام والأغاني التي يراها في أوروبا وأمريكا، تباع بجوار بيت الله الحرام، بل حتى في الأسواق، يعلقون تلك الملابس المتعرية الشفافة التي لمجرد رؤيتها تستثار الشهوة وتستحث الرذيلة، نسأل الله العفو والعافية، وكأنهم في مكان ما غير بلد الله الحرام، وكأن الأمر لا يهم هؤلاء الناس في شيء. فهذه في الحقيقة من المنكرات الظاهرة العظيمة التي تتنافى مع تعظيم شعائر الله، وتعظيم هذا البلد الذي أمر الله تبارك وتعالى بتعظيمه.

ومن أكثر ما ينتشر في هذه البلدة الطاهرة أيضًا مما يجب أن ينبه عليه من المحرمات الأخرى: الغش في التجارة، الذي استغله كثيرٌ

من الناس في المواسم، وفي أيام العطل أو غيرها مما يكثر فيه الناس؛ فيغشون في المعاملات، ويطففون في المكيال والميزان، ويخرجون ويبيعون ما قد انتهى تاريخه من البضائع، ولا يتخرجون من ذلك، ويغشون في المساكن، وفي أمور كثيرة جداً، ويقولون: هذا موسم! فيقال لهم: من أباح لكم - بما أنه موسم - أن تفعلوا هذا، وأن تنتهكوا شعائر الله التي أمر الله تبارك وتعالى بتعظيمها، وأن تقدموا على غش إخوانكم المسلمين الحجاج أو الزوار، أو من جاء لتعظيم شعائر الله؟! فأصبح المؤمن يجد الحرج الشديد والكره العظيم في إنكار المنكرات؛ لأنها من كثرتها تستدعي جهوداً عظيمة، وأجهزة متخصصة، وتعاوناً جدياً وثيقاً من طلبة العلم... في سبيل القضاء على كل ما يتنافى مع تعظيم هذه البلدة الطيبة الطاهرة، التي جعل الله تبارك وتعالى الذنب أو العمل فيها ليس كغيره. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

قال بعض العلماء: «لم يرتب الشرع أو يرتب الله سبحانه وتعالى العقوبة على عمل بمجرد الإرادة إلا في هذه البلدة، أما في غيرها فإن الذنب إنما يترتب على الفعل لا على الإرادة، ولا غرابة في ذلك، لأن الله تعالى اختصها وشرفها بما تعلمون»^(١).

(١) محاضرة للشيخ سفر (كيف تعظم شعائر الله؟): صوتيات الشبكة الإسلامية (باختصار).

الأساس الثالث: الحذر من تعظيم ما لم يأذن الله عَزَّوَجَلَّ بتعظيمه أو الغلو في تعظيم ما أمر الله بتعظيمه، بما لم يأذن به سبحانه، وللتوضيح أذكر المثالين الآتين:

أ) في حرمة المكان:

وردت النصوص من الكتاب والسنة في تعظيم مكة والمسجد الحرام، وهذا حق، ولكن الزيادة والغلو في تعظيم هذا المكان المقدس بما لم يأذن به الله عَزَّوَجَلَّ أو بما حرمه الله تعالى من الشرك والبدع، فإن هذا حرام، ينافي التعظيم، ولا يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، كمن يغلو في تعظيم الكعبة، يتعلق بأستارها، أو يتمسح بالمقام، أو يذهب إلى غار حراء وغار ثور يتبرك بهما، ويصلي عندهما، معتقداً فضل ذلك وبركته، أو يقصد إلى المكان الذي يقال فيه: إن ولادة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه، فيتبرك به. كل هذا من الغلو والزيادة في التعظيم، بما لم يأذن به الله تعالى.

ب) في حرمة الزمان:

وردت النصوص في تعظيم الأشهر الحرم، كما في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾... الآية [التوبة: ٣٦]، وتعظيم الأشهر الحرم حق، ولكن بالصفة الشرعية التي أذن الله عَزَّوَجَلَّ، وأمر بها. أما أن يحصل الغلو بالزيادة في تعظيمها

بما لم يأذن به الله تعالى، فإن هذا من البدع المذمومة عند الله تعالى، لا يقبلها الله عَزَّجَلَّ من صاحبها، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١)، ومثلاً على ذلك، كمن يخص شهر رجب المحرم بأنواع من العبادات من صلاة أو صيام أو ذبح، يقول الشيخ سفر حفظه الله تعالى عن هذه الأنواع من الغلو في تعظيم الأشهر الحرم وتعظيم شهر شعبان: «من الناس من يصلي في أول جمعة من رجب صلاة مخصوصة، ويسمونها صلاة الرغائب، وهذه الصلاة باطلة موضوعة، لم تصح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الكيفية ولا في هذا الشهر؛ ولذلك يعلل الحافظ ابن رجب رَحْمَةُ اللَّهِ، فيقول: لماذا لم ينكر هذه الليلة إلا العلماء المتأخرون كابن الجوزي وأبي إسماعيل الهروي وأمثالهم؟ قال: لأنها لم تحدث إلا بعد الأربع مئة، فهذه الليلة التي يصلى فيها صلاة الرغائب - كما تسمى - لم تحدث ولم تبدع إلا بعد الأربع مئة، فلم يتكلم فيها السلف الأولون، لأنها لم تحدث في أيامهم، وكفى بذلك دليلاً على أنها بدعة، وعلى أنه لا يجوز لأحد أن يعمل بها، وأما ما تزخر وتمتلى به كتب الأذكار البدعية من رافضة وصوفية بالحديث عن هذه الصلاة وفضلها ووقتها وكيفيةها، وأنها في هذا الشهر في أول جمعة منه، إلى غير ذلك، فكله من البدع التي لا أصل لها.

(١) البخاري معلقاً (٣/٦٩)، ومسلم (١٧١٨).

ومما هو منتشر أيضًا في شهر رجب، وقد رأيناه ولمسناه بين العامة: أنهم يخصونه بأنواع من الصيام، فبعضهم يصوم الشهر كله، وهذا منهي عنه، ولم يصم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهرًا كاملاً إلا رمضان، وثبت ذلك من وجوه كثيرة عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن الصحابة والتابعين من السلف: أنهم نهوا أن يصام شهر كله إلا رمضان، وكان أكثر الشهور بعد رمضان صيامًا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين هو شهر شعبان. وأما رجب فلم يثبت ولم يصح في صيامه كله أو تحديد أيام منه شيء، وبعضهم يحدد فيجعلها ثمانية أيام، وبعضهم يجعلها اثني عشر أو غير ذلك، وهذا التحديد كله أيضًا باطل لا أصل له، ولو أن الإنسان صام الاثنين أو الخميس أو الأيام البيض، أي: صام ما جاء وثبت وصح في رجب وغير رجب فلا بأس بذلك، لكن لا ينبغي له أن يخص رجب -فقط- بأن يصوم هذه الأيام فيه، لأن ذلك أيضًا يدخل في شيء من البدع، والإنسان إنما يتبع، ويطمع في الأجر والفضيلة، إذا كان في ذلك متبعًا وليس مبتدعًا، فهذا -كما قلت- لمسنا انتشاره بين العامة، نتيجة لما تأوله بعضهم، أو نسبه إلى بعض كتب الفقه، أو بعض العلماء، ولا مستند لهم في ذلك، والله تبارك وتعالى إنما قال في تعظيم الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وهذه الآية نستطيع أن نستنبط منها أن المطلوب من الإنسان في الأشهر الحرم أن يعظمها بأن لا يظلم فيها نفسه. بمعنى أن أي عمل كنت تعمله

في غير الأشهر الحرم من المعاصي أو الذنوب أو الفجور، يجب عليك أن تكف عنه في هذا الشهر، وإن كان المطلوب منك أن تكف عنه في أي شهر، لكن في هذا الشهر مطلوب منك أن تكف عنه أكثر، فالطلب منك أقوى والحض أشد. وكذلك لا زيادة في المأمورات، ولكن كل فعل أنت مأمور به في سائر الشهور والأيام، فاعلم أنك في الأشهر الحرم، وكذلك في الأماكن الحرم أو الأماكن المقدسة، مطلوب منك أن تعمله أكثر، بمعنى: أن مخالفتك بترك هذا الأمر في أي شهر - كشهر ربيع - لا يجوز؛ لأن الله تعالى أمرك به، ولا يجوز أن تخالف أمر الله، لكنك لو خالفت أمر الله في الشهر الحرام لكان ذلك أشد، أو لو خالفت وعصيت أمر الله في البلد الحرام، لكان ذلك أشد. إذًا، لا زيادة في العبادة على ما شرع الله تبارك وتعالى، وإنما المطلوب هو زيادة الامتثال بفعل المأمورات وترك المنهيات، فالقصد: أي لا تظلموا فيهن أنفسكم بترك المأمور وفعل المحذور.. إلا ما جاء في الشرع الحث على فعله في بعض الأشهر الحرم كصيام يوم عرفة ويوم عاشوراء أو صيام شهر محرم.

وأما شهر شعبان فإن كثيرًا من الناس في هذا البلد الحرام، يعظمونه بما لم يعظمه الله تبارك وتعالى به، ومن ذلك تعظيمهم ليلة النصف منه، ويزعم بعضهم، ويدعي أنها الليلة المباركة، التي ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وذلك مردود بصريح كتاب الله تبارك وتعالى، فإن الله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، فدل ذلك على أن الليلة المباركة تكون في رمضان، وأنها ليلة القدر، وهذا واضح جلي لمن تأمله إن شاء الله تبارك وتعالى. على أن بعض العلماء يصحح في ذلك حديثاً، وهو أنه إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتَجَلَّى أو ينظر إلى المؤمنين؛ فيغفر لهم جميعاً إلا المشرك أو المشاحن^(١) - أي: صاحب العداوة والبغضاء من المسلمين - وهذا الحديث على فرض صحته وعند من يصححه، لا يدل على اختصاص هذه الليلة بنوع من أنواع العبادة، وإنما هذا تفضل من الله تبارك وتعالى، وإن ثبت فهو دليل من الأدلة الكثيرة على سعة رحمة الله عَزَّجَلَّ وفضله ولطفه بهذه الأمة، فلم يشرع الله تعالى لنا عملاً معيناً نعمله في هذه الليلة، وإنما يعظم هذا الشهر استعداداً لشهر رمضان، وهذه هي القاعدة نفسها التي ذكرناها، وهي: أن تمتثل أوامر الله من صلاة الجماعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفعل الخيرات والطاعات، وكذلك بترك ما نهى الله تبارك وتعالى عنه. وأما الصوم فقد ثبت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان أكثر صياماً في شهر بعد رمضان منه

(١) ابن ماجه (١٣٩٠)، وابن حبان (٥٦٦٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١١٤٤).

في شعبان، فالصيام في شهر شعبان هذا سنة، ومن صام منه ما استطاع فقد وافق السنة - إن شاء الله - وهذا ينفرد به شهر شعبان عن شهر رجب كما أسلفنا»^(١).

ج) تعظيم حرمة دم المسلم:

ويكفي في ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت»^(٢).

المظهر الرابع: تعظيم كتاب الله عَزَّجَلَّ:

إن من تعظيم الله عَزَّجَلَّ تعظيم كتابه الكريم وكلامه الشريف، فكلام الله عَزَّجَلَّ صفة من صفاته الجليلة، وصفات الله عَزَّجَلَّ كلها عظيمة وكريمة وقد وصف الله عَزَّجَلَّ كتابه الشريف بصفات كثيرة تدل على عظمته وشرفه وبركته منها:

صفة العظمة: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

(١) محاضرة: (كيف تعظم شعائر الله؟) للشيخ سفر الحوالي، موقع الشبكة الإسلامية للصوتيات باختصار.

(٢) صحيح مسلم (١٦٧٩)، والبخاري (١٠٥).

صفة الكرم: وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَرَّانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧].

صفة العزة: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِنْتُبٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١) لَا يَأْنِيهِ
الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

صفة المجد: وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ﴾ [ق: ١].

صفة البركة: وذلك في قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

صفة الإبانة والفصاحة: وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِي تَلَاكَ آيَاتُ
الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

صفة العلو والحكمة: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
لَدَيْنَا لَعَلَى حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

ووصفه بالموعظة والشفاء والهدى والرحمة: وذلك في قوله تعالى:
﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

هذه بعض أوصاف القرآن الكريم، وحق له ذلك، فهو كلام الله عَزَّجَلَّ،
وحق من هذه بعض صفاته أن يعظم ويجل ويحب، ويقدر حق قدره.

من لوازم تعظيم كتاب الله عَزَّجَلَّ ومقتضياته:

أولاً: احترامه وتوقيره ورفعها عما يندسه، والحذر من أي شكل
من أشكال الإهانة له.

ومن ذلك رفع أي ورقة ساقطة على الأرض فيها كلام الله عَزَّجَلَّ، أو ذكره سبحانه، وتخصيص مكان لمثل هذه الأوراق المحترمة، لتحرق بعد ذلك، أو تدفن، وأن لا تخلط بالأوراق الممتهنة، وياليت هذا العمل يعمم في البيوت والمدارس والشركات والدوائر الحكومية، فإن هذا من تعظيم كلام الله عَزَّجَلَّ وأسمائه الحسنى، وهذا من تعظيم الله عَزَّجَلَّ. ومن تعظيمه أيضًا احترامه: أن لا يتكأ عليه أو يتوسد أو تمد الرجل إليه، وأن يتناول باليد اليمنى، وكذلك يعطى بها، ومن تعظيمه أن لا يرمى به إلى من يتناوله عن بعد، بل يتناوله مناولة مباشرة.

ومن تعظيمه أن يرفع فوق كل كتاب، ولا يرفع فوقه شيء من الكتب، وأن لا يعرض للتلف والغبار كوضعه دائمًا في حرارة الشمس أو داخل السيارة، مما ينشأ عنه تلف جلده أو أوراقه، وأن يدفن ما بقي من أوراقه في مكان نظيف.

ومن تعظيمه تطهير الفم عند قراءته بالوضوء والسواك، فقد روى ابن ماجه رَحِمَهُ اللهُ عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك»^(١).

ومن تعظيم القرآن رفع ألفاظه من أن تمتهن، ويضرب بها الأمثال، فيما يحصل من الناس من أحاديث لغو وهزل.

(١) سنن ابن ماجه (١/١٠٦ رقم ٢٩١)، وصححه الألباني.

ثانيًا: الإكثار من تلاوته والإنصات عند سماعه، والحذر من هجر تلاوته أو سماعه.

ثالثًا: محبته والفرح به والسرور بتلاوته وسماعه.

رابعًا: تدبر آياته، وتفهم معانيها، وإحضار القلب عند تلاوته أو سماعه.

خامسًا: ومن ذلك الوقوف عند آيات التسبيح، فينزه الله تعالى، وعند آيات الوعد والوعيد، لسؤاله سبحانه الجنة، والاستعاذة به من النار، وعند قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسنن الله عَزَّجَلَّ في نصرهم، وتدمير أعدائهم، والسير في ضوء هذه السنن في الدعوة والجهاد.

سادسًا: الانقياد لأحكام القرآن والعمل بها، ومحاسبة النفس في الامتثال لأوامره سبحانه ونواهيه، ومن أهمها تحقيق التوحيد، ثم أحكام الحلال والحرام.

وينبغي لمن من الله عَزَّجَلَّ عليه بحفظ القرآن بعضه أو كله أن يعرف بسمته وهديه، محاسبًا لنفسه، يعرف القرآن في سمته وخلقه. قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وببصمته إذ الناس يخلطون،

وبخشوعه إذ الناس مختالون، وينبغي أن يكون باكيًا محزونًا، حكيماً
عليماً سكيناً، ولا يكون جافياً ولا غافلاً ولا صاخباً ولا صياحاً ولا
حديداً^(١).

سابعاً: الحكم به، والتحاكم إليه، والرضا به، والتسليم
لأحكامه. وتعظيم نصوصه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ثامناً: الاستشفاء به من أمراض القلوب وآفاتهما، ومن أمراض
الأجساد وعاهاتها.

تاسعاً: تعظيم نصوصه وإجلالها والانقياد لها، وسلامة القلب
من أي اعتراض على أخباره، بأي شبهة، أو على أحكامه بأي شهوة،
وأن لا نلوي أعناق نصوصه لتوافق أهواءنا، بل نلوي أعناقنا لتوافق
نصوصه وتخضع لها.

عاشراً: ابتغاء وجه الله عَزَّجَلَّ في تلاوته وحفظه، وأن لا يكون
للرياء وأعراض الدنيا.

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/٢٤٦).

حادي عشر: الخشوع عند قراءته وتلاوته والبكاء عند وعده ووعيده وزواجه وعقوباته بأعدائه، وعند ذكر أسماؤه الحسنی، وتعظيمها وتنزيهاها، والتعبد لله تعالى بها.

قال الله عَزَّجَلَّ في وصف عباده العلماء الخاشعين عند تلاوة كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وقال عن أنبيائه وأوليائه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وحث عباده المؤمنين على الخشوع لذكره، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وللنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والسلف رحمهم الله تعالى مواقف وأحوال مع كتاب الله عَزَّجَلَّ تدل على تعظيمهم وخشوعهم لكلام الله عَزَّجَلَّ:

- عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقرأ عليّ» قلت: يا رسول الله اقرأ عليك، وعليك أنزل! قال: «نعم»، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا

مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿[النساء: ٤١]﴾ قال: «حسبك الآن». فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان^(١).

• وعن عبدالله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي بنا، وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء^(٢).

• وعن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال عبيد ابن عمير: حدثينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبكت وقالت: قام ليلة من الليالي، فقال: يا عائشة ذريني أتعبد لربي. قالت: قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك. قالت: فقام وتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بل حجره، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً. لقد أنزلت عليّ الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣).

(١) البخاري (٥٠٥٠).

(٢) أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٣/٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٤٤).

(٣) صحيح ابن حبان (٥٢٣) من الموارد، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٦٨).

- ويقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد عشنا برهة من دهرنا، وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيتعلم حلالها، وحرامها، وأمرها، وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها. كما تعلمون أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، فيشره نثر الدقل»^(١).
- ويقول عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تهذوا القرآن هذا كهذا الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب»^(٢).
- وعن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما اشتد برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعه، قيل له في الصلاة، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلبه البكاء، قال: «مروه فليصل». فعاودته، فقال: «مروه فليصل، فإنكن صواحب يوسف»^(٣).
- وعن علقمة بن أبي وقاص قال: «كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ في العشاء الآخرة سورة يوسف، قال: وأنا في مؤخر

(١) السنن الكبرى، للبيهقي (٣/ ١٢٠).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٨٨٢٥).

(٣) البخاري (٦٨٢).

الصف، حتى إذا ذكر يوسف سمعت نشيجه، وأنا في مؤخرة الصفوف»^(١).

• وعن عبدالله بن عبيدة قال: رأيت صفية زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوماً قرأوا سجدة فسجدوا فنادتهم: هذا السجود والدعاء فأين البكاء^(٢).

• وعن عبدالله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سمعوا القرآن. قالت: تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله، قال قلت: فإن ناساً هاهنا إذا سمع أحدهم القرآن خر مغشياً عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم^(٣).

• عن عقيل بن جابر عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني في غزوة ذات الرقاع فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين، فحلف أن لا أنتهي حتى أهرق دمًا في أصحاب محمد، فخرج يتبع أثر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلاً، فقال: «من رجل يكلؤنا» فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال: «كونا بفم الشعب».

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٧٠٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٦٨١).

(٣) شعب الإيمان، للبيهقي (٣٦٥ / ٢).

قال: فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب، اضطجع المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل فلما رأى شخصه عرف أنه ربيبة للقوم، فرماه بسهم، فوضعه فيه، فنزعه حتى رماه بثلاثة أسهم، ثم ركع وسجد، ثم انتبه صاحبه، فلما عرف أنهم قد نذروا به هرب، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم، قال: سبحان الله، ألا أنبهتني أول ما رمى؟ قال: كنت في سورة أقرأها، فلم أحب أن أقطعها^(١).

• قال ابن أبي مليكة: صحبت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -يعني في السفر- فإذا نزل قام شطر الليل، يرتل القرآن حرفاً حرفاً، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب^(٢).

• وعن بكر بن منير قال: كان محمد بن إسماعيل يصلي ذات يوم فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة، فلما قضى صلاته، قال: انظروا إيش هذا الذي آذاني في صلاتي؟ فنظروا، فإذا الزنبور قد ورمه في سبعة عشر موضعاً، ولم يقطع صلاته. قلت: ورواها وراقه بالمعنى، وزاد قال: كنت في آية، فأحببت أن أتمها^(٣).

(١) سنن أبي داود (١٩٨)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٩٣).

(٢) شعب الإيمان (٣٦٥/٢).

(٣) تغليق التعليق على صحيح البخاري (٣٩٨/٥).

• وعن محمد بن جحادة قال: قلت لأُم ولد الحسن البصري: ما رأيت منه - أي الحسن البصري -؟ فقالت: رأيتُه فتح المصحف، فرأيت عينيه تسيلان، وشفتيه لا يتحركان^(١).

ثاني عشر: إكرام حامل القرآن الحافظ له والمعلم له وإجلاله وتوقيره. قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ: إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَلَا الْجَانِي، وَإِكْرَامُ ذِي السُّلْطَانِ الْمَقْسُطِ»^(٢).

وفي ختام الحديث عن تعظيم كتاب الله عَزَّجَلَّ، أود الإشارة إلى بعض المظاهر، التي تضاد تعظيم القرآن وإجلاله:

الأول: هجر تلاوته، وهجر تدبر معانيه، والزهد في حفظ ما أمكن من آياته، أو نسيان وإهمال ما كان محفوظاً.

الثاني: مخالفة أوامره ونواهيه، والإصرار عليها مما يدل على عدم تعظيمها.

الثالث: الخرج من بعض آياته، التي فيها مخالفة للهوى أو المعتقد، ومن ذلك التأويلات الفاسدة لبعض آيات القرآن لتوافق المعتقدات والأهواء الفاسدة.

(١) شعب الإيمان، للبيهقي (٢/ ٤١١).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٧٤).

الرابع: عدم التسليم لأحكامه والإذعان لها، والجدال بالباطل في الاعتراض عليها.

الخامس: التناقل في الحكم بها أو التحاكم إليها.

السادس: الزهد في الاستشفاء به لأمراض القلوب والأبدان، والتهوين أو الشك في أثر القرآن في علاج الأمراض.

السابع: مس القرآن بغير طهارة، ومع الخلاف في جواز مس القرآن للمحدث، إلا أن الجميع متفقون على أفضلية الطهارة لمن يريد مس المصحف، لأن في ذلك تعظيماً لكلام الله عَزَّجَلَّ.

الثامن: الدخول به في أماكن الخلاء والأماكن النجسة.

التاسع: الاتكاء عليه أو توسده، أو جعله عند الأقدام.

العاشر: تعليق آياته في الجدران والسيارات للزينة أو عن العين، مع أنه يعصى الله عَزَّجَلَّ داخل هذه الجدران، بوجود أجهزة الفساد من تلفاز وقنوات، فيها ما يسخط الله عَزَّجَلَّ من الأغاني والمشاهد الخليعة الماجنة، وفي هذا استهانة لكلام الله عَزَّجَلَّ المعلق.

الحادي عشر: افتتاح الحفلات والمناسبات بالقرآن، مع ما تتضمنه هذه الحفلات من معاصٍ يمنعها القرآن من غناء وموسيقى، وأشعار مدح وثناء فيها تعظيم للرؤساء والمنافقين، وفي هذا استهانة بكلام الله عَزَّجَلَّ الذي استفتح به هذه المناسبات.

الثاني عشر: تصغير اسم المصحف، كأن يقول عندي مصحف، أو مصحف صغير، ونحوهما.

الثالث عشر: عدم الإنصات عند سماع القرآن، واللغو واللهو عنده بالكلام الباطل.

الرابع عشر: وضعه مع الكتب أو المجلات السيئة في رف واحد، أو وضع أي كتاب آخر فوقه.

الخامس عشر: عدم احترام الأوراق التي فيها كلام الله عزَّجَلَّ، أو أسماؤه الحسنی، وإلقاؤها مع الأوراق الممتهنة، أو استخدامه كسفرة للأكل، ويتأكد التنبيه هنا على الآيات القرآنية في الكتب المدرسية، حيث تلقى بعد انتهاء الدراسة مع الأوراق الممتهنة في سلات المهملات أو حاويات البلدية، ولا يخفى ما في هذا من إهانة لكلام الله عزَّجَلَّ، وعدم تعظيمه سبحانه.

سئلت اللجنة الدائمة للإفتاء السؤال التالي:

يوجد بعض علب لبيع الألبان، ومكتوب على العلب بعض آية من القرآن الكريم هو ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، ومصير هذه العلب بعد الاستعمال الرمي في الكناسات وامتئانها، فإن كان لا يجوز وضعها على العلب ولا رميها في الأقدار، فأفيدوني، لأبلغ باعة الألبان، ليحتاطوا في ذلك، والله يحفظكم؟

وقد أجابت اللجنة الدائمة بما يلي:

«إن هؤلاء يأخذون كلمات من القرآن والحديث، ولا يقصدون بذلك حكايتها على أنها قرآن أو حديث، ولذلك لم يقولوا: قال الله تعالى. ولا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما أخذوها، استحساناً لها، ولمناسبتها ما قصدوا استعمالها فيه من جعلها في لافتة، أو استعمالها في الدعاية إلى ما كتب عليه، وبذلك خرجت في كتابتهم عن أن تكون قرآناً أو حديثاً، ومثل هذا يسمى اقتباساً، وهو عند علماء البديع أخذ شيء من القرآن أو الحديث على غير طريق الحكاية، ليجعل به الكلام نشرًا أو نظمًا، وعلى هذا لا يكون حكمه حكم القرآن من تحريم حمله أو مسه على غير المتطهر، أو تحريم النطق به على من كان جنبًا، ولكن لا يليق بالمسلم أن يقتبس شيئاً من القرآن أو الحديث للأغراض الدنيئة، أو يكتبه عنواناً أو دعاية لصناعة أو مهنة أو عمل خسيس، لما في نفس الاقتباس لذلك من الامتهان، وأما رمي الأوراق المكتوبة أو العلب أو الأواني المكتوب عليها في الأقدار ونحوها، أو استعمالها فيما فيه امتهان لها، فلا يجوز، وإن كان المكتوب قرآناً كان ذلك أشد خطراً، وإن قصد برمي ما فيه القرآن امتهانه، أو كان مستهتراً بقذفه في القاذورات أو باستعماله فيها، كان ذلك كفرًا»^(١).

وسئلت اللجنة أيضًا السؤال التالي:

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، فتوى (رقم ٢٠٤).

ما حكم من يضع متاعه أو حاجياته، أو يلفها في كتب أو ورق يحتوي على سور وآيات من القرآن الكريم والسنة المطهرة، فأنكر عليه شخص بالقول، فرد عليه، فقال، أي الذي يضع البضاعة: لا بأس بهذا، ولا ضرر في ذلك. واستمر في عمله هذا، وقال: لا أجد غير هذا الورق، مع العلم أنه يقرأ ويكتب، وهذه ظاهرة شائعة عندنا، فما حكم الله تعالى في هذا العمل، وهل أسير في الشارع راكعًا، لجمع تلك الآيات والسور، التي كثر رميها على الأرض، في حين أن الناس تسخر، فماذا أفعل لإزالة هذا المنكر المنتشر؟

فأجابت اللجنة: «أولاً: لا يجوز أن يضع المسلم متاعه أو حاجته في أوراق كتب فيها سور وآيات من القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية، ولا أن يلقي ما كتب فيه ذلك في الشوارع والحارات والأماكن القذرة، لما في ذلك من الامتهان وانتهاك حرمة القرآن والأحاديث النبوية وذكر الله، ودعوى أنه لا يجد غير هذا الورق دعوى يكذبها الواقع، فإن وسائل صيانة المتاع كثيرة، وفيها غنية عن استعمال ما كتب فيه القرآن والأحاديث النبوية أو ذكر الله، وإنما هو الكسل وضعف الدين.

ثانيًا: يكفيك للخروج من الإثم والحرَج، أن تنصح الناس بعد استعمال ما ذكر فيما فيه امتهان، وأن تحذرهم من إلقاء ذلك في سلات

القيامة وفي الشوارع والحارات ونحوها، ولست مكلفاً بما فيه حرج عليك من جعل نفسك وقفاً على جمع ما تناثر من ذلك في الشوارع ونحوها، وإنما ترفع من ذلك ما تيسر منه دون مشقة وحرَج»^(١).

وسئل الشيخ عبدالعزيز ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ عن حكم وضع الصحف، التي تشتمل على آيات سفرة للطعام، فأجاب:

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فإن القرآن كلام الله تبارك وتعالى، أنزله على عبده ورسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليكون هدىً ونوراً للعالمين إلى يوم القيامة، وقد أكرم الله تعالى صدر هذه الأمة بحفظه في الصدور، والعمل به في جميع شؤون الحياة، والتحاكم إليه في القليل والكثير، ولا يزال فضل الله سبحانه ينزل على بعض عباده، فيعطون القرآن حقه من التعظيم والتكريم حساً ومعنى، ولكن هناك طوائف كبيرة وأعداد عظيمة، ممن ينتسب إلى الإسلام حرمت من القيام بحق القرآن العظيم، وما جاء عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخشى أن ينطبق بحق على كثير منهم، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، إذ أصبح القرآن لدى كثير منهم مهجوراً،

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، فتوى (رقم ٦٩٠١).

وهجروا تلاوته، وهجروا تدبره والعمل به، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد غفل كثير منهم عما يجب عليهم من تكريم كتاب الله، وحفظه إذا قصروا في مجال الحفظ والتدبر والعمل، كما لم يقوموا بما يجب من التعظيم والتكريم لكلام رب العالمين، ولقد عمت بلاد المسلمين المنشورات والصحف والمجلات، وكثيراً ما تشتمل على آيات من القرآن الكريم في غلافها أو داخلها، لكن قسماً كبيراً من المسلمين حينما يقرءون تلك الصحف يلقونها، فتجمع مع القمام، وتوطأ بالأقدام، بل قد يستعملها بعضهم لأغراض أخرى، حتى تصيبها النجاسات والقاذورات، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠].

والآية دليل على أنه لا يجوز مس القرآن إلا إذا كان المسلم على طهارة، كما هو رأي الجمهور من أهل العلم، وفي حديث عمرو ابن حزم الذي كتبه له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ لَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ»^(١).

(١) الموطأ رواية يحيى الليثي، باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن (١/١٩٩) دار إحياء التراث، ت: محمد فؤاد عبد الباقي.

ويروى عن حكيم بن حزام أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر»^(١).

وروي عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لا يمس القرآن إلا المطهرون». فقرأ القرآن ولم يمس المصحف، حين لم يكن على وضوء. وعن سعد: «أنه أمر ابنه بالوضوء لمس المصحف».

فإذا كان هذا في مس القرآن العزيز، فكيف بمن يضع الصحف التي تشتمل على آيات من القرآن سفرة لطعامه، ثم يرمي بها في النفايات مع النجاسات والقاذورات، لا شك أن هذا امتهان لكتاب الله العزيز وكلامه المبين.

فالواجب على كل مسلم ومسلمة أن يحافظوا على الصحف والكتب وغيرها، مما فيه آيات قرآنية أو أحاديث نبوية، أو كلام فيه ذكر الله، أو بعض أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيحفظها في مكان طاهر، وإذا استغنى عنها دفنها في أرض طاهرة أو أحرقها، ولا يجوز التساهل في ذلك، وحيث إن الكثير من الناس في غفلة عن هذا الأمر، وقد يقع في المحذور جهلاً منه بالحكم، رأيت كتابة هذه الكلمة تذكيراً وبياناً لما يجب على المسلمين العمل به، تجاه كتاب الله وأسمائه وصفاته وأحاديث رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحذيراً من الوقوع فيما يغضب

(١) الطبراني في الأوسط (٣٣٠١).

الله، ويتنافى مع مقام كلام رب العالمين، والله سبحانه المسؤول أن يوفقنا والمسلمين جميعاً لما يحبه ويرضاه، وأن يعيذنا جميعاً من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن يمنحنا جميعاً تعظيم كتابه وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والعمل بهما، وصيانتها عن كل ما يسيئ إليهما من قول أو فعل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم»^(١).

المظهر الخامس: تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إن من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ تعظيم من عظمه الله عَزَّوَجَلَّ، وأمر بتعظيمه وتوقيره من البشر، ألا وهو سيدهم وإمامهم نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدالله ورسوله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝۸﴾ ﴿تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨، ٩]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝۱۰﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١، ٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ۚ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

(١) مجلة البحوث الإسلامية (٦/ ٢٨٩).

وأثنى سبحانه على المعظمين له بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والآيات من كتاب الله عَزَّجَلَّ في الأمر بتوقيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصرته، والوقوف عند أمره ونهيه، واتباع سنته كثيرة ومتنوعة، وما ذاك إلا بما خصه به من وحيه ورسالته، وبما حباه الله عَزَّجَلَّ من الصفات والخصائص والأخلاق العظيمة، التي هيئه الله عَزَّجَلَّ بها لحمل رسالته وإبلاغها للعالمين، وكيفينا من هذه الصفات ثناء الله عَزَّجَلَّ له بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقد عظم الله عَزَّجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمر بتعظيمه في مواطن وأحوال عديدة وكثيرة، منها ما ذكرنا من الآيات، ومنها أنه رفع ذكره، فقرن اسمه باسمه في الأذان والصلاة والدعاء، وغيرها من العبادات والأذكار، وأمرنا بالصلاة والسلام عليه واتباعه، وهذا يدل على علو منزلته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقدره عند ربه.

وقد ذكر الشيخ (علي بادحدح) جوانب عشرة من وجوه العظمة الذاتية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنقلها هنا على سبيل الاختصار:

الوجه الأول: أخذ العهد له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جميع الأنبياء والرسل باتباعه لو بعث فيهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءِ اتَّيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

الوجه الثاني: إعلام أهل الكتاب بصفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل مبعثه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

الوجه الثالث: ختم النبوات بنبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

الوجه الرابع: عموم رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للثقلين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الوجه الخامس: القسم الرباني بحياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

الوجه السادس: رفع ذكره وإعلاء شأنه، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فقلما يذكر الله عَزَّجَلَّ إلا ويذكر اسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الوجه السابع: التكفل الرباني بحفظه وكلاءته، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

الوجه الثامن: ربط الإيمان به وطاعته بالإيمان بالله تعالى وطاعته، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

الوجه التاسع: توكير الله عزَّجَلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذاته باسم النبوة والرسالة: (يا أيها النبي) (يا أيها الرسول).

الوجه العاشر: دفاع الله عزَّجَلَّ عنه، وتولي الرد على شبهات المشركين، والذب عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه سبحانه، ونهي المؤمن عن أي أذية مهما صغرت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

إن تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقديره حق قدره، إنما هو من تعظيم الله تعالى وإجلاله. وأسوق فيما يلي بعض المظاهر واللوازم التي يقتضيها تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أولاً: الشوق إليه ومحبهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محبة، تتقدم على محبة النفس والأهل والولد والتعظيم أعلى منزلة من المحبة، لأن المحبوب لا يلزم أن يكون معظمًا كالولد يحب والده محبة تدعوه إلى تكريمه دون تعظيمه. والمقصود أن التعظيم الذي لا تصحبه المحبة هو تعظيم زائف، كمن يعظم الجبابة خوفاً منهم لا حباً لهم. أما تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو تعظيم من حوى كل صفات الخير ومعالي

الأخلاق والشئائل، وتعظيم من كان سبباً في نجاتنا، وإنقاذ البشرية من ظلمات الشرك والجهل والخرافة إلى نور التوحيد والإسلام، فهدى الله به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وأرشد به من الغواية، وعرف الناس بغاية خلقهم وحالهم بعد القدوم على ربهم، فكيف لا يجب ولا يعظم من هذه سجاياء وأخلاقه وأفضاله، ولقد ضرب السلف رحمهم الله تعالى أروع الأمثلة في حب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمه.

• لما احتضر بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالت امرأته: واحزننا، فقال: واطرباه! غداً نلقى الأحبة.. محمداً وحزبه^(١).

• ولما خرج أهل مكة بزيد بن الدثنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الحرم ليقتلوه، قال له أبو سفيان، ولم يكن قد أسلم بعد: أنشدك الله! أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك يُضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي^(٢).

• ولما قدم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشام، سأله المسلمون أن يسأل بلالاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يؤذن لهم، فسأله، فأذن يوماً، فلم يُر يومٌ كان أكثر باكيةً من يومئذ، ذكرًا منهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (١/٣٥٩).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٠٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/٣٥٧).

• وقال صاحب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السخيتاني؟ فقال: ما حدثكم عن أحد إلا وأيوب أوثق منه. وقال عنه مالك: وحج حجتين، فكنت أرمقه، ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتبت عنه.

وذكر مالك عن محمد بن المنكدر، وكان سيد القراء: لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اصفر لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صامتاً، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله.

وكان عبدالرحمن بن القاسم يذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فينظر إلى لونه، كأنه نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولقد رأيت الزهري، وكان لمن أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه»^(١).

(١) الشفا من حقوق المصطفى (ص ٥٩٨).

وكان الحسن رَحْمَةُ اللَّهِ إِذَا ذَكَرَ حَدِيثَ حَنِينِ الْجَذْعِ وَبِكَائِهِ بِكِي،
وقال: «يا معشر المسلمين! الخشبة تحن إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
شوقًا إلى لقائه؛ فأنتم أحق أن تشاققوا إليه»^(١).

• وقال الشافعي رَحْمَةُ اللَّهِ: «يكره للرجل أن يقول: قال الرسول.
ولكن يقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تعظيمًا لرسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٢).

• وكان مالك رَحْمَةُ اللَّهِ أَشَدَّ تَعْظِيمًا لحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
«فكان إذا جلس للفقهِ جلس كيف كان، وإذا أراد الجلوس
للحديث اغتسل وتطيب، ولبس ثيابًا جدًّا، وتعمم، وقعد على
منصته بخشوع وخضوع ووقار، ويبخر المجلس من أوله إلى
فراغه، تعظيمًا للحديث»^(٣).

• وكان عبدالرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أمر الحاضرين بالسكوت، فلا يتحدث أحد، ولا يُبرى قلم، ولا
يتسم أحد، ولا يقوم أحد قائمًا، كأن على رؤوسهم الطير، أو كأنهم
في صلاة؛ فإذا رأى أحدًا منهم تبسم أو تحدث لبس نعله وخرج»^(٤).

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٠).

(٢) ذم الكلام، للهروي (ص ٢٢٥).

(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ١٩٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٠١).

ثانيًا: ومن لوازم تعظيمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبته، اتباع سنته ونصرتها، والتسليم لما جاء به، وتعظيم شريعته، وكل ما صح من أقواله وأوامره ونواهيه، والانقياد لها. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا﴾ [الحشر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وحذر سبحانه من الاعتراض على شريعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْفُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الآية: «هذا متضمن للأدب مع الله تعالى، ومع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتعظيم له، واحترامه وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله متبعين لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميع أمورهم، وأن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمرُوا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة

الأبدية، والنعيم السرمدي، وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجب اتباعها وتقديمها على غيرها كائنا ما كان^(١)، ومما يتنافى مع تعظيمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحداث بدعة في الدين لم يشرعها، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).

ثالثاً: عدم رفع الصوت فوق صوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سواء كان ذلك في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بعد مماته في مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، ولما نزلت هذه الآية، قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار^(٣).

وروى البخاري عن السائب بن يزيد قال: كنت نائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فاءتني بهذين، فجئته بهما، قال: من أنتما؟ أو: من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف، قال: لو كنتم من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٤).

(١) تفسير السعدي (ص ٧٩٩).

(٢) مسلم (١٧١٨).

(٣) رواه البزار في مسنده (٢٢٥٧).

(٤) البخاري (٤٧٠).

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته، لأنه محترم حيًّا وميتًا.

ومما يدخل في هذه الأدب مخاطبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومناداته بوصف النبوة والرسالة لا باسمه الصريح، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُّ دُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، فلا يقال: (يا محمد) عند ندائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو (يا محمد بن عبدالله) كما يقول ذلك الناس بعضهم لبعض، وإنما يقال: يا رسول الله، يا نبي الله، وذلك لشرفه وفضله، وتميزه عن غيره.

ومما أدخله بعض أهل العلم في مدلول الآية بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رفع الصوت فوق سنته، وتقديم آراء الرجال وأقوالهم عليها، فإن هذا بمثابة رفع الصوت فوق صوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

رابعًا: الثناء عليه عند ذكره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أثنى عليه ربه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقد شرع الله عَزَّجَلَّ الصلاة والسلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواطن كثيرة من العبادات: كالشهاد في الصلاة، وصلاة الجنازة، والخطبة، وبعد الأذان، وعند استفتاح الدعاء، وغيرها من المواطن وقد جاء في السنة: الحث على الإكثار من الصلاة والسلام عليه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً»^(١) وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليَّ»^(٢).

وأفضل صيغ الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك التي علمها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه، عندما سألوا: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٣).

خامساً: محبة آله وأزواجه وأصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإجلالهم، وتقديرهم، والذب عنهم.

إن من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعظيم وإجلال من اختارهم الله عَزَّوَجَلَّ ليكونوا من آله وأزواجه وأصحابه، لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يختار للطيبين إلا الطيبين، قال سبحانه: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الفصل: ٦٨]. وقال سبحانه عن آله وأزواجه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(١) مسلم (٢٨٤).

(٢) الترمذي (٣٥٤٥)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦).

(٣) البخاري (٤٧٩٧).

وقال عن أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]، وقال سبحانه في الثناء عليهم: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبَّعُوا رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره عند هذه الآية: «ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ - في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء على ذلك»^(١).

وكما أن النبوة والرسالة اصطفاء لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فإن أصحاب الرسل اصطفاء.

روى البزار في مسنده من حديث سعيد بن المسيب عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٢) ت: سامي السلامة.

(٢) الإصابة (١/ ١٢)، وقال: سنده رجاله موثقون.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه»^(١).

وقد علم الله سبحانه ما في قلوبهم من الإيمان واليقين فأثابهم عليه، قال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨].
والقرآن فيه الآيات الكثيرة في تزكية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكذلك في أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التزكية لهم والثناء عليهم الشيء الكثير، من أهمها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٢).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»^(٣).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يأتي على الناس زمان يبعث منهم البعث، فيقولون: انظروا هل تجدون فيكم أحداً من أصحاب

(١) مسند أحمد ٨٤/٦ رقم ٣٦٠٠، وحسنه ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٦٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٤٢٨ رقم ٨٣٢): رواه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير، ورجاله موثقون. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه السخاوي، وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧/٢).

(٢) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٤٦١٠).

(٣) مسلم (٢٥٣١).

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيوجد الرجل فيفتح لهم به، ثم يبعث البعث الثاني، فيقولون: هل فيهم من رأى أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيفتح لهم به، ثم يبعث البعث الثالث، فيقال: انظروا هل ترون فيهم من رأى من رأى أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ثم يكون البعث الرابع، فيقال: انظروا هل ترون فيهم أحدا رأى من رأى أحدا رأى أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيوجد الرجل فيفتح لهم به»^(١).

ويصفهم الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «أولئك أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبر الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأحسنها بياناً، وأصدقها إيماناً، وأعمها نصيحة، وأقربها إلى الله وسيلة»^(٢).

ويقول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأدناهم صحبة أفضل من القرن الذين لم يروه، ولو لقوا الله بجميع الأعمال»^(٣).

فسحقاً وتباً لأهل الرفض، ومن اتبعهم في سبهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكفيرهم، إنهم بذلك يكذبون كلام الله عَزَّجَلَّ وتزكيتهم، ويكذبون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشاء عليهم، والنهي عن سبهم، ويتهمونه بسوء التربية، وفشله فيها، حيث لم يتخرج على يديه إلا خمسة أو سبعة من الأبرار، وما سواهم كفروا. الأمر

(١) البخاري (٢٨٩٧)، مسلم (٢٥٣٢).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨)، ت: مشهور آل سلمان.

(٣) شرح أصول أهل السنة (١/ ١٦٠).

الذي لا يرضونه لأئمتهم وشيوخهم، فكيف يرضونه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكفى بتكذيبهم للقرآن والسنة وسوء أدبهم كفرًا مبینًا. ولقد كان السلف رحمهم الله تعالى يتبرأون ممن يشتم أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل يأمرؤن بالهجرة من المكان الذي يسب فيه الصحابة، إن لم يمكن الإنكار والتغيير.

فقد خرج جرير بن عبد الله البجلي، وعدي بن حاتم، وحظلة الكاتب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الكوفة حتى نزلوا قرقيساء، وقالوا: لا نقيم ببلدة يشتم فيها عثمان بن عفان^(١).

وباع محمد بن عبدالعزيز التيمي داره، وقال: لا أقيم ببلدة يشتم فيها أصحاب رسول الله^(٢).

ولما أظهر ابن الصاحب الرفض ببغداد سنة (٥٨٣) هـ جاء الطالقاني إلى صديق فودعه، وذكر أنه متوجه إلى بلاد قزوین، فقال صديقه: إنك ههنا طيب، وتنفع الناس، فقال الطالقاني: معاذ الله أن أقيم ببلدة يجهر فيها بسب أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم خرج من بغداد إلى قزوین، وأقام بها إلى أن توفي بها^(٣).

(١) الإبانة الصغرى (ص ١٦٤).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٦٤).

(٣) طبقات السبكي (١١/٦).

وعن فرات بن السائب قال قلت لميمون بن مهران: أبو بكر وعمر أفضل أم علي، قال: فارتعد حتى سقطت عصاه من يده. وقال: ما كنت أرى أن أعيش إلى زمان يعدل بهما. رأس الإسلام ورأس الجماعة^(١).

ومن تعظيم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ محبتهم، والذب عنهم، والترضي عليهم، والسكوت عما شجر بينهم، والاعتراف بفضلهم على الناس بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث جاهدوا في الله حق جهاده، وأوصلوا الإسلام للبشرية، وهم الواسطة بين الناس وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم نقلة الكتاب والسنة، والمبينين لهما بفهمهم الصحيح لمن بعدهم، ولولا أن الله عَزَّجَلَّ سخرهم واصطفاهم لإبلاغ الكتاب والسنة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعلمهم وجهادهم، لما نعمت البشرية بدين الإسلام بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك فإن من سب الصحابة ورماهم بالكفر والردة أو الفسق، فإن مضمون ذلك اتهم نقلة الكتاب والسنة، وأنهم كفار أو فسقة، وبذلك يقع الشك في القرآن والأحاديث، لأن الطعن في الناقل والحامل طعن في المنقول والمحمول.

(١) تاريخ دمشق (٤٢/٣٠).

تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الغلو والجفاء:

الناس في تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طرفان مذمومان ووسط محمود، والمحمود هو من راعى الحقوق السابقة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعظمه التعظيم الذي أمر به الله عَزَّوَجَلَّ، دون أن يغلو فيه، ويرفعه فوق مقام العبودية لله تعالى، فهم يشهدون أن محمداً عبداً لله ورسوله. فكونه (عبداً لله) يمنع من رفعه إلى مقام الألوهية، وكونه (رسول الله) يمنع من إهدار حقوقه الرسالية أو معاملته كسائر الناس.

وأما الطرفان المذمومان فهما:

الأول: الجفافة: وهما الذين أساءوا الأدب مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يقيم في قلوبهم تعظيمه، وتعظيم أقواله وشرعه، ولم يقوموا بالمظاهر السابق ذكرها من مظاهر تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: الغلاة: وهم الذين غلوا في تعظيمهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاءوا بصور من التعظيم لم يأذن بها الله عَزَّوَجَلَّ، ولا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل رفعوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زاعمين تعظيمه إلى رتبة الألوهية، وجاءوا بصور من العبادات المبتدعة المخترعة، لم يأذن بها الله عَزَّوَجَلَّ، زاعمين أنهم يعظمون فيها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمثل هؤلاء الغلاة هم في الحقيقة يسيئون إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويؤذونه بارتكاب ما نهى عنه من البدع والتحذير من الغلو فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال:

«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، ولكن قولوا عبدا لله ورسوله»^(١).

ويبلغ الحد في التنفير من الغلو في ذاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢)، يحذر ما صنعوا. ولما هم طائفة من الناس بالغلو فيه، فقالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، قال لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان»^(٣)، ويلحق بالغلو فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحلف والإقسام به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه من التعظيم الذي لا يصرف إلا لله وحده، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»^(٤).

وقد وقع في هذه الأمة ما نهى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث غلا فيه أناس حتى جعلوه في مرتبة الألوهية والربوبية:

- فنسبوا إليه ما لا يليق إلا بالخالق، وصنعوا به كما صنع النصارى بالمسيح، غير أنهم لم يقولوا: هو ابن الله، لكنهم نسبوا

(١) البخاري (٣٤٤٥).

(٢) البخاري (١٣٣٠)، مسلم (٥٢٩).

(٣) مسند أحمد (١٣٥٢٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩٧).

(٤) البخاري (٢٦٧٩)، مسلم (١٦٤٦).

إليه: تصريف الكون، وعلم الغيب، وهذا إنزال له في مرتبة الألوهية، وإن لم يقولوا: إنه الله؛ فإن العبرة بالمعاني والحقائق.

- كما أنهم ابتدعوا له عيداً، يحتفلون فيه بمولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كابتداع النصارى عيد الميلاد للسيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَام، لم يفعل، ولم يأمر به عَلَيْهِ السَّلَام، كما لم يفعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يأمر في حق نفسه الشريفة.

لقد اتبع طائفة من المسلمين سنن اليهود والنصارى حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه، كما أخبر الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نعم! النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرف البشرية، وسيد ولد آدم، و خليل الله تعالى، وأعلى الناس منزلة يوم القيامة، وفي الجنة، وهو إمام الأنبياء والمرسلين، لا يبلغ مقامه أحد من البشر، غير أنه تحت سقف العبودية، دون مرتبة الألوهية، وقوله: «إنما أنا عبد فقولوا: عبدالله ورسوله» تقرير لهذه الحقيقة، وإبطال لدعاوى فريقين.

الأول: الغالي، الذي رفعه عن مرتبة العبودية، وذلك بقوله: «فقولوا: عبدالله».

والثاني: الجافي، الذي عامله كسائر الناس، فلم يميزه بالمرتبة العالية، وذلك بقوله: «ورسوله».

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْمَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وبعد هذه الآيات والأحاديث، فإنه لسائل أن يسأل:

هل عظم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حلف به مع أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»^(١)، ويقول: «من حلف بغير الله فقد أشرك»^{(٢)؟}

وهل عظمه من استغاث به، مع أنه بشر لا يملك من أمره شيئاً؟! أليس هذا تنكراً لمحبتة، وتعدياً لشرعه، وعصياناً لأمره؟ حيث قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبدالله ورسوله»^{(٣)؟}

وهل من تعظيمه الابتداع في دينه، والزيادة في شريعته من التمسح بحجرته أو الاحتفال بمولده، بعد اتفاقنا على نصحه لأمتة، ودلالتها على كل حسن؟! فأَيُّ حسن في عمل احتفالات ساعات أو أيام، ثم التقصير والإهمال في سائر العام؟!

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داود (٣٢٥١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٧٨٧).

(٣) سبق تخريجه.

وأي حسن في الاحتفال بزمان توفي فيه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!
وأي حسن في مشابهة دين النصارى المفتونين بالاحتفالات؟!
وأي حسن في عمل لم يشرعه الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يفعله أنصاره
وحماة دينه وحملة رسالته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟ أليسوا أصدق الناس حبا له؟!
أليس فقه الراشدين وفهمهم وسنتهم مما أوصانا به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
قائلاً: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي،
عضوا عليها بالنواجذ»^(١)؟!
أليس فعل المولد مخالفة لأمره: «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن
كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٢)؟!
فأي تعظيم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الموالد التي صارت مركباً
للمبتدعين وحجة للبطالين، أليس في بدعة المولد - بعد هذا - تقصير
في حق حبيبنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيذاء له بابتداع أمر لم يأذن بشرعه؟
لقد أرشدنا عليه الصلاة والسلام إلى الطريق الشرعي في تعظيم يوم
مولده ومبعثه، وذلك بصيام يوم الإثنين من كل أسبوع، حيث قال للذي
سأله عن صومه ليوم الإثنين: «ذلك يوم ولدت فيه وبعثت فيه»^(٣).

(١) أبو داود (٤٦٠٩) وصححه الألباني في المشكاة (١٦٥)، ورواه أحمد (١٧١٤٤).

(٢) أبو داود (٤٦٠٩) وصححه الألباني في المشكاة (١٦٥)، ورواه أحمد (١٧١٤٤).

(٣) مسلم (١١٦٢).

اللهم اجعلنا من المعظمين لرسولك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التعظيم الذي أذنت فيه، واجعلنا من المتبعين لسنته، وتوفنا عليها.

المظهر السادس: تعظيم قدر الصلاة

إن من تعظيم الله عَزَّجَلَّ تعظيم فرائضه وواجباته، وإن من أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين فريضة الصلاة، التي هي سمة الإيمان، وهي العبادة الكبرى لله عَزَّجَلَّ، ومن عظمتها أن فرضها الله عَزَّجَلَّ على هذه الأمة من فوق سبع سماوات، حينما عرج بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ملكوت السموات، وهي عمود الإسلام، وعلامة الإيمان والإسلام. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة المشرفة في مواطن كثيرة، تارة بذكر فضلها، وتارة بالثناء على أهلها، وتارة بذكر ثمارها، وتارة بالأمر بأدائها كما يريد الله عَزَّجَلَّ من إقامة أركانها وواجباتها، وخشوعها والمحافظة عليها في أوقاتها، وتارة بذكر العقوبات المترتبة على تركها أو التكاسل عنها، وهي أدلة كثيرة مفصلة في الكتاب والسنة تدل على تعظيم الله عَزَّجَلَّ وتعظيم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقدرها، وعلو شأنها وشأن أهلها، وليس المقام هنا مقام التفصيل في هذه الأدلة، فهي من الشهرة والاستفاضة بحيث لا نحتاج إلى ذكرها وتكرارها، وإنما المقصود هنا بيان عظمة قدر الصلاة، وأن تعظيمها من تعظيم من شرعها، وهو الله جل جلاله.

ومن عظيم شأنها أنها أول ما يحاسب العبد عنه يوم القيامة، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله»^(١).

ونقل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الصلاة قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك، وليس حظ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة: كحظ القلب الخراب من ذلك»^(٢).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، «فإنها كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى، وتكبيره وتعظيمه والخشوع له، وقلة رغبتهم فيه»^(٣).

ولو تأملنا أركان الصلاة وواجباتها وسننها، وما يسبقها من الاستعداد لها بالوضوء والطهارة، وما فيها ويتبعها من الأذكار لرأيناها كلها تعظيماً لله عَزَّ وَجَلَّ وتكبيراً، ومن ذلك قول: (الله أكبر) في استفتاحها، والتنقل بين أركانها. والتكبير في حقيقته إنما هو تعظيم

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٩٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/ ٢٣٨).

(٢) الصلاة، لابن القيم (ص ١٧١).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٧٠).

لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا أحد أكبر منه سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله، ومن ذلك ما تتضمنه أذكار الركوع والرفع منه، وأذكار السجود والجلوس بين السجدين، والتشهد الأول والأخير من التعظيم لله عَزَّوَجَلَّ، والثناء عليه بما هو أهله من الإجلال والتقدير.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ واصفًا الركوع في الصلاة: «ثم يرجع جاثيًا له ظهره خضوعًا لعظمته وتذللًا لعزته، واستكانة لجبروته، مسبحًا له بذكر اسمه (العظيم). فنزه عظمته عن حال العبد وذله وخضوعه، وقابل تلك العظمة بهذا الذل والانحناء والخضوع، قد تطامن وطأ طأ رأسه، وطوى ظهره، وربّه فوقه يرى خضوعه وذله، ويسمع كلامه، فهو ركن تعظيم وإجلال، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب»^{(١)(٢)}.

وعن رفع اليدين في الصلاة عند الدخول فيها، وعند الركوع والرفع منه، يقول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ عندما سأل: ما معنى رفع اليدين؟ قال: «تعظيم الله واتباع سنة نبيه»^(٣).

ولتعظيم قدر الصلاة في قلب المؤمن علامات ومظاهر من أهمها:

أولاً: محبتها والشوق إليها وانشراح الصدر بأدائها:

(١) سبق تخريجه.

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٣٠).

(٣) انظر: عمدة القاري (٩/ ٣).

قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حب إليّ من الدنيا: الطيب، والنساء، وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(١).

«وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر صلى»^(٢)، وكان يقول لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أرحنا بها يا بلال»^(٣).

- ويقول عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما دخل وقت صلاة حتى أشتاق إليها، وما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء»^(٤).
- ولما نعي إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخوه قثم وهو في سفر استرجع، ثم تنحى عن الطريق وأناخ، فصلّى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم مشى إلى راحلته، وهو يقول: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٥) [البقرة: ٤٥].

- وقد ذكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم القيامة: «رجل قلبه معلق في المساجد»^(٦) أي مشتاق إلى الصلاة وطول المكوث في المساجد.

(١) أحمد (١٤٠٣٧) والنسائي (٣٩٤٩).

(٢) مسند أحمد (٢٣٢٩٩)، أبو داود (١٣٢١).

(٣) أبو داود (٤٩٨٧)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٥٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٤).

(٥) تفسير ابن كثير عند آية البقرة (٤٥).

(٦) البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

(٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٥).

إذن محبة الصلاة والشوق إليها من علامات تعظيمها الدالة على تعظيم الله عَزَّجَلَّ، لأن كل معظم محبوب فإن النفس تشتاق إليه وتتلذذ به، وعلى العكس من ذلك، حينما يقل تعظيم الشيء أو ينعدم، فإن محبته والشوق إليه تنعدم، بل قد يحل محلها الكره والتثاقل والملل، كما هو شأن المنافقين، ومن في قلوبهم مرض، حيث وصفهم الله عَزَّجَلَّ بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال سبحانه عن الصلاة: ﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ثانيًا: التهيؤ لأدائها يتحقق شروطها من طهارة القلب والبدن وطهارة الجسم بالوضوء والغسل بالسواك، وطهارة اللباس والبقة من النجاسات، وتكميل ذلك كله، كما ورد في هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوضوء والطهارة وستر العورة، وأخذ الزينة المستطاعة في الهيئة واللباس، للوقوف بين يدي الله عَزَّجَلَّ، قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال سبحانه: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وفي أعراف البشر وعاداتهم أنه في حال الدخول على العظماء من أهل الدنيا، فإن ذلك يكون في حالة من الحشمة والزينة والنظافة، والله عَزَّجَلَّ العظيم الكبير أحق بذلك من المخلوق الضعيف الفاني، فالطهارة والزينة والعناية بهما تدل على تعظيم قدر الصلاة المتضمنة لتعظيم الله عَزَّجَلَّ.

ثالثاً: التبكير لها مع الجماعة في المسجد، والمحافظة على السنن الرواتب ما قبلها وما بعدها، والحزن على فواتها مع الجماعة أو فوات بعضها، كل هذا يدل على تعظيم قدر الصلاة، وعلى العكس من ذلك، فإن التفريط في حضور الجماعة في المسجد، أو فوات بعض الصلاة مع الجماعة أو التفريط في السنن الرواتب دون حزن وتألم من ذلك، فإن هذا يدل على ضعف شأن الصلاة في النفس، وقلة تعظيمها في القلب، ولقد ضرب السلف أحسن الأمثلة في محافظتهم على صلاة الجماعة والتبكير لها، فمن ذلك:

- عن نافع أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا ليلته. أي لتدارك ما فاتته من مضاعفة أجر الجماعة.
- قال محمد بن المبارك الصوري: كان سعيد بن عبدالعزيز إذا فاتته صلاة الجماعة بكى^(١).
- وقال يحيى بن معين: إن يحيى بن سعيد لم يفته الزوال في المسجد أربعين سنة^(٢).
- وقال وكيع بن الجراح: كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٤).

(٢) المصدر نفسه (٩/ ١٨١).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٢٨).

• قال علي بن المديني: ما رأيت أخوف لله بن بشر بن منصور.
قال غسان حدثني ابن أخي بشر قال: ما رأيت عمي بشر بن
منصور فاتته التكبيرة الأولى^(١).

• وروى منصور عن إبراهيم التيمي قال: إذا رأيت الرجل
يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه، قال بكير بن
عامر: كان لو قيل له: قد توجه إليك ملك الموت. ما كان
عنده زيادة عمل^(٢).

رابعاً: المحافظة على إقامتها بأركانها وواجباتها وسننها، كما جاء في
صفة صلاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣)، فإن هذا يدل على العناية بشأنها ومحبتها
وتعظيمها، لا لأنها ثقل وحمل يراد أن يتخفف منه، كما هو شأن كثير منا
في أدائهم للصلاة، وتفريطهم في واجباتها ومكملاتها، فالمعظم للصلاة
لا يرى إلا مقيماً لها، كما أمر الله عَزَّجَلَّ، وكما صلاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وهذا من النصح والتعظيم لله عَزَّجَلَّ فيما فرضه وأوجبه.

خامساً: المحافظة على أدائها بخشوع وطمأنينة وتدبر، لما يتلى
فيها من القرآن، وما يذكر فيها من الأذكار والتسبيح والتحميد

(١) المصدر نفسه (٨ / ٣٦٠).

(٢) المصدر نفسه (٥ / ٦١).

(٣) ولمعرفة هذه الصفة يرجع إلى كتاب الصلاة لابن القيم وصفة صلاة
النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للألباني.

والتعظيم والدعاء والثناء على الله عَزَّوَجَلَّ والتلذذ بذلك. إن لب الصلاة هو الخشوع. ولذتها حين يمتلأ القلب من المحبة والتعظيم والخوف والرجاء والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وهذه هي الصلاة التي تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وإلا فما قيمة حركات وأقوال لا تدبر فيها ولا معنى؟!

والخشوع في الصلاة دليل على عناية المصلي بصلاته، وتعظيمه لمن يقف بين يديه، وللسلف رحمهم الله تعالى مواقف وأمثلة رائعة في العناية بصلاتهم وخشوعهم فيها، أذكر هنا بعضها لعلنا نتأسى بهم فيها.

- كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبكي في الصلاة حتى لا يسمع الناس قراءته، ولما مرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرضه الذي مات فيه، قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمه»^(١).

- وهذا الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما طعنه المجوسي أبو لؤلؤة، وهو يصلي بالناس غلبه النزف حتى غشي عليه، فأدخلوه بيته، فلم يزل في غشية حتى أسفر، فنظر في وجوه من حوله، فقال: صلى الناس؟ قالوا: نعم، فقال: «لا إسلام لمن ترك الصلاة»، ثم توضأ وصلى، وجرحه ينزف دمًا^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) الطبقات الكبرى (٣/٣٤٦).

- وقرأ مرة سورة يوسف وهو يؤم الناس في صلاة الفجر، فسمع نشيجه من وراء الصفوف^(١).
- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، قال: «كانوا إذا قاموا في الصلاة أقبلوا على صلاتهم، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وعلموا أن الله يُقبل عليهم، فلا يلتفتون يمينا ولا شمالا»^(٢).
- وكان ابن الزبير إذا قام في الصلاة فكأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتزل العصافير على ظهره، لا تحسبه إلا جذعا أو حائطا أو خشبة منصوبة لا تتحرك^(٣).
- وكان علي بن الحسين إذا فرغ من وضوئه للصلاة، وصار بين وضوئه وصلاته، أخذته رعدة ونفضة، فقبل له في ذلك، فقال: «ويحكم، أتدرون إلى من أقوم، ومن أريد أن أناجي؟»^(٤).
- قال أبو عبد الرحمن الأسدي: قلت لسعيد بن عبدالعزيز: يا أبا محمد، ما هذا البكاء الذي يعرض لك في صلاتك؟، قال: يا ابن أخي، وما سؤالك عن ذلك؟، قلت: يا عم لعل الله أن ينفعني، قال سعيد: ما قمت في صلاتي إلا مثلت لي جهنم^(٥).

(١) سبق تخريجه.

(٢) الدر المنثور (١٠/ ٥٤٢).

(٣) تاريخ دمشق (٢٨/ ١٧٠).

(٤) حلية الأولياء (٣/ ١٣٣).

(٥) تاريخ دمشق (٢١/ ٢٠٣).

- وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته، ولقد انهدمت ناحية من المسجد، ففزع لها أهل السوق فما التفت. وكان إذا دخل منزله سكّت أهل بيته، فإذا قام يصلي تكلموا، أو ضحكوا، علماً منهم بأن قلبه مشغول عنهم، وكان يقول: إلهي، متى ألقاك وأنت راضٍ^(١).
- وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ إذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه، حتى يميل يمينه ويسرة^(٢).
- وكان المعلى بن منصور يوماً يصلي، فوقع على رأسه كورُ الزنابير فما التفت، وما انفتل حتى أتم صلاته، فنظروا، فإذا قد صار هكذا من شدة الانتفاخ^(٣).
- وعن جعفر بن زيد أن أباه أخبره قال: خرجنا في غزوة إلى كابل، وفي الجيش صلة بن أشيم، فنزل الناس عند العتمة، فقلت: لأرمقن عمله، وأنظر ما يذكر الناس من عبادته: فصلوا العتمة ثم اضطجع، فالتمس غفلة الناس، حتى إذا قلت هدأت العيون وثب، فدخل غيضة قريباً منه، ودخلت في إثره، فتوضأ ثم قام يصلي، فافتتح وجاء الأسد حتى دنا منه، وصعدت في شجرة، قال: فتراه التفت أو عده جرداً

(١) حلية الأولياء (٢/ ٢٩١).

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص ٣٦).

(٣) تاريخ دمشق (٥٩/ ٣٨٢).

حتى سجد، فقلت: الآن يفترسه فلا ينشني، فجلس ثم سلم، فقال: أيها السبع اطلب الرزق من مكان آخر. فولى، وإن له زئيراً، أقول: تصدعت الجبال منه، فما زال كذلك يصلي، حتى لما كان عند الصبح جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجبرني من النار. ثم رجع فأصبح كأنه بات على الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة ما الله به عليم، فلما دنوا من أرض العدو، وقال الأمير: لا يشذن أحد من العسكر، فذهبت بغلته بثقلها فأخذ يصلي، ف قيل له: إن الناس قد ذهبوا. قال: دعوني أصلي ركعتين. قالوا: إن الناس قد ذهبوا. قال: إنما هما خفيفتان. قال فدعا ثم قال: إني أقسم عليك أن ترد عليّ بغلتي وثقلها. قال: فجاءت حتى قامت بيت يديه. قال: فلما لقيه العدو حمل هو وهشام بن عامر قطعنا بهم طعنًا وضربًا وقتلاً، قال: فكسرا ذلك العدو. وقالوا: رجلا من العرب صنعا هذا، فكيف لو قاتلونا؟! فأعطوا المسلمين حاجاتهم. ف قيل لأبي هريرة: إن هشام بن عامر وكان يجالس: ألقى بيده إلى التهلكة، وأخبر بخبره، وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا، ولكنه التمس هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] (١).

(١) تعظيم قدر الصلاة، للمروزي (ص ٨٣٦).

• قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «كان إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء، أو أن يلتفت، أو يقلب الحصى، أو يعبث بشيء، أو يحدث نفسه من شأن الدنيا، إلا ناسياً ما دام في صلاته»^(١).

سادساً: ومن تعظيم شأن الصلاة الدال على تعظيم الله عزَّوجلَّ: الأمر بها، وحث الناس عليها، ولا سيما الأهل والأولاد والأقربين، قال الله عزَّوجلَّ لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقِبَةُ لِلنَّفَوَى﴾ [طه: ١٣٢]، وقال سبحانه في ثنائه على إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥]، والأمر بالصلاة يشمل فرضها ونفلها، والأمر بها أمر بتعليمهم كل ما لا تتم إلا به، من الوضوء والتطهر لها، والعلم بأركانها وواجباتها وسننها، وتعليمهم ما يصلحها وما يفسدها.

المظهر السابع من مظاهر تعظيم الله عزَّوجلَّ

تعظيم أسماء الله وصفاته الحسنی، فلا يحلف إلا بها، ولا يحلف بها على أمر كذب، لأن الحلف بالله تعظيم لله، ومن تعظيم الله عزَّوجلَّ في الحلف أن يبر بيمينه، إلا أن يكون معصية.

(١) المصدر نفسه (ص ١٨٨).

ومن تعظيمها أن لا يرد أحداً سأل بها، وأن يعاذ من استعاذ بها، إلا أن يكون في فعل محرم، أو ترك واجب، أو تعطيل حد من حدود الله عَزَّوَجَلَّ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه...» الحديث (١).

وقد كره كثير من العلماء كثرة الحلف بالله عَزَّوَجَلَّ، ولو كان الحالف صادقاً، لأن في ذلك وسيلة للحلف الكاذب، أو جعله عرضة لفعل الخير، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وينبغي للمحلف له -تعظيماً لله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه الحسنى- أن يقبل ويرضى ويصدق، لأن هذا من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك لما رواه ابن ماجه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تحلفوا بأبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله» (٢). إلا أن يكون الحالف بالله قد عرف منه الفجور والكذب، وبحلفه على ما يتيقن كذبه فيه، فإن هذا لا يدخل في الوعيد للعلم بكذبه وعدم تعظيم قلبه لله.

ومما يلحق بتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه وصفاته: أن لا يسأل بوجه الله عَزَّوَجَلَّ إلا غاية المطالب، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» (٣).

(١) سنن أبي داود (١٦٧٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٦٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٢١٠١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٧٠٨).

(٣) رواه أبو داود (١٦٧٣)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٢٩٨).

ومن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ تعظيم الشهادة به وبأسمائه وصفاته، فلا يشهد بشيء من ذلك على كذب أو زور، قال إبراهيم النخعي: «وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار».

ومن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وجوب احترام أسماء الله الحسنى، لأن احترامها احترام لله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم لله عَزَّوَجَلَّ، ومن ذلك أن لا يسمى أحد باسم مختص بالله. وأسماء الله تنقسم إلى قسمين.

الأول: ما لا يصح إلا لله، فهذا لا يسمى به غيره، وإن سمي وجب تغييره، مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يصح أن يوصف به غير الله، مثل: الرحيم، والسميع والبصير، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه عَلمٌ محض.

عن أبي شريح، أنه كان يكنى أبا الحكم، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا! فما لك من الولد؟»، قلت شريح، ومسلم، وعبدالله. قال: «فمن أكبرهم؟». قلت: شريح. قال: «فأنت أبو شريح»^(١).

(١) أبو داود (٤٩٥٥)، وصححه الألباني.

ومن احترامها تنزيها ورفعا عن الأماكن المهانة والقذرة، ولا سيما أوراق الصحف والمجلات والمقررات الدراسية، التي تشتمل على أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، وقد حصل من كثير من الناس التساهل وعدم المبالاة بذلك، وهذا من ضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب.

ومما يلحق بتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه وصفاته تعظيم ذمة الله عَزَّوَجَلَّ وذمة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضمن وصاياهم لأمراء الجيوش إذا أرسلهم لغزو الكفار، ومنها: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذمكم وذم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله..» الحديث^(١).

المظهر الثامن: تعظيم نصوص الكتاب والسنة وتلقيها بالقبول والتسليم وهذه من أعظم علامات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتوقيره وإجلاله، فما عظم الله سبحانه من استهان بنصوص الوحيين، وتجراً على ردهما بهواه وتأويلاته الفاسدة. ومن عظم النصوص الشرعية وهابها واستسلم لها من دون أي شبهة يعارض بها خبر الله عَزَّوَجَلَّ وخبر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن دون أي شهوة يعارض بها أمر الله عَزَّوَجَلَّ أو أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن دون معارضة لأحكام الله القدرية،

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

فإن هذا هو المعظم لله حقًا. قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأحكام. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال عزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

إن من أعظم ما يحدث مقام التسليم في النفس ويقويه؛ معرفة الله سبحانه، إذ التسليم في حقيقته ثمرة معرفة الله جَلَّ وَعَلَا بأسمائه وصفاته، فمن عرف الله حق المعرفة كان له أطوع وأكثر تسليماً، وبمقدار امتلاء القلب من معرفة الرب يكون التسليم له والخضوع، والسلامة من علل الحرج والضيق والانقباض، فإن التسليم لله فرع تعظيم الوحي أمراً ونهياً وخبراً، وهذا التعظيم للوحي فرع تعظيم الرب جل جلاله، وهو ثمرة معرفته سبحانه، فمن عرف الله عظمه، ومن عظمه عظم أمره، ومن عظم الأمر أسلم له طوعية واختياراً، يقول الإمام ابن القيم مبيناً هذه العلاقة الطردية بين معرفة الله وتعظيمه: «فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً»^{(١)(٢)}.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥٥٣).

(٢) انظر: كتاب (ينبوع الغواية الفكرية) د. عبدالله العجيري (ص ٩٤).

ولقد كان لسلفنا الصالح من الصحابة وسادات التابعين قصب السبق في تعظيم نصوص الكتاب والسنة: أخباراً وأحكاماً، والانقياد لها، والإنكار على من خالفها أو عارضها، وأكتفي من ذلك بالنماذج التالية:

(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لما أسري بالنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس! قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن قال ذلك لقد صدق. قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟! فقال: نعم، إني لأصدقه ما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة. فلذلك سمي أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

(٢) روى البخاري في صحيحه قال: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عبيد الله بن عتبة: أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذي يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر، ومشاورته: كهولاً كانوا

(١) المستدرک للحاکم، وقال: صحیح علی شرط الشیخین ولم یخرجاه (٤٤٥٨)، ورواه الطبري في تهذيب الآثار (٧٤٧).

أو شباناً. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله^(١).

(٣) ورضي الله عن الفاروق عمر، إذ يقول عن الحجر الأسود: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبلك ما قبلتك»^(٢).

يقول الحافظ ابن حجر: «وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما شرعه، ولو لم يعلم الحكمة فيه»^(٣).

(١) البخاري (٤٦٤٢).

(٢) البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

(٣) فتح الباري (٣/٤٦٣).

(٤) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعها عن يساره، فلما رأى ذلك القوم، ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاته قال: «ما حملكم على إلقاء نعالكم؟» قالوا: رأيناك ألقيت نعليك، فألقينا نعالنا. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أتاني، فأخبرني: أن فيهما قدراً»، أو قال: «أذى»^(١).

(٥) يحدث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحياء كله خير»، فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب: أن منه سكينه ووقاراً لله، ومنه ضعفاً. قال: فغضب عمران حتى احمرت عيناه، وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعارض فيه. قال فأعاد عمران الحديث، وأعاد الرجل مقالته. فغضب عمران، حتى قال الحاضرون له: إنه منا يا أبا نجيد، إنه لا بأس به^(٢). أي ليس ممن يتهم بنفاق أو زندقة.

(٦) سألت امرأة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة؟» فقالت عائشة: أحرورية أنت؟ فقالت

(١) أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٦٥٧).

(٢) مسلم (٣٧).

المرأة: لست حرورية، ولكني أسأل. قالت: كان يصيبنا ذلك، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة»^(١).

٧ عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لما نزل ﴿يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيزِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية^(٢).

٨ عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده، أو قال أخواله من الأنصار، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راکعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل مكة. فداروا كما هم قبل البيت»^(٣).

٩ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شراهم إلا الفضيخ: البسر والتمر، فإذا مناد ينادي، فقال: اخرج فانظر. فخرجت

(١) مسلم (٣٣٥).

(٢) أبو داود (٤١٠٣)، وصححه الألباني.

(٣) البخاري (٤٠).

فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حُرمت. قال: فجرت سكك المدينة، فقال لي أبو طلحة: اخرج فاهرقها فهورقتها»^(١).

(١٠) ولما عارض بلال بن عبد الله بن عمر قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» برأيه وعقله، وقال: والله لنمنعن. أقبل عليه أبوه عبد الله فسبه سباً ما سبه مثله، وقال: أحدثك عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقول: والله لنمنعن»^(٢).

(١١) ولما حدث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الفضة بالفضة ربا إلا هاء وهاء» الحديث. قال معاوية: ما أرى بهذا بأساً. يعني بيع آنية الفضة بالفضة متفاضلاً، غضب عبادة، وقال: تراني أقول قال رسول الله، وتقول: ما أرى بهذا بأساً. لا أساكنك بأرض أنت بها أبداً^(٣). وعلق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك، فقال: «ومعاوية لم يعارض النص بالرأي، وكان أتقى لله من ذلك، وإنما خصص عمومهم، وقيد مطلقه بهذه الصورة وما شابهها، ورأى أن التفاضل في مقابل أثر الصنعة لم يدخل في الحديث. وهذا مما يسوغ فيه الاجتهاد، وإنما أنكر عليه عبادة مقابلته لما رواه بهذا الرأي، ولو قال له: نعم حديث رسول الله على الرأس والعين، ولا يجوز مخالفته بوجه، ولكن

(١) مسلم (١٩٨٠).

(٢) مسلم (٤٤٢).

(٣) سنن ابن ماجه (١٨)، وصححه الألباني.

هذه الصورة لا تدخل في لفظه، فإنه إنما قال: الفضة بالفضة مثلاً بمثل وزناً بوزن. وهذه الزيادة ليست في مقابلة الفضة، وإنما هي في مقابلة الصنعة، ولا تذهب الصنعة هدراً، لما أنكر عليه عبادة، فإن هذا من تمام فهم النصوص، وبيان ما أريد بها»^(١).

(١٢) عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْبَسُ خَاتِماً مِنْ ذَهَبٍ فَنَبَذَهُ، فَقَالَ: «لَا أَلْبَسُهُ أَبَدًا»، فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ»^(٢).

وعند مسلم عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى خَاتِماً مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ فَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: «يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ»، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ. قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَخْذُهُ أَبَدًا. وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

(١٣) قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: «وقد قال رجل: تأخذ بهذا الحديث يا أبا عبد الله؟ فقال: متى رويت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثاً صحيحاً ولم آخذ به، فأشهدكم أن عقلي قد ذهب»^(٤).

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ١٠٥٩).

(٢) البخاري (٥٨٦٧).

(٣) مسلم (٢٠٩٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٤).

(١٤) وقال الحميدي: روى الشافعي يومًا حديثًا، فقلت: «أتأخذ به؟ فقال: خرجت من كنيسة، أو عليّ زنار، حتى إذا سمعت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا لا أقول به؟!»^(١).

(١٥) وقال الذهبي: وفي (مسند الشافعي) سماعنا، أخبرني أبو حنيفة ابن سماك، حدثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من قُتِلَ له قَتِيل فهو بخير النظرين: إن أحب أخذ العقل، وإن أحب فله القود»^(٢). قلت لابن أبي ذئب: «أتأخذ بهذا؟ فضرب صدري، وصاح كثيرًا، ونال مني، وقال: أحدثك عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقول: تأخذ به؟ نعم آخذ به، وذلك الفرض عليّ، وعلى كل من سمعه. إن الله اختار محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الناس فهداهم به، وعلى يديه، فعلى الخلق أن يتبعوه: طائعين أو داخرين، لا تخرج لمسلم من ذلك»^(٣).

(١٦) وقال رجل للزهري: يا أبا بكر حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس منا من لطم الخدود، وليس منا من لم يوقر كبيرنا»، وما أشبه هذا الحديث؟ أطرق الزهري ساعة، ثم رفع رأسه،

(١) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٣٤).

(٢) أبو داود (٤٥٠٤)، وأصله في البخاري (٦٨٨٠)، وانظر: سير أعلام النبلاء (١٤٢ / ٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٧ / ١٤٢).

فقال: من الله عَزَّجَلَّ العلم، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم^(١).

(١٧) ولما ذكر ابن المبارك حديث: «لا يزني الزاني وهو مؤمن...» فقال فيه قائل: «ما هذا؟ على معنى الإنكار. فغضب ابن المبارك، وقال: يمنعنا هؤلاء الأنان (كثير الكلام والشكوى) أن نحدث بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلما جهلنا معنى حديث تركناه! لا، بل نرويه كما سمعنا، ونلزم الجهل أنفسنا»^(٢).

(١٨) وكان أبو معاوية الضرير يحدث هارون الرشيد بحديث أبي هريرة: «احتج آدم وموسى»، فقال أحد الحاضرين: كيف هذا وبين آدم وموسى ما بينهما؟ قال: فوثب هارون، وقال: يحدثك عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعارض بكيف؟ فما زال يقول حتى سكت عنه.

يقول شيخ الإسلام أبو إسماعيل الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ معلّقاً على هذه القصة: «هكذا ينبغي للمرء أن يعظم أخبار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقابلها بالقبول والتسليم والتصديق، ويُنكر أشد الإنكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ، مع من اعترض على

(١) السنة، للخلال (٣/ ٥٧٩).

(٢) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٥٠٤).

الخبر الصحيح الذي سمعه بـ (كيف) على طريق الإنكار له والابتعاد عنه، ولم يتلقه بالقبول كما يجب أن يتلقى جميع ما يرد عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

(١٩) قال أبو عبد الله المؤذن: «كنت مع ابن أبي شريح في طريق غور، فأتاه إنسان في بعض تلك الجبال، فقال له: إن امرأتى ولدت ستة أشهر. فقال: هو ولدك، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الولد للفراش»^(٢) فعاوده، فرد عليه كذلك، فقال الرجل: أنا لا أقول بهذا! فقال: إن هذا هو الغزو، وسل عليه السيف. فأكبيننا عليه، وقلنا: جاهل لا يدري ما يقول»^(٣).

(٢٠) قال الحافظ محمد بن طاهر: «سمعت أبا إسحاق الحبال يقول: كنا نقرأ على شيخ جزاء، فقرأنا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يدخل الجنة قتات»^(٤). وكان في الجماعة رجل ممن يبيع القت، وهو علف الدواب، فقام وبكى. وقال: أتوب إلى الله من بيع القت. ف قيل: ليس هو الذي يبيع القت، ولكنه النمام الذي ينقل الحديث من قوم إلى قوم، فسكن بكاؤه وطابت نفسه»^(٥).

(١) عقيدة السلف، للصابوني (ص ١١٧).

(٢) البخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي، للذهبي (٢٧/ ٢٦٩). وسير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٢٧).

(٤) البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

(٥) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣٣/ ٧٩).

(٢١) ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في أثناء حديثه عن السلف الصالح: «وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده. فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعية والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق. وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم»^(١).

(٢٢) وقال البرهاري رَحِمَهُ اللهُ: «إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار أو يرد الآثار أو يريد غير الآثار، فاتهمه على الإسلام، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع»^(٢).

وبعد هذه النماذج المضيئة من تعظيم السلف لكلام الله عَزَّجَلَّ وكلام رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والانقياد والتسليم لهما، أذكر هنا مقارنة بين رسالة صغيرة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ والموسومة (بالواسطية)، ضمنها أصول اعتقاد أهل السنة. وبين أشهر كتب الاعتقاد عند بعض الطوائف التي يعتمدونها حفظاً وتلقيناً وتدريساً، وهي (أم البراهين)، ليظهر من هذه المقارنة مدى اتساع هوة الخلاف

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/١٣).

(٢) شرح السنة، للبرهاري (ص ٥١).

بين المنهجين: منهج من يعظم نصوص الشريعة، ويجعلها دليلاً وإمامه، وبين من يعظم كلام الفلاسفة وعلم الكلام، ويجعلها دليلاً، ويستتهن بالنص والأثر.

من المنطقي أن يحوي الكتابين أو المتنين العشرات على الأقل من آيات الكتاب العزيز، والعديد من الأحاديث النبوية الصحيحة، لأنهما كتابان في الاعتقاد.

لكن الصدمة تقع عندما نعلم أن متن أم البراهين لم يحو ولا آية واحدة!! بل ولا حديثاً واحداً!! بينما حُشيَ بمقدمات منطقية!! أما متن العقيدة الواسطية فقد استدل فيه بأكثر من مئة وعشرين آية، وما يقارب الثلاثين حديثاً نبوياً، أغلبها من الصحيحين، وهذا مثال بسيط يبين مدى الفرق في طرق الاستدلال بين الفريقين، مع العلم أنهما بنفس الحجم تقريباً.

ومن تأمل في الكثير من كلام ابن تيمية في الفروع وفي الأصول وجد تعظيم النص، والفرع إليه هو المقدم، وبالعكس أهل الكلام، الذي صارت المقدمات المنطقية عندهم هي القطعية والنصوص الشرعية ظنية^(١)!

(١) انظر: مقال (ابن تيمية وإعادة القداسة للنص الشرعي) زياد العضيل، (موقع أرشيف ملتقى أهل الحديث) (٣/ ٣٧).

مكانة تعظيم نصوص الوحيين وأهميتها

تبرز أهمية تعظيم نصوص الكتاب والسنة في الأمور التالية:

(١) إن في تعظيم كلام الله عَزَّجَلَّ وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحقيقًا لتعظيم الله تعالى في النفوس، لأن تعظيم قول القائل وإجلاله والتسليم له، هو من تعظيم قائله والمتكلم به، وهو الله سبحانه، فلم يعظم الله عَزَّجَلَّ من لم يعظم وحيه، وينقاد لأمره، بل لا إيمان لمن استهان بوحيه.

(٢) في تعظيم نصوص الوحيين تحقيق لمقصد الشريعة من التنزيل. لأن من مقاصد الشريعة من التشريع أن يكون نافذًا في الأمة، وأن يكون محترمًا من جميعها، إذ لا تحصل المنفعة المقصودة منه كاملة بدون نفوذه واحترامه، فطاعة الأمة للشريعة غرض عظيم، وإن أعظم باعث على احترام الشريعة ونفوذها، أنها خطاب الله تعالى للأمة. وقد جاء تعظيم نصوص الوحيين في آيات كثيرة من كتاب الله عَزَّجَلَّ، فوصف الله سبحانه وحيه بالنور والبرهان والرحمة والشفاء والهدى، كما جاء تعظيم السنة في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَطُوقُ عَنِ أَمْوَىٰ ۚ﴾ (٢) إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿[النجم: ٢، ٣]، كل ذلك سيق مساق التعظيم، ليقع في قلوب العباد موقع التعظيم والإجلال.

والحاصل أن كل ما ينافي تعظيم النص الشرعي مناقض لمقصد الشريعة من التنزيل^(١).

(٣) في تعظيم النص الشرعي تحقيق لمقصد الشريعة من التكليف، لأن المقصد الشرعي من وضع الشريعة «إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً»^(٢). وهذا المقصد الذي ذكره الشاطبي يستلزم عدة لوازم تقوم كلها على تعظيم النص الشرعي، فمجانبة الهوى، ومخالفة النفس الأمارة بالسوء، وامتنال الأمر والنهي الشرعيين، وعدم التقديم بين يدي الله ورسوله، واحتمال المشاق في التكليف، وإيثار مرضاة الله، والتجافي عن مساخطه، ونحو ذلك من المعاني المحققة لحقيقة العبودية لله تعالى، إنما تقوم على التعظيم للنص الشرعي.

وبلغ التعظيم للنص الشرعي في كتاب الله عَزَّجَلَّ إلى أن يكون حداً فاصلاً بين أهل الإيمان وغيرهم، قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿[النور: ٤٧، ٤٨]، فالإعراض والتولي بحضرة النص الشرعي سمة المنافقين وشأنهم،

(١) انظر: (تعظيم النص الشرعي) د. حسن جابري (ص ٢، ٣) (باختصار وتصرف يسير).

(٢) الموافقات (٢/ ٢٨٩).

ثم ذكر أهل الإيمان بعدهم، فقال عنهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، ولم يزل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] قاعدة عظيمة من قواعد التعظيم لنصوص الوحيين^(١).

معالم ومظاهر تعظيم النصوص الشرعية عند السلف

إن معالم تعظيم نصوص الوحيين عند السلف ظهرت فيما يلي:

١ - حفظهم النص الشرعي حفظ المحب له الفرح به

وقد تكفل الله عزَّجَلَّ بحفظه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وكان حفظ سلف الأمة لنصوص الشريعة على نوعين: حفظ صدور، وحفظ سطور.

فأما حفظ الصدور: فقد سابت الأمة في حفظه واستظهاره صغاراً وكباراً عرباً وعجماً، لا حامل لهم على ذلك إلا حب كتاب الله وتعظيمه، والمنافسة في الشرف لحمله ونيل بركته، وأضحى من مقررات السلف في طلب العلم وتحصيله البدء بحفظ كتاب الله تعالى وإتقانه قبل أي علم.

(١) انظر: تعظيم النص الشرعي (ص ٤) باختصار وتصرف يسير.

وأما السنة، فكان حفظ السلف لها وضبطها بالسند مع العناية التامة بما يعتريه من وصل وانقطاع وصحة وضعف وسلامة وعله، كان أعجوبة ومفخرة من مفاخر الأمة. وكل هذه العناية بالسنة وبيان الصحيح منها والضعيف والموضوع مبني على التعظيم لحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإجلال لمكانته.

وأما حفظ السطور: فالمراد به الكتابة والتدوين، وقد شمل ذلك الكتاب والسنة على حد سواء. فتم جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وكلا التدوينين والجمعين له أقوى الدلالات على حفظ كتاب الله عَزَّجَلَّ صيانة وتعظيمًا.

وأما تدوين السنة فشأنه عجيب وعظيم، وكل نحو من هذه الأنحاء في التدوين ذو مأخذ بديع وجهد عظيم، منها المسانيد والجوامع والسنن والمعاجم، وتطلب هذا تبويبًا فقهيًا وعقديًا.. فهل وراء هذه الجهود الجبارة في حفظ السنة وتدوينها التي تفانى فيها السلف، إلا التعظيم الصادق للسنة واحترامها وإجلالها^(١).

٢- تعظيم وتوقير النص الشرعي بقبوله والانقياد له.

لقد مر بنا قريباً ذكر بعض النماذج من تعظيم السلف لنصوص الشريعة وانقيادهم لها، التي ظهر لنا منها ما بلغوه في تعظيمهم للنص

(١) المصدر السابق (ص ٥).

الشرعي، مما يتجاوز حدود التنظير المجرد والوصف الأجوف، إلى الانقياد لها والعمل بها والتسليم لها والتشنيع والإنكار الشديد على من يعترض عليها أو يقدم عليها عقلاً أو رأياً أو ذوقاً أو سياسة. بل ليس من المبالغة القول بأن حياتهم كلها وتاريخهم أجمع كان تعظيماً عملياً للنص الشرعي، وتوقيراً صادقاً بحكمه في شتى جوانب حياتهم، والبحث عنه، وتعلمه بغية العمل به، لا مجرد العلم به، كما نقل عن سفيان بن عيينة قوله: «إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل»^(١).

ومما يلفت النظر في النماذج السابقة من تعظيم السلف للنصوص الشرعية: سرعة الامتثال لحكم النص أمراً ونهياً، وتطبيقه فور بلوغه دون تردد أو تأخر، وهذه أمانة صدق لتعظيم النص، كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا السالف الذكر، قال: «بينما الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة»^(٢).

وكما في قصة أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السالف الذكر، لما كان يسقي عمومته الخمر قبل تحریمها في دار أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجاءهم آت،

(١) انظر: تعظيم النص الشرعي (ص ٧-١٢) باختصار.

(٢) سبق تخريجه.

فقال: إن الخمر قد حُرمت، فقالوا أكفئها، فكفأئها، وفي لفظ قال: فجرت في سكك المدينة، وفي لفظ قال: فما راجعوها ولا سألوا عنها بعد خبر الرجل^(١).

فأن يتحول المصلون في قبلتهم من بيت المقدس إلى الكعبة، وهم في الصلاة فيكون إمامهم خلفهم، وأن يُسارع القوم في إراقة شراب لهم كان حلالاً، كل ذلك بمجرد بلوغهم النص: آية في تعظيمه وتوقيره!! ولما يوصف رجلٌ حديدُ الرأي مثل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه كان وقافاً عند القرآن، فإنه يعني تطويع النفس لتعظيم النص الشرعي، وتقديمه على ما ألفته من اعتداء وصلابة.

ولنتأمل هذا الموقف: قال ابن عمر: كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد، ف قيل لها: لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ فقال: يمنعه قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»^(٢).

كما يتبين لنا من هذه النماذج:

شدة التمسك بمقتضى النص ودوام الامتثال له مدى الحياة، في مجاهدة عظيمة تثبت تعظيماً عظيماً وتوقيراً بالغاً للنصوص الشرعية وأحكامها.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

فابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يروي حديث: «ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يوصي فيه يبيت ليلةً أو ليلتين، إلا ووصيته عنده مكتوبة»، قال: فما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك، إلا وعندي وصيتي^(١).

وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصف حاله، فيقول: «أوصاني خليلي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بثلاث، لا أدعهن حتى أموت، صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»^(٢).

إنه لمن اليسير أن يأخذ المسلم نفسه بحزم، ويلزمها حكماً ما في مسألة ما، لكن ديمومة العمل عليه، واستمرار حمل النفس عليه جهد عظيم وجهاد بالغ، عاشه السلف، واستسهلوه حباً للنص الشرعي وتوقيراً له.

ومن معالم تعظيم السلف لنصوص الشريعة: العمل بالنص وامتناله وقت الصعاب والشدائد والمضائق، وهذا من أكد أمارات الصدق في التعظيم، حيث لا يكون في وقت الرخاء دون الشدة، ولا في اليسر دون العسر.

فهذا الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لما وقعت المحنة بالقول بخلق القرآن، واستدعي الأئمة لامتحانهم، خرج الإمام أحمد من داره مختبئاً في

(١) مسلم (١٦٢٧).

(٢) البخاري (١١٧٨)، ومسلم (٧٢١).

دار تلميذه إبراهيم بن هانى، ومكث عنده ثلاثاً، ثم قال: اطلب لي موضعاً، فقال له ابن هانى: لا آمن عليك! قال: افعَل، فإذا فعلت أقدتُك، فطلبتُ له موضعاً، فلما خرج قال: اختفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار ثلاثة أيام، ثم تحول.

فلله ما أعجبه من تعظيم للنص، وتوقير صادق يشهد له العمل في أصعب المواقف، أهذا موضع يسع المرء فيه أن يخلص بفكره إلى محنته، أم إلى توقف وامتنال، بل إلى بحث عن اقتداء واستنان؟

ثم نطق رَحْمَةُ اللَّهِ بِمَا حَقَّهُ أَنْ يَكْتُبَ بِهَاءِ الذَّهَبِ، فقال: «وليس ينبغي أن تتبع سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرخاء وتترك في الشدة»^(١).

٣- نصرة النص الشرعي والذب عنه.

وهذا هو المعلم الثالث من معالم تعظيم النصوص الشرعية، ألا وهو نصرة النص الشرعي، وعدم تجاوزه، والذب عنه ضد خصومه المعترضين عليه والمناوئين له، وهذه النصرة لون من ألوان تعظيم النص الشرعي، والذي حفلت به حياة السلف رحمهم الله تعالى، حيث تصدوا لأقاويل المبتدعة التي ليس لها من تعظيم النصوص نصيب، حيث قاموا بردها أو تعطيلها أو تحريفها، ولم يكن للسلف الصالح إزاءها إلا الإنكار والتشنيع عليها، ومن أبرز هذه المواقف

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٦٤)، ومناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص ٤٣٠).

بدعة المعتزلة، الذين يقدمون العقل على النص الشرعي: كقولهم بخلق القرآن، وتعطيل الصفات، وعدم أخذهم بحديث الآحاد. وقد صبر السلف على ما جاءهم من الابتلاء والمحن في سبيل نصرتهم لنصوص الشريعة وتعظيمها والذب عنها، فلم تلن قناتهم، ولم تهن عزائمهم، كيف والموقف موقف نصره لكتاب الله عزَّجَلَّ وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمها. ومن هؤلاء العلماء الربانيين الذين انتصروا لنصوص الشريعة ولم يتجاوزوها، وأقاموا الحجة على المناوئين لها: إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ، وثباته في فتنة القول بخلق القرآن، حيث كان يقول لهم دومًا: «أعطوني آية من كتاب الله عزَّجَلَّ أو حديثًا من سنة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذهب إليه».

ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ الذي قام بسيف الحجة والبيان في وجه خصوم الكتاب والسنة، متمسكًا بأدلتها ناصرًا ومعظمًا لها، فتصدى للأشاعرة الذين هم ورثة المعتزلة، وتصدى للقدرية، وتصدى لمدارس الرأي، التي تقدم القياس على النص، وتصدى لمدارس الصوفية التي تقدم الذوق والوجد على النص، وتصدى لأرباب السياسات الجائرة، الذين يقدمون السياسة على النص، فجزأهم عن أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الجزاء^(١).

(١) المصدر السابق.

٤ - خدمة النص الشرعي بما يحقق فهمه ونشره.

والتراث الإسلامي حافل بمئات بل آلاف الكتب، التي ألفها السلف رحمهم الله تعالى في تفسير القرآن وأسباب النزول وفروع علوم القرآن. وكذلك ما تركوه من التراث العظيم في تدوين السنة النبوية وشروحاتها الكثيرة العظيمة، ولا شك أن هذا يدل على تعظيم نصوص الشريعة عند السلف والعناية العظيمة بها^(١).

٥ - الحكم بنصوص الشريعة بين الناس والتحاكم إليها ورفض كل ما عارضها.

إن المتتبع لأحوال المسلمين في تاريخهم الطويل ليرى تعظيم حكام المسلمين ومحكوميههم لأحكام الشريعة، حيث لم يرضوا بها بديلاً في الحكم والتحاكم، ولم يدر في خلد أحد منهم أن يُحكم في أديان المسلمين وأنفسهم وعقولهم وأموالهم وأعراضهم بحكم غير حكم الله عَزَّوَجَلَّ، بل كانت الشريعة الإسلامية معظمة في النفوس، منقادة إليها القلوب والأبدان، مستسلمين لها راضين بأحكامها، وما ذاك إلا من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ونصوص وحيه، حتى دار الزمان دورته، وسقطت الخلافة الإسلامية بسبب بعدها عن أحكام الشريعة، واستشار أعدائها لهذا الضعف والبعد، فورثوا هذه الخلافة، وقسموا

(١) انظر: (تعظيم النص الشرعي) (ص ١٢-١٥).

بلاد المسلمين وخلافتهم العظيمة إلى دويلات، حكموها بغير شرع الله، ثم جاءوا بعد تحرير بلاد المسلمين بخلفاء لهم لم يعظموا الله تعالى، ربوهم على أعينهم، فتنكروا لشرعة الله عَزَّجَلَّ، وعزلوها عن السياسة وعن الحياة، فأصبحت أكثر بلدان المسلمين تحكمها حكومات علمانية، لم تقدر الله عَزَّجَلَّ حق قدره، فنبذوا كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراءهم ظهرًا، وحاربوا كل معظم لله عَزَّجَلَّ ووحيه، يدعو إلى تعظيم وتحكيم الشريعة وإقامة حكومة إسلامية تدين لله تعالى ولشرعه بالولاء والتعظيم، وتصدى لهؤلاء الدعاة نابتة من بني جلدتنا، تنكرت لدينها، وأعلنت تبعتها وولاءها للغرب الكافر وسياسته وأنظمته، وبدأوا يسخرون من الدعاة إلى تحكيم الشريعة وتعظيمها، ويثيرون الشبهات، ويتجرؤون على نصوص الشريعة، وكأنها كلام مخلوق قابل للتفاوض والاعتراض والأخذ والرد، ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا مَبْتَنٌ عَظِيمٌ﴾. ومن عجائب القوم أنهم يلبسون كرههم هذا للشريعة بلبوس الدين وإثارة الشبهات، وكأنهم ينطلقون من منطلق علمي، والله أعلم بما في قلوبهم من النفاق والريب والشك والمرض. وقد ذكرت تفصيلًا لشبهاتهم وتفنيدًا لها في كتاب ﴿قَالَ أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فليرجع إليها.

ولو تأملنا في دوافع القوم فإننا نرى أن وراء الأكمة ما وراءها، وليست المسألة خلافًا علميًا مجردًا، وإنما وراءها أمراض وأسباب

وأهواء نفسية. يقول الأستاذ عبد الله العجيري في كتابه النفيس (ينبوع الغواية الفكرية): «لا شك في أن الإخلال بأصل التسليم على درجات، يبلغ بعضها بالإنسان حد الخروج من الإسلام بالكلية، بينما يعد بعضها انحرافاً وزيفاً لا يبلغ مبلغ الكفر، وإذا تجاوزنا ذلك الخطاب (العلماني الغالي)، الذي يسعى لتجاوز (مبدأ التسليم) لخطاب الوحي أصلاً، بل يجهد في نقضه ورده، بنزع قدسية النص، وزحزحة الثوابت، وأنسنة التراث؛ فإن مفهوم التسليم لله ورسوله يظل واحداً من أظهر بدهيات الدين، فالتدين في جوهره مؤسس على فكرة الطاعة المطلقة والإيمان المطلق بكل ما يقوله الرب عَزَّوَجَلَّ أو يقوله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهذه البدهية الدينية جاء التنصيص عليها في غير ما آية وحديث، ومع وضوح هذا الأصل من جهة التنظير، وادعاء الأكثر الالتزام به نظرياً، إلا أن ثمة خللاً عميقاً في تطبيقه وممارسته عند الكثيرين، وقد ولد هذا الخلل صوراً متعددة من الانحراف والزيف.

وما عليك إلا أن تتأمل في واقع كثير من (المهزومين فكرياً) من باحثين ومثقفين ومفكرين، لترى حجم الحرج والضيق الذي يعصف بهم، متى ما أحوجوا للكلام حول جملة من الحقائق الشرعية، التي لم تأت وفق أهوائهم وأمزجتهم، ذلك الحرج والضيق الذي يحملهم على عدم إثارة هذه الموضوعات ابتداءً، ولا يرغبون في إثارتها من

غيرهم، لئلا يضطروا- بزعمهم- للكلام حولها منافحين عن (سمعة الإسلام)، (وساحة الإسلام)، (وجمال الإسلام). فإذا ما قُدر وأحوجوا للكلام فيها، وجدتهم ينفون التهم بنفي الأحكام، فيردون النصوص، ويحرفون دلالتها، ويفتعلون المعارك مع التراث، ويتعلقون بالشاذ من الأقوال، ويتتبعون رخص المذاهب، وهكذا.

غدا الحديث عن حقائق الولاء والبراء، وأحكام المرتد، وجهاد الطلب، وأبواب الرق، وقضايا المرأة (الحجاب- الاختلاط- تعدد الزوجات- الولي والمحرم- حدود المشاركة السياسية) وغيرها عند بعض الناس ضرباً من ضروب الانتحار الدعوي، وصار من المخجل في زمن (الليبرالية) و(حقوق الإنسان) و(الديمقراطية) الحديث عن حد اسمه حد الردة، أو عقوبة كالرجم، أو شيء اسمه الرق والعبودية، أو قتال مقصوده نشر الدين، أو تمييز بين البشر على أساس الدين، أو تحريم شيء من الفنون كرسوم ذوات الأرواح والموسيقى، أو منع للمرأة من ممارسة بعض حقها السياسي!

بات من الواضح مثلاً أن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء»^(١) غير موافق للمزاج الليبرالي العام، وأن نفوساً كثيرة باتت تضيق به وبمراميه، وقل الأمر نفسه في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لن

(١) البخاري (١٤٦٢).

يفلح قومٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»^(١)، أو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو كنت امرأةً أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٢) أو غير ذلك من الأحاديث.

وهكذا ترى أولئك المهزومين متى ما حوصروا بالحقائق الشرعية، يهبون فزعين للحديث عن تاريخية النص، وإعادة القراءة، والفهم المؤدلج، والنص المفتوح، والتعددية الفكرية، ونسبية الحقيقة، مخلفين وراءهم واجباتٍ شرعية عظيمة، هي ثمرة التدين الحق من انقياد وطاعة وتسليم وخضوع لله تبارك وتعالى، ورحم الله ابن القيم حين وضع يده على مثل هذه الجراحات، فقال: «فسبحان الله، كم من حزاظة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص، وبودهم أن لو لم ترد، وكم من حرارة في أكبادهم منها، وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها.

ستبدو لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزي يوم تبلى السرائر»^(٣).

وبطبيعة الحال، فإن كثيرًا من أولئك المهزومين متى ما حوصروا بالدلائل الشرعية المخالفة لأهوائهم سيلتمسون طرائق ومخارج -

(١) البخاري (٤٤٢٥)، والترمذي (٢٢٦٢).

(٢) الترمذي (١١٥٩)، وقال: حديث حسن غريب. وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥٤/٧) رقم (١٩٩٨).

(٣) الرسالة التبوكية (ص ٥٢).

بوعي أو بغير وعي - للخروج من سلطة هذه النصوص ومقتضياتها، بما يحقق لهم حالة من الطمأنينة والشعور بأنهم لا زالوا مستمسكين بالوحي مع استبقاء أهوائهم، ليظهروا في أعينهم وأعين مخالفيهم في صورة المسلّم للنص في الظاهر، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، فيديرون عملية توفيقية تلفيقية بين معطيات النص ومعطيات الواقع، ويوردون جملة من الإشكالات والشبهات في معارضة النص، تسهياً لإقامة هذا النموذج التلفيقي»^(١).

ثم تحدث المؤلف حفظه الله تعالى عن محركات الأفكار عند القوم وعوامل رد الحق، فقال: «وإذا كنا نتحدث عن عوامل رد الحق والإقبال على الباطل، فيمكن إعادتها إجمالاً إلى مفهوم مركزي في خطاب الوحي، والذي يشكل غطاءً لعامة بواعث الانحراف عن الحق، وهو مفهوم (الهوى)، فكل ذريعة تصد صاحبها عن الاستجابة للحق فإنما لغلبة الهوى على النفس، وقد كشف القرآن صراحةً عن ثنائية الاستجابة للحق أو الاستجابة للهوى، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فليس ثمة إلا طريقان: الاستجابة للوحي، أو الوقوع في أفخاخ الهوى. ومثل هذه الآية في الدلالة أيضاً قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ

(١) ينبوع الغواية الفكرية (ص ٢٦-٣٠).

فَأَحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ص: ٢٦﴾، فإما الحكم بالحق، وإما حكم الهوى. ومثلها أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، قال الإمام الشاطبي: «العقل إذا لم يكن متبعاً للشرع، لم يبق له إلا الهوى والشهوة»^(١).

وقال العلامة عبدالرحمن المعلمي كاشفاً شديد تأثير الهوى على الإنسان: «وللهوى سلطان عظيم على النفوس، فربما عرضت الحقيقة البينة على النفس، وهي غير مخالفة لهواها فقبلتها، ثم تعرض عليها حقيقة مثل تلك في الوضوح أو أبين، ولكنها مخالفة لهواها فتردها»^(٢). وبطبيعة الحال، فمفهوم الهوى في الخطاب الشرعي واسعٌ جداً، يندرج تحته عدد كبير من الممارسات والصور»^(٣) اهـ.

ويجمل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أسباب الإعراض عن الحق، فيقول: «والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جداً، فمنها: الجهل به، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس، فإن من جهل شيئاً

(١) الاعتصام للشاطبي (١/ ٥١).

(٢) رفع الاشتباه عن معنى العبادة (ص ١٥٩).

(٣) ينبوع الغواية الفكرية (ص ٣١-٣٣).

عاداه وعادى أهله، فإن انضاف إلى هذا السبب بغض من أمره بالحق ومعاداته له وحسده، كان المانع من القبول أقوى، فإن انضاف إلى ذلك إلفه وعادته ومرباه على ما كان عليه آبؤه ومن يحبه، ويعظمه قوي المانع، فإن انضاف إلى ذلك توهمه أن الحق الذي دُعي إليه يحول بينه وبين جاهه وعزه وشهوته وأغراضه، قوي المانع من القبول جداً، فإن انضاف إلى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه، كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ازداد المانع من قبول الحق قوة»^(١) اهـ.

المظهر التاسع: الشاء على الله عَزَّجَلَّ والإكثار من ذكره ودعائه:

إن من عظم شيئاً وقدره أحبه وأكثر من ذكره، ولم يغفل قلبه عنه، لذا فإن من علامات تعظيم الله عَزَّجَلَّ كثرة ذكره في جميع الأحيان والمناسبات، ولا سيما تكبيره سبحانه وتحميده وتسييحه، والثناء عليه بأسمائه الحسنی مع التدبر والخشوع. والناظر في هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذكره لربه ودعائه، يرى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يفتر عن ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، وفي أحيانه كلها، ويرى كثرة استغفاره لربه سبحانه، وتضرعه بين يديه سبحانه، ودعائه وسؤاله بجوامع الدعاء، وليس المقام مقام ذكر هذه الأحوال، وبما كان يدعو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) هداية الحيارى (ص ١٦).

ربه، ويذكره من أنواع الأدعية والأذكار، وإنما المقصود التنبيه على أن كثرة ذكر الله عَزَّجَلَّ ودعائه والتضرع بين يديه، وإظهار المسكنة له سبحانه، هو من علامات تعظيم الله سبحانه وإجلاله، كما أن التأمل في مفردات أدعيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأذكاره، ليرى أنها تتضمن اللهج بتعظيم الله سبحانه وتنزيهه وتكبيره وتحميده والثناء عليه، ولا سيما أذكار الصلاة والحج والجهاد والآيات الكونية، وعند التعجب والتنزيه، ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم القيامة: «رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(١).

المظهر العاشر: عدم الفتوى والقول على الله عَزَّجَلَّ بلا علم.

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

إن من علامات تعظيم الله عَزَّجَلَّ في القلوب الخوف والحذر من القول على الله عَزَّجَلَّ بغير علم، أو الإفتاء في حكم شرعي دون مستند شرعي من كتاب أو سنة. وكلما ضعف تعظيم الله عَزَّجَلَّ في القلب تجرأ صاحبه على الفتيا والتوقيع عن رب العالمين.

(١) البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

إن إفتاء الناس في دينهم أمانة عظيمة، كان السلف الصالح يخافون منها أشد الخوف، وذلك لتعظيمهم لله عَزَّجَلَّ، ولأنهم يبلغون عن الله عَزَّجَلَّ، وعن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الدين، وما يتعلق به من عقائد وأحكام. وعامة الناس يتعلقون بفتاوى أهل العلم، وينفذون أقوالهم على أنها حكم الله تعالى. فإذا أفتى المفتي بلا علم، أو كان على علم بوجه الحق في المسائل، ثم كتم الحق أو أفتى بخلاف الحق مسaire لواقع الناس واتباعاً لأهوائهم، أو طمعاً في دنيا فانية، فالويل له من سؤال الله عَزَّجَلَّ له: بماذا أجبتكم المرسلين؟ والويل له مما يتحمل من آثام الناس، الذين جعلوه واسطة بينهم وبين الكتاب والسنة.

ولا يظهر خطر مثل هذه الفتاوى، كما يظهر في هذه الأزمنة المتأخرة، حيث قل تعظيم الله في النفوس، فتساهل بعض المفتين هداهم الله، وتسرعوا في إفتاء الناس بفتاوى تطير عبر وسائل الإعلام بشتى صورها إلى أصقاع الدنيا، فيعمل بها الناس، مع مخالفتها أحياناً للدليل الصحيح، أو حاجتها إلى مزيد من التأمل والدراسة، والنظر في حال المستفتي وزمانه ومكانه وقصده، أو الإفتاء في مسألة دون النظر إلى مآلات الفتوى فيها.

ومما يؤلم النفس أن نرى في هذا الزمان جرأة على أحكام الله عَزَّجَلَّ من الصغير والكبير والمرأة والرجل، لا يتورعون من القول في شرع

الله تعالى بلا علم، أو تقليد أعمى، وذلك في المجالس أو على أعمدة الصحف والمجلات!!

إن المتأمل في أحوال سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليرى عندهم ذلك التعظيم الشديد لله عَزَّجَلَّ، والخوف الشديد من إفتاء الناس، والتوقيع عن رب العالمين في كون الأمر المسؤول عنه حلالاً أو حراماً، وإذا كان خوف السلف شديداً من الإفتاء، وهم على ما هم عليه من العلم الغزير والورع الشديد، فحري أن يكون من بعدهم أشد خوفاً وإشفاقاً منهم.

وفيما يلي أمثلة مضيئة من حال سلفنا الصالح، الذين جمعوا بين العلم وتعظيم الله عَزَّجَلَّ، والخوف الشديد الذي جعلهم يكرهون الإفتاء، ولا يجيبون على كل مسألة يسألون عنها؛ لعل في قراءتنا لها أكبر عظة وعبرة.

- قال ابن الصلاح: «عن محمد بن المنكدر، قال: إن العالم بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل بينهم»^(١).
- عن عبدالرحمن بن أبي ليلى أنه قال: «أدركت عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل أحدهم عن المسألة يردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى

(١) أدب المفتي (ص ٧٤).

الأول). وفي رواية: «ما منهم من أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا»^(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «من أفتى الناس في كل ما يستفتونه فهو مجنون»^(٢).

- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه^(٣).
- عن أبي حصين الأسدي أنه قال: «إن أحدكم ليفتي في المسألة، ولو وردت على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجمع لها أهل بدر»^(٤).
- وروي عن الحسن والشعبي مثله.
- وقال محمد بن عجلان: «إذا أغفل العالم: (لا أدري). أصيب في مقاتله»^(٥).
- وروى مالك مثل ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما^(٦)... عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه جاءه رجل

(١) الطبقات لابن سعد (٦/ ١١٠).

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٩٠).

(٣) جامع بيان العلم (٢/ ١٦٤).

(٤) تاريخ دمشق (٣٨/ ٤١١).

(٥) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٦).

(٦) جامع بيان العلم (٢/ ٥٤).

فسأله عن شيء، فقال القاسم: «لا أحسنه»، فجعل الرجل يقول: إني دفعت إليك لا أعرف غيرك؟ فقال القاسم: «لا تنظر إلى طول لحيتي، وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه»، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها، فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم، فقال القاسم: «والله لأن يقطع لساني أحب إليّ من أن أتكلم بما لا علم لي به»^(١).

- عن عبدالرحمن بن مهدي قال: «جاء رجل إلى مالك بن أنس يسأله عن شيء أيامًا ما يجيبه، فقال: يا أبا عبدالله إني أريد الخروج، وقد طال التردد؟ قال فأطرق طويلاً، ثم رفع رأسه، فقال: ما شاء الله يا هذا، إني إنما أتكلم فيما أحسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه»^(٢).

- وروي عن الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «أنه سئل عن مسألة، فقليل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى أدري: الفضل في سكوتي، أو في الجواب»^(٣).

- وعن أبي بكر الأثرم، قال: «سمعت أحمد بن حنبل يستفتي، فيكثر أن يقول: لا أدري، وذلك فيما قد عرف الأقاويل فيه»^(٤).

(١) المصدر نفسه (٢/٥٣).

(٢) الحلية (٣/٣٢٣).

(٣) أدب المفتي (ص ٧٤).

(٤) الفقيه والمتفقه (٢/٥٩).

- وعن سحنون أنه قال: «أشقى الناس من باع آخرته بدينه، وأشقى منه من باع آخرته بدنياه غيره. قال: ففكرت فيمن باع آخرته بدنياه غيره، فوجدته المفتي، يأتيه الرجل قد حنث في امرأته ورقيقه، فيقول له: لا شيء عليك، فيذهب الحانث فيتمتع بامرأته ورقيقه، وقد باع المفتي دينه بدنياه هذا»^(١) اهـ.
- وعن نافع: «أن رجلاً سأل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن مسألة فطأ طأ رأسه ولم يجبه، حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته، فقال له: يرحمك الله! أما سمعت مسألتني؟ قال: بلى، ولكنكم كأنكم ترون أن الله تعالى ليس بسائلنا عما تسألونا عنه، اتركنا رحمك الله حتى نتفهم في مسألتك، فإن كان لها جواب عندنا، وإلا أعلمناك أنه لا علم لنا به»^(٢).
- وعن سيار أبي الحكم، قال: قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنكم تستفتوننا استفتاء قوم، كأننا لا نسأل عما نفتيكم به»^(٣).
- وعن عبد الله بن بشر: «أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سئل عن مسألة فقال: لا علم لي، ثم قال وابدوها على الكبد: سئلت عما لا أعلم فقلت: لا أعلم»^(٤).

(١) أدب المفتي (ص ٧٤).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٥٦).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٠).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٦٢).

- وعن عقبة بن مسلم: «أن ابن عمر سئل عن شيء، فقال: لا أدري، ثم أتبعها، فقال: أتريدون أن تجعلوا ظهورنا لكم جسورًا في جهنم؛ أن تقولوا أفتانا ابن عمر بهذا»^(١).
- عن أيوب قال: سمعت القاسم يسأل بمنى، فيقول: لا أدري، لا أعلم، فلما أكثروا عليه قال: والله لا نعلم كل ما تسألونا عنه، ولو علمنا ما كتمناكم، ولا يحل لنا أن نكتمكم^(٢).
- وعن يحيى بن سعيد قال: سمعت القاسم يقول: ما نعلم كل ما نسأل عنه؛ ولأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله تعالى عليه، خير له من أن يقول ما لا يعلم^(٣).
- وعن أبي يوسف قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «من تكلم في شيء من العلم وتقلده، وهو يظن أن الله لا يسأله عنه: كيف أفتيت في دين الله؟ فقد سهلت عليه نفسه ودينه»^(٤).
- وقال أيضاً: «لولا الفرق من الله أن يضيع العلم ما أفتيت أحداً؟ يكون له المهناً، وعليّ الوزر»^(٥).

(١) المصدر نفسه (٢/ ٥٠).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٨٩).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٦).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٠).

(٥) المصدر نفسه (٢/ ٥٠).

- عن عطاء بن السائب: «أدركت أقوامًا إن كان أحدهم ليسأل عن الشيء فيتكلم، وإنه ليرعد»^(١).
- وكان مالك رَحِمَهُ اللهُ يقول: «من أجاب في مسألة، فينبغي من قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب فيها»^(٢).
- وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لقد رأيت ثلاث مئة من أهل بدر ما منهم أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى»^(٣).

هذه بعض أحوال السلف رحمهم الله تعالى مع العلم والفتوى؟ وهم أهل العلم والفتوى، والتقوى؛ فما بالنا اليوم مع قلة علمنا وتقوانا يتجرأ أحدنا على الفتيا بلا علم، أو بنصف علم، أو بأظن، ولعل، وكأن الفتوى هذه شربة ماء؟! والجواب: أن في قلوب سلفنا الصالح من التعظيم لله عَزَّجَلَّ والخوف منه ما ليس في قلوبنا.

ألا فلتتق الله عَزَّجَلَّ، ونحسب للوقوف بين يدي الله حسابه، ولنعد للسؤال جوابًا.

(١) المصدر نفسه (٢/ ٤٨).

(٢) ترتيب المدارك (١/ ١٤٤).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٤٩).

المظهر الحادي عشر: الموالاة والمعاداة في الله عَزَّجَلَّ.

إن من بدهيات تعظيم الله عَزَّجَلَّ ومحبته أن يحب المعظم لله ما يحبه ربه ومن يحبه، ويبغض ويعادي من يبغض الله عَزَّجَلَّ وما يبغضه، إذ لا يقبل من إنسان ادعاءه تعظيم الله عَزَّجَلَّ ومحبته، وهو يحب أعداء الله عَزَّجَلَّ أو يعادي أوليائه. وهذا مشاهد في أحوال من يعظمون البشر والله المثل الأعلى، ويترتب على هذا تعظيم وإجلال من عظمه الله تعالى وإهانة من أهانه، كما يترتب عليه أيضاً محبة المجالس التي يحبها الله عَزَّجَلَّ: كمجالس العلم والذكر والعبادة والدعوة وبغض وهجر المجالس، التي يبغضها الله عَزَّجَلَّ: كمجالس اللهو والخوض في آيات الله، ومجالس الشبهات، ومجالس الغيبة والظلم والعدوان. إن كل ذلك من لوازم تعظيم الله عَزَّجَلَّ. كما أن من لوازم تعظيم الله عَزَّجَلَّ محبة من يعظم الله عَزَّجَلَّ، والفرح بوجوده وسماع كلامه الذي يعظم فيه الله تعالى، وكرهية وبغض من لم يعظم الله تعالى، والاشمئزاز والنفور من كلامه والإنكار عليه.

المظهر الثاني عشر: التواضع للحق وللخلق والتخلص من العجب.

إن القلب حين يمتلأ من تعظيم الله عَزَّجَلَّ وإجلاله لا يمكن أن يكون صاحبه متكبراً، بل إن خلق التواضع يظهر في أحواله كلها، فتراه حين يظهر له الحق بدليله يخضع له ويتواضع وينقاد له ويسلم،

وحين يخالط الناس فإنه يتواضع لهم، ولا يرى نفسه فوقهم، ولا يتكبر عليهم، بل إنه ليزري على نفسه ويحتقرها، ولا يراها إلا مقصرة في جنب الله عَزَّجَلَّ، موقناً بأنه ضائع هالك لو وكله الله لنفسه طرفة عين، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله عَزَّجَلَّ. ومن هذا شأنه لا يتطرق العجب ولا الغرور ولا الكبر إلى نفسه، وما ذاك إلا من تعظيمه لربه سبحانه بما يعرفه عنه من الأسماء الحسنى وصفات الكمال والجلال، وبما يعرفه من نفسه من التقصير والعورة والخطيئة.

يقول القرافي رَحِمَهُ اللهُ: «وسر تحريم العجب أنه سوء أدب مع الله تعالى، فإنه لا ينبغي له أن يستعظم ما يتقرب به إلى سيده، بل يستصغره بالنسبة إلى عظمة سيده، لا سيما عظمة الله تعالى، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أي ما عظموه حق تعظيمه، فمن أعجب بنفسه وعبادته فقد هلك مع ربه وهو مطلع عليه، وعرض نفسه لمقت الله تعالى وسخطه، ونبه على ضد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، معناه يفعلون من الطاعات ما يفعلون وهم خائفون من لقاء الله تعالى بتلك الطاعة احتقاراً لها، وهذا يدل على طلب هذه الصفة والنهي عن ضدها»^(١).

ولما سئل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكبر، قال: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»^(٢)، فسر الكبر بأنه رد الحق وعدم قبوله والتسليم له،

(١) الفروق للقرافي (٤/ ٣٨١).

(٢) رواه مسلم (٩١).

واحتقار الناس، والترفع عليهم وازدراؤهم، ومن هذا التعريف للكبر يمكننا تعريف التواضع بعكس ذلك، ألا وهو: التواضع للحق وقبوله، والتواضع للخلق وعدم احتقارهم، وكل هذا عائد إلى ما في القلب من التعظيم لله تعالى وجودًا وعدمًا، قوة وضعفًا.

ولو نظرنا في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرة أصحابه والتابعين لهم بإحسان لظهر لنا هذا الخلق واضحًا جليًا. حيث كان التواضع وزهدهم في الشهرة والعلو صفة ظاهرة لهم، وما ذاك إلا من امتلاء قلوبهم من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، فحين يدعون إلى الله فإنهم يدعون إلى تعظيمه وعبادته وحده، لا إلى تعظيم نفوسهم وقدرهم عند الناس، وهذا على عكس أحوالنا اليوم التي يدعو كثير منا إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن البعض منا قد يكون يدعو إلى نفسه ويعظمها، لا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدثنا عن اللحظات الأخيرة في حياة الفاروق، فيقول: أنا آخركم عهدًا بعمر، دخلت عليه، ورأسه في حجر ابنه عبد الله بن عمر، فقال له: ضع خدي بالأرض، قال: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟ قال: ضع خدي بالأرض لا أم لك، في الثانية أو في الثالثة، ثم شبك بين رجله، فسمعتة يقول: ويلى، وويل أُمي إن لم يغفر الله لي، حتى فاضت روحه^(١). وإصراره على أن يضع ابنه خده على الأرض، من باب إذلال النفس في سبيل تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، ليكون أقرب إلى الله تعالى، وأقرب لاستجابة دعائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب (٢/٦٣).

وروى البيهقي بسنده عن أبي عثمان سعيد بن عثمان، قال: «سمعت ذا النون ابن إبراهيم، وسأله رجل: من أراد التواضع كيف السبيل إليه؟ فقال له: افهم ما ألقى إليك رحمك الله: من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله، فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه، لأن النفوس كلها حقيرة عند هيئته، ومن أشرف التواضع أن لا ينظر العبد إلى نفسه دون الله»^(١).

وأحوال السلف وتواضعهم وكراهيتهم للشهرة والظهور كثيرة، وقد ذكرت طائفة منها في كتاب (أين نحن من أخلاق السلف)، وكتاب ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾، فليرجع إليها.

ومن حكمة الله عَزَّجَلَّ وعدله وفضله أن يجعل في قلوب الناس توقير أوليائه المعظمين له وتقديرهم، وينزع هذا التوقير والمحبة من قلوب الناس، لمن لم يعظم الله عَزَّجَلَّ ويقدره ويحله. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير من الناس، وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق، وتجعله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، أي لا تعاملونه معاملة من توقرونه.. ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبة،

(١) انظر: شعب الإيمان، للبيهقي (٦/ ٢٩٧).

بل يسقط وقاره وهيبته في قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره، فذاك وقار بغض، لا وقار حب وتعظيم»^(١).

المظهر الثالث عشر: توقير وإكرام ذي الشبهة من المسلمين.

قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشُّبْهِةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَلَا الْجَانِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمَقْسُطِ»^(٢).

شرح الحديث:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ» أي من تعظيمه وتبجيله «إِكْرَامَ ذِي» أي

صاحب «الشبهة المسلم» الذي شاب شعره: أي ابيض ونفذ عمره في الإسلام والإيمان، فتعظيمه وتقديمه في الصلاة بشرطه على غيره، وفي المجالس والمجالس، وفي القبر وغيره، والرفق به، والشفقة عليه من كمال تعظيم الله لحرمته عند مولاه سبحانه، «وحامل القرآن» أي قارئه، سمي حاملاً لما تحمل في حفظه من الدرس والمشقة في تفهمه والعمل بأحكامه وتدبره، فهو كحامل لمشاق كثيرة تزيد على الأحمال

(١) الفوائد (ص ٨٨)، دار الكتب العلمية.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب (٤٨٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٨).

الثقيلة، (غير) بالنصب على الاستثناء وبالجر على الوصفية، «الغالي» بالمعجمة «فيه» المتجاوز الحد في التشدد والعمل به، وتتبع ما خفي منه واشتبه عليه من معانيه، والكشف عن دقيق علله، التي لا يصلح فيها عقله بما يتدعه في الدين، ليضل ويضل غيره، ويجاوز حدود قراءته ومخارج حروفه ومدته، «والجافي عنه» أي التارك له البعيد عن تلاوته والعمل بما فيه، فإن هذا من الجفاء، وهو البعد عن الشيء. قال في (النهاية): وإنما قال ذلك لأن من أخلاقه التي أمر بها القصد في الأمر. والغلو: التشديد في الدين ومجاوزة الحد، والتجافي: البعد عنه. قلت: لا سيما من أعرض عنه لكثرة النوم والبطالة والإقبال على الدنيا والشهوات، وما أقبح بحامل القرآن أن يتلفظ بأحكامه ولا يعمل بها، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، «وإكرام ذي» أي صاحب «السلطان» أي الملك والتسلط «المقسط» بضم الميم: أي العادل في حكمه بين رعيته^(١).

ومما يلحق بإكرام ذي الشبهة المسلم من باب أولى إكرام وإجلال الوالدين، ولا سيما حال كبرهما، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَلُغْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفِي وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، وكل ذي شبهة من الأرحام والأقارب.

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٤/ ٢٥).

كما يلحق بحامل القرآن علماء الأمة الربانيين، الذين هم على طريق أهل الاستقامة غير الغالين ولا الجافين، فينبغي توقيرهم وإجلالهم وإكرامهم، وهذا من تعظيم الله وإجلاله وتوقيره سبحانه. أخرج ابن عساكر عن عمار بن أبي عمار: أن زيد من ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ركب يوماً فأخذ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بركابه، فقال: تنح يا ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا، فقال زيد: أرني يدك. فأخرج يده فقبلها، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا^(١).

المظهر الرابع عشر: الغيرة على الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إن المعظم لربه سبحانه لا يقر له قرار، وهو يرى حرمان الله عَزَّجَلَّ تنتهك وحدوده تضاع، إذ إن من علامة صدق العبد في تعظيمه لربه الغيرة على دين الله عَزَّجَلَّ، والأمر بما أمر الله به سبحانه من المعروف، والنهي عما نهى الله عَزَّجَلَّ من المنكر، وكلما ضعف تعظيم العبد لربه ضعفت هذه الغيرة في قلبه والعكس بالعكس، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن علامات تعظيم النهي أن يغضب لله عَزَّجَلَّ إذا انتهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزناً وحسرة إذا عصي

(١) تاريخ دمشق (١٩/٣٢٦).

الله تعالى في أرضه، ولم يضطلع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك»^(١).

ويقول في موطن آخر: «وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع، ودينه يترك وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرس.... وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم، وبلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل»^(٢).

والمجتمع المعظم لله تعالى يتحرك أهله للدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الفساد ونشر الخير بين الناس.

ومما يلحق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الجهاد في سبيل الله عَزَّجَلَّ، والتضحية في سبيل ذلك بالمال والنفس، فكلما امتلأ قلب العبد من محبته لربه وتعظيمه، كلما هان عليه ما يلاقيه في سبيل الدعوة إليه سبحانه والجهاد في سبيله.

وبعد:

(١) الوابل الصيب (ص ٢٤).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٧٧)، دار الجيل، ت: طه سعد.

فهذه بعض المظاهر والعلامات التي تدل على تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ،
نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يملأ قلوبنا من محبته وتعظيمه وخشيته ورجائه،
وأن يظهر ذلك في أقوالنا وأعمالنا وأحوالنا.

ويحسن بنا في ختام هذا الفصل ذكر بعض مظاهر تعظيم
الله عَزَّوَجَلَّ عند العوالم الأخرى من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ سوى الإنسان،
ليظهر لنا أن كل ما في السموات والأرض من المخلوقات خاضع
لله عَزَّوَجَلَّ، منقاد له سبحانه تعظيماً وإجلالاً.

أولاً: تعظيم الملائكة لله عَزَّوَجَلَّ.

وهم من أشد مخلوقات الله تعظيماً وتوقيراً، وإجلالاً ومحبة، ومما
يدل على ذلك:

(١) إيمان الملائكة بالله تعالى، واستغفارهم للمؤمنين، قال تعالى:
﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]، ويقولون بالله أنه
لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته،
﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يقول: ويسألون ربهم أن يغفر للذين
أقروا بمثل إقرارهم من توحيد الله، والبراءة من كل معبود سواه -
ذنوبهم، فيعفوها عنهم^(١)، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن

(١) تفسير الطبري (٣٥٤ / ٢١).

يدعو للمؤمنين بظهر الغيب^(١)، كما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملك: ولك بمثل»^(٢).

فهم يستغفرون لمن في الأرض تعظيماً وطاعة لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

(٢) عبادة الملائكة لله تعالى: تعظيماً له سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، قال القرطبي رحمه الله: «ويسبحونه: أي ويعظمونه وينزهونه عن كل سوء، وله يسجدون، قيل: يصلون»^(٣)، كما وصف الله تعالى الملائكة أنهم عباد مكرمون، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٦٦) لَا يَسْخَرُونَ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِئِهِ يَعْمَلُونَ ﴿[الأنبياء: ٢٦، ٢٧].

ومن عبادة الملائكة السجود لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، خص الله الملائكة بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، حيث سجد جميع الملائكة طاعة وتعظيماً له سبحانه.

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٣٠).

(٢) مسلم (٧١٠٣).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٣١١).

٣) لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، تعظيماً لله تعالى، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، قال ابن كثير: «مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله، ليس بهم عجز عنه»^(١)، فالملائكة تفعل ذلك طاعة وتعظيماً لله تعالى.

٤) شهادة الملائكة بوحدانية الله تعالى، تعظيماً وإجلالاً وتوقيراً له سبحانه، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فالملائكة تشهد شهادة حق أنه سبحانه واحد أحد، لا إله غيره في هذا الكون يستحق التعظيم.

٥) شهادة الملائكة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، قال أبو حيان: «والملائكة يشهدون: أي بما أنزل الله إليك، وشهادة الملائكة تبع لشهادة الله، وقد علم بشهادة الله له، إذ أظهر على يديه المعجزات، وهذا على سبيل التسلية له عن تكذيب اليهود»^(٢)، فالملائكة تشهد شهادة حق بعد شهادة الله تعالى بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه في دعوته، وهذه الشهادة من الملائكة تأتي تعظيماً لله تعالى.

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٨).

(٢) البحر المحیط (٤/ ١٤١).

٦) لا تنزل الملائكة إلا بإذن الله، تعظيماً لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا» قال: فنزلت^(١)، ومن هذا النزول تبليغ رسالة الله إلى الأنبياء انقياداً وطاعة وتعظيماً لله تعالى.

٧) كثرة تسبيح الملائكة، تعظيماً لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر عن الملائكة أنهم محققون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور»^(٢).

٨) خوف الملائكة من الله تعالى تعظيماً له سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣]، فتسبح الملائكة خوفاً وخشية وتعظيماً لله تعالى، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يخاف هؤلاء الملائكة التي في السموات، وما في الأرض من دابة- ربهم من فوقهم، أن يعذبهم إن عصوا أمره، ويفعلون

(١) البخاري (٤٧٠٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١٢٥/٧).

ما يؤمرون، يقول: ويفعلون ما أمرهم الله به، فيؤدون حقوقه، ويجتنبون سخطه»^(١).

ثانياً: تعظيم الجن لله عَزَّجَلَّ:

(١) تعظيم طائفة من الجن لكلام ربنا جَلَّوَعَلَا، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ١-٣]، هذه الآيات من سورة الجن، تبين أنه استمع جماعة من الجن للقرآن الكريم، فاعترفوا بأنه الحق والصواب، فآمنوا به وصدقوه وعظموه، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: «تعلت عظمة ربنا وقدرته وسلطانه»^(٢)، فعلمت الجن من عظمة الله تعالى، ما دلهم على قدرته ووحدانيته سبحانه.

فهذه الطائفة المؤمنة من الجن، اعترفت بأن هذا القرآن من عند الله تعالى، وأنه كلام عظيم، يدل على عظيم، وهو الله سبحانه، ومن هذه العظمة أنه ليس له شريك في الملك، وأن صفاته كاملة.

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٢٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٤٧).

(٢) دعوة طائفة من الجن قومهم إلى الإيمان بالله تعالى، قال تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِكم مِّنْ عَذَابِ الْعِمْ ﴿٣١﴾ وَمَن لَا يُحِب دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

هذه الآيات من سورة الأحقاف، جاءت تبين تأثر طائفة من الجن بالقرآن الكريم، وتعظيمهم لله تعالى، مما دفعهم إلى دعوة قومهم إلى الإيمان به وتصديقه واتباعه، والسير على الطريق المستقيم، والتحذير من الوقوع في الضلال.

ثالثاً: تعظيم النباتات لله عزَّجَلَّ:

(١) سجود النبات لله تعالى، بين الله تعالى في أكثر من آية سجود

الشجر تعظيماً لله سبحانه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ، مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فسجود هذه المخلوقات ومن ضمنها الشجر، هي عبادة لخالقها، لا نفقها عنها كما لا نفقه تسبيحها.

(٢) تسبيح النباتات لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فما من شجر أو نبات أو جماد إلا يسبح بحمد الله، ولكن لا نفهم تسبيحها، وهذا التسبيح فيه تعظيم لله تعالى، قال ابن كثير: «أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم، وهذا عام في الحيوانات، والنبات والجماد»^(١).

رابعاً: تعظيم الطير لله تعالى.

فجميع المخلوقات تعظم الله تعالى، والطير مخلوق من مخلوقات الله، يطير بنظام دقيق في هذا الكون، تحت إرادة الله تعالى وعلمه، فما يطير من طائر إلا بقدره الله وعظمته سبحانه، ومن دلائل تعظيم الطير لله تعالى:

(١) التسبيح والصلاة لله سبحانه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، قال الطبري رحمه الله: «كل مصل منهم ومسيح قد علم الله صلاته وتسبيحه»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٧٩).

(٢) تفسير الطبري (١٩/ ٢٠٠).

فالطير تسبح الله تعظيماً له سبحانه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، قال البغوي رَحِمَهُ اللهُ: «وسخرنا الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح، قال ابن عباس: كان يفهم تسبيح الحجر والشجر، قال وهب: كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير»^(١).

(٢) دعوة الهدهد إلى الخير، وعبادة الله وحده تعظيماً له سبحانه، وهذا واضح من قصة الهدهد مع نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، لقد أكرم الله تعالى نبيه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعلم والحكمة، وأعطى ملكاً عظيماً، وعلم منطق الحيوانات والطير، حيث تفقد الطير يوماً فلم يجد الهدهد، وتوعد له بالعقاب، فلما جاء الهدهد، برر الهدهد سبب غيابه، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤]، أصاب الهدهد الحسرة على هؤلاء القوم الذين لا يعظمون الله، ويسجدون لغير الله، فقال الهدهد: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

(١) البغوي (٥/ ٣٣٤).

قال الزحيلي: «فقول الهدهد: ألا يسجدوا لله، وقوله: الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، دليل على أنه داع إلى الخير، وعبادة الله والسجود له»^(١)، ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب، صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبأ، فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض، وأنه هو رب العرش العظيم^(٢)، وهذا فيه دلالة واضحة على تعظيم الهدهد لله تعالى، مما جعله يتحرك إلى إنكار ما هم عليه من عبادة الشمس من دون الله، ودعوة نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَام إلى إظهار الحق.

خامسًا: تعظيم الجهادات لله تعالى:

(١) سجود الجهادات لله تعالى: ما من شيء في هذا الكون إلا وهو خاضع لعظمة الجبار سبحانه، متذلّل لسطوته وسلطانه، فجميع ما في هذا الكون من السموات والأرض والقمر والنجوم والشجر يخضع لعظمة الله تعالى ويذلّ له، ومن هذه العظمة أنها تسجد لخالقها، سجدًا يليق به سبحانه، ولكننا لا

(١) التفسير المنير (١٩/ ٢٨٩).

(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٣٩).

نفقه ذلك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

(٢) تسبيح السموات والأرض: قال تعالى: ﴿سُبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن السموات السبع والأرض ومن فيهن يسبح تعظيماً له سبحانه.

(٣) تسبيح الرعد: لقد أخبر الله تعالى أن الرعد تسبح تعظيماً له سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣]، قال الطبري رحمه الله: «ويعظم الله الرعد ويمجده، فيثني عليه بصفاته، وينزهه مما أضاف إليه أهل الشرك به، ومما وصفوه به من اتخاذ صاحبة والولد، تعالى ربنا وتقدس»^(١)، ويسبح الرعد بحمده انقياده لقدرته وحكمته، وإعلاناً لخضوعه له.

(٤) تسبيح الجبال: لقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن الجبال تسبح تعظيماً له سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ، يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، إنه تعالى سخر الجبال يسبحن مع داود عَلَيْهِ السَّلَام، كما قال تعالى: ﴿يَجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ، وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠].

(١) تفسير الطبري (١٦ / ٣٩٠).

(٥) خشية الجهادات لله تعالى: جميع ما في هذا الكون يخضع ويذل لعظمة الله تعالى، ومن الخضوع أنها تخشع تعظيماً لله تعالى، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] (١).

(١) انظر: كتاب (المنهج القرآني في تعظيم الله تعالى) د. عقاب الزعبي (ص ٢٣٠-٢٥٤) باختصار شديد.

الفصل الرابع

من ثمرات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

من ثمرات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

إنه متى امتلأ القلب من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته، فإنه يثمر في حياة المؤمن وأحواله ثماراً عظيمة يجدها في قلبه، وتظهر على لسانه وجوارحه في الدنيا، كما تظهر هذه الثمار في ما يناله من الثواب العظيم يوم القيامة، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين.

وقد يدخل بعض علامات التعظيم ومظاهره التي سبق ذكرها في الفصل السابق في الثمرات، ويصعب الفصل بينهما؛ ولهذا فسأكتفي هنا بما لم أذكره في الفصل السابق ولا سيما تلك الثمار التي تمس أعمال القلوب وأحوال المؤمن الإيمانية والنفسية.

الثمرة الأولى: قوة الإيمان واليقين وتحقيق التوحيد:

إنه متى امتلأ القلب من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله والتذلل له، كلما قوي الإيمان واليقين ووجه العبد وجهته ومحبته وعبوديته لله تعالى لا شريك له ولا ند له، ويتخلص ويتبرأ من الشرك صغيره وكبيره، ولا أدل على ذلك من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن تبعهم من الأولياء والصالحين، فكل قصصهم ومواقفهم يظهر فيها قوة

إيمانهم ويقينهم بالله عَزَّجَلَّ النابعة من غاية تعظيمهم لله تعالى، وغاية حبهم له سبحانه، والمتدبر في سيرهم في كتاب الله عَزَّجَلَّ يرى عظم صبرهم وشجاعتهم وثباتهم وتوكلهم على الله عَزَّجَلَّ، واستهانتهم لما لا قوه من الأذى والابتلاء وتحديهم لأقوامهم، وما ذاك إلا من قوة إيمانهم ويقينهم، التي أثمرتها معرفتهم بالله عَزَّجَلَّ وبأسمائه الحسنى وصفاته العلاء، التي ملأت قلوبهم تعظيماً له سبحانه ومحبة و يقيناً.

إن الإيمان ليس مجرد المعرفة والإقرار والتصديق، بل لا بد معها من تعظيم الله تعالى ومحبته والإخلاص له، والمعرفة التي هي إيمان هي معرفة تعظيم الله وإجلاله وهيئته ومعرفة محبة وإخلاص لله تعالى، وبدون ذلك فهي معرفة لا تنفع صاحبها، ولا تدخله في الإيمان.

الثمرة الثانية: محبة الله عَزَّجَلَّ وتقديم محابه سبحانه على جميع المحاب.

إن معرفة الله عَزَّجَلَّ بأنه العظيم الذي يستحق التعظيم من جميع الوجوه، فهو العظيم في ذاته، العظيم في أسمائه وصفاته، عظيم العفو والرحمة، وعظيم الغنى والجود والبر والكرم، عظيم القوة والعزة والقدرة، عظيم في حكمته وفضله وعدله، إن من له هذه الصفات العظيمة جدير بأن يحب الحب كله، وأن تكون جميع المحبوبات المخلوقة تبعاً لمحبه متأخرة عنها. فالمعظم لربه تعالى لو تعارضت محبة الله عَزَّجَلَّ عنده مع ما سواه من المحاب قدم محبة الله عليها، ولو

تعارضت طاعة الله عَزَّجَلَّ مع طاعة غيره قدم طاعة الله عَزَّجَلَّ ومرضاته على طاعة من سواه ولو سخطوا، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، ولقد أحسن من قال:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبينني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب^(١)

والمحب الصادق يميل إلى ما يوافق محبوه، ولا يقدم على محابه شيئاً من المحبوبات، ولم يعظم الله عَزَّجَلَّ من قدم حب غيره ومحابه على حب الله عَزَّجَلَّ ومحبوباته، أو من قدم طاعة المخلوق على طاعته، أو من قدم قول المخلوق على قوله عَزَّجَلَّ.

الثمرة الثالثة: خشيته سبحانه والخوف منه وحده.

إن من عرف الله عَزَّجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا عرف عظمته سبحانه في قدرته وانتقامه وعقوبته وسعة سمعه وعلمه وبصره لكل المسموعات وكل المبصرات، وكل ما تكنه الضمائر والصدور، وإن هذه المعارف الجليلة لا بد أن تثمر في القلوب والأبدان خشية

الله عَزَّوَجَلَّ والخوف منه سبحانه والوجل من عقابه عند عصيانه، وذلك بما ينتقم به سبحانه ممن عصاه في الدنيا أو في الآخرة. وكلما كان العبد بالله أعرف كان الله أخشى وأخوف، كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ أَتَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا»^(١)، وها هم ملائكة الله الكرام عليهم الصلاة والسلام لما كانوا أقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأعرف المخلوقات بالله سبحانه وعظمة أوصافه، كانوا أخشى لله تعالى وأخوف من غيرهم من المخلوقات على عظم خلقهم وشدة قوتهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصفهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتُ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، وقال سبحانه عن شدة خوفهم وخشيتهم لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقد فرق بعض أهل العلم بين الخوف والخشية، فقالوا: إن الخشية هي خوف مصحوب بتعظيم وإجلال، وهذا لا يكون إلا لله تعالى، قال سبحانه: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهْ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، وأما الخوف فالغالب أنه بلا تعظيم للمخوف

(١) البخاري (٢٠).

كالخوف من الحيوان المفترس والحية والعقرب والعدو الصائل، فكل هذا من الخوف الفطري الجبلي الذي لا يؤاخذ فاعله، فإذا كان معه تعظيم وتوقير فإنه يتحول إلى خشية، وحينئذ يكون فيه نوع من العبودية للمخوف، ومثل هذا يؤاخذ العبد عليه، وقد يصل بصاحبه إلى الكفر والشرك، إذا آل ذلك إلى عبادة غير الله خوفاً وتعظيماً، وقد يكون محرماً إذا كان سبباً في فعل المحرمات وترك الواجبات.

ومن خوف الله عَزَّجَلَّ الذي يثمره تعظيمه سبحانه الخوف منه سبحانه في الغيب والسر، كما وصف الله سبحانه عباده المؤمنين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ أَلْسَاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ بَشْيَءٍ مِّنَ الصِّدِّ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤].

ومن ذلك دعاؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتِكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»^(١).

فمن عظم غير الله عَزَّجَلَّ حتى خافه خوف السر والغيب فقد أشرك بالله عَزَّجَلَّ، لأنه اعتقد في المخلوق أنه يراه ويسمعه ويعلم سره ولو كان غائباً عنه، وهذا لا يكون إلا لله عَزَّجَلَّ.

وحقيقة الخشية من الله عَزَّجَلَّ وكمالها أن يترك العبد محارم الله عَزَّجَلَّ، ويأتمر بأوامره محبة وتعظيماً له سبحانه لا عن رغبة ورهبة

(١) النسائي (١٣٠٥)، وصححه الألباني في المشكاة (٢٤٩٧).

فحسب، ولا عن تقليد وعادة تعود عليها العبد، يعملها كل يوم دون استشعار لعظمة المعبود وجلاله ومحبته.

الثمرة الرابعة: الهيبة والحياء منه سبحانه.

الحياء خلق عظيم، يبعثه معرفة الله عَزَّجَلَّ بأسمائه الحسنی وصفاته العلا، ومن أبرز هذه الأسماء اسمه سبحانه العظيم والكريم، والبر، والرحيم، واللطيف، والغفور، والمنان والودود، والوهاب والعليم، والسميع والبصير، فبقدر ما تتمكن هذه الأسماء وأمثالها من قلب العبد، إلا وتظهر آثارها على أحواله وأخلاقه وسمته وهديه، ومن أبرز هذه الأخلاق خلق الحياء من الله عَزَّجَلَّ العظيم الحليم الرحيم الودود السميع البصير، فيستحي العبد من ربه الذي له هذه الصفات ويهابه، ومثل هذا الحياء هو الذي يحجز العبد عن الآثام الباطنة والظاهرة. ويجعله ساعياً في مرضاة الله وطاعته، والحياء ثمرة من ثمار التعظيم والمحبة لله عَزَّجَلَّ.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «استحيوا من الله حق الحياء» قال قلنا: يا نبي الله إنا لنستحي والحمد لله، قال: «ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء، أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»^(١).

(١) الترمذي (٢٤٥٨)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٣٨).

ويقول الإمام محمد بن نصر المروزي في كتابه تعظيم قدر الصلاة: «إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله والهيبه له، فغلب على قلبه ذكر اطلاع الله العظيم ونظره بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه، وذكر المقام غدا بين يديه وسؤاله إياه عن جميع أعمال قلبه وجوارحه، وذكر دوام إحسانه إليه وقلة الشكر منه لربه، فإذا غلب ذكر هذه الأمور على قلبه هاج منه الحياء من الله، فاستحى من الله أن يطلع على قلبه، وهو معتقد لشيء مما يكره أو على جارحة من جوارحه تتحرك بما يكره، فطهر قلبه من كل معصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه»^(١).

ثم ساق بسنده بعض الآثار في الحياء من الله عز وجل منها:

- عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: «افش السلام، وابذل الطعام، واستحي من الله استحياءك رجلاً من أهلِكَ، وإذا أسأت فأحسن، ولتحسن خلقك ما استطعت»^(٢).
- وعن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي. قَالَ: «أوصيك أن تستحي من الله كما تستحي رجلاً صالحاً من قومك»^(٣).

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢/٨٢٦).

(٢) تعظيم قدر الصلاة (٢/٨٢٦).

(٣) تعظيم قدر الصلاة (٢/٨٢٨)، ورواه البزار (٧/٨٩ رقم ٢٦٤٢).

• قال أبو عبدالله: «ألست ترى أن الإنسان إذا علم أن رجلاً صالحاً ينظر إليه أو يسمع كلامه، أمسك عن كل ما يخاف أن يمقته عليه أو يضع من قدره عنده، ولو علم أنه يطلع على ما في ضميره لما أضمر إلا على ما يعلم أنه يحسنه عنده ويحمله، وكذلك يستحي من الرجل الصالح من كل نقص في فضل»^(١).

• ولما حضرت الأسود بن يزيد الوفاة بكى، ف قيل له: «ما هذا الجزع؟! قال: مالي لا أجزع، ومن أحق بذلك مني، والله لو أتيت بالمغفرة من الله عَزَّجَلَّ لَهمني الحياء منه مما قد صنعته، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يزال مستحيًا منه»^(٢).

• وقال بعض السلف: «خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي من الله على قدر قربه منك»^(٣). وهنا كلام نفيس للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في مفهوم الكبيرة والصغيرة من الذنوب، قال رَحِمَهُ اللهُ: «وها هنا أمرٌ ينبغي التفطن له، وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف، والاستعظام لها ما

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢/٨٢٨).

(٢) حلية الأولياء (٢/١٠٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/٣٦).

يلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر. بل يجعلها في أعلى المراتب، وهذا أمرٌ مرجعه إلى ما يقوم بالقلب. وهو قدر زائد على مجرد الفعل. والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره»^(١).

• ويقول في موطن آخر: «الصبر على المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنيا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره. وهذا السبب يحمل العاقل على تركها، ولو لم يعلق عليها وعيد العذاب.

السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه، وأنه بمرأى منه ومسمع، وكان حيياً استحي من ربه أن يتعرض لمساخطه...»^(٢).

ثم ذكر بعدها أسباباً أخرى، أكتفي بما نقلته هنا لمناسبته لموضوع الحياء من الله عزَّجَلَّ.

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢٨).

(٢) طريق المهجرتين (١/ ٤٠٨).

فلا عظم الله عَزَّجَلَّ من لم يستحي من الله عَزَّجَلَّ في خلواته،
لأنه على قدر تعظيم الله في القلب يكون الخوف والحياء منه
سبحانه، فمن هان عليه أمر الله فعصاه وهان عليه نهيه فارتكبه،
واستخف بنظر الله واطلاعه عليه وهو في قبضته، وراقب
المخلوق أكثر من مراقبة الخالق، فإن هذا يدل على قلة حياته
من ربه، الناشئ من ضعف تعظيمه له سبحانه، قال الله عَزَّجَلَّ:
﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى
مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، ولا يعني أن أولياء
الله المعظمين له سبحانه لا يذنبون. كلا، ولكنهم كما قال الله عَزَّجَلَّ
عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ
مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فهم لا يصرون على المعصية، بل يبادرون
إلى التوبة منها، ويشعرون بالألم والحزن، وكأن فوقهم جبلاً يخشون
سقوطه عليهم، وأما العبد المستخف بعظمة ربه واطلاعه، فإنه ينظر
إلى المعصية وكأنها ذباب وقع على أنفه فأزاله بيده، وكلما ضعف
تعظيم الله في القلب قل الحياء منه سبحانه، حتى يصل بصاحبه إلى
المجاهرة بالمعصية والتباهي بها، وهذا غاية الوقاحة والخذلان وعدم
الحياء من الله عَزَّجَلَّ أو من خلقه.

الثمرة الخامسة: التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ وحسن الظن به سبحانه والثبت أمام الشدائد.

ويكفي في التدليل على هذه الثمرة خمس آيات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، يتبين لنا فيها أثر معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه في قوة التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، وحسن الظن به والثقة في كفايته، وذلك مما قصه الله عَزَّوَجَلَّ عن أنبيائه ورسله، وقوة توكلهم عليه سبحانه، وتحذيرهم لأقوامهم وتهديداتهم.

الآية الأولى: ثناؤه سبحانه على نبيه ورسوله نوح عَلَيْهِ السَّلَام بقوله سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

الآية الثانية: ثناؤه سبحانه على نبيه ورسوله هود عَلَيْهِ السَّلَام بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

الآية الثالثة: قوله عن خليفه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في حاجته لقومه: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجِجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَنْتَنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

ومن عظيم توكله على ربه سبحانه أن واجههم وحطم أصنامهم،
وهو واحد وهم كثير، وحاولوا إحراقه بإلقائه في النار المسعرة، فنجاه الله
منها بصدق توكله على ربه سبحانه، وعظيم محبته وتعظيمه وإخلاصه
لربه سبحانه، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾
﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾
[الأنبياء: ٦٨-٧٠]، روى البخاري بسنده إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:
«حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أُلقي في النار. وقالها
محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ
إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾» [آل عمران: ١٧٣] ^(١).

الآية الرابعة: قوله عن نبيه ورسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما هدد
فرعون قومه وخوفهم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ
كُنْتُمْ مُتَسَلِّمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

الآية الخامسة: ثناؤه على نبيه ورسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله:
﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ
وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ [الأعراف: ١٩٥، ١٩٦]، وثباته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار

(١) البخاري (٤٥٦٣).

وفي جميع الشدائد، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا

اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

والتوكل على الله عَزَّجَلَّ يقوم على أمرين: غاية الاعتماد مع غاية الثقة. وعندما يمتلأ قلب المؤمن من عظمة الله عَزَّجَلَّ وعظمة قدرته وقوته، وكفايته يحصل الاعتماد التام على من هذه صفاته، فإذا اقترن هذا التعظيم بعظمة رحمته وبره ولطفه وإحسانه حصل غاية الثقة من توفيق الله وعونه ومدده. ومن غاية الاعتماد وغاية الثقة بتحقيق التوكل على الله عَزَّجَلَّ، والتوكل الصادق على الله عَزَّجَلَّ ينشأ عنه أيضاً حسن الظن بالله عَزَّجَلَّ واليقين بنصره وكفايته.

وسقوط عظمة المخلوق وخشيته، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وهذا يثمر الثبات على الحق وعدم اضطراب صاحبه أمام الشدائد والتهديد، وقد سبق ذكر نماذج من أنبياء الله عَزَّجَلَّ في ثباتهم على الحق وعدم المبالاة بتهديد أعدائهم وإرهابهم. ويحسن التذكير هنا بنموذج من نماذج الثبات على الحق بعد أن امتلأ القلب بتعظيم الله عَزَّجَلَّ وإجلاله ومحبته، ألا وهو ثبات سحرة فرعون وسجودهم لله عَزَّجَلَّ بعدما ظهر لهم الحق وعرفوا الله عَزَّجَلَّ وعظموه وأحبوه، وجردوا خوفهم ورجاءهم فيه سبحانه، فاستعلوا على تهديدات فرعون الطاغية لهم بقتلهم وتقطيع أيديهم

وأرجلهم من خلاف وصلبهم، فقالوا قولتهم العظيمة التي خلدها الله عَزَّجَلَّ عنهم، وجعلهم أسوة لمن بعدهم في الصدع بالحق والثبات عليه، قال الله عَزَّجَلَّ بعد تهديد فرعون لهم: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢) ﴿إِنَّا أَمْنَا بِرَبِّنَا لِيُغْفَرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة»^(١).

كما أن حسن الظن بالله عَزَّجَلَّ يثمر في قلب المؤمن المعظم لربه المحب له الصبر والرضا بما يكتبه ويقدره سبحانه على عبده من المكروهات، حيث إن حسن الظن بالله عَزَّجَلَّ يجعله يرى فيما يقضيه الله عَزَّجَلَّ من المكروهات رحمة وخيراً للعبد المؤمن، فظاهرها مكروه ومزعج، ولكن في أعطافها الرحمة والخير والإحسان. وهذا مصداق قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير. وليس ذلك إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٣٠٣/٥).

(٢) مسلم (٥٣١٨).

كما أن تعظيم العبد لربه فيما يقضيه من أحكامه القدرية وحسن ظنه به سبحانه، يجعله يعود باللائمة في نزول البلاء على نفسه، ويعلم أنه الظالم لنفسه، المستحق للعقوبة على ذنوبه، وأن الله عَزَّجَلَّ منزه عن الظلم والعبث، وأن هذا من رحمة الله به حتى يتدارك أمره، ويصلح شأنه ويتوب إلى ربه.

الثمرة السادسة: الطمأنينة والسكينة والسعادة وذوق حلاوة العبادة والنشاط لها.

وذلك حينما يمتلأ القلب من تعظيم الله عَزَّجَلَّ، فيطمئن إلى ربه وتتوحد وجهته إليه، فيسلم من الحيرة والاضطراب والقلق الذي يصيب من ضعف تعظيم الله في قلبه، وحل فيه من الشركاء المتشاكسون من يعظمهم ويخافهم ويرجوهم ولا يدري من يرضي منهم، فأصبح مشتت القلب وكان أمره فرطاً، وقد ضرب الله عَزَّجَلَّ مثلاً لمن أسلم وجهه لله وحده تعظيماً ومحبة وخوفاً ورجاء، ومثلاً لمن أسلم وجهه وقلبه لشركاء من دون الله عَزَّجَلَّ. فقال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، قال سيد قطب رحمه الله عند هذه الآية: «يضرب الله المثل للعبد الموحّد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه، وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه

توجيهه، ولكل منهم عليه تكليف؛ وهو بينهم حائر، لا يستقر على نهج، ولا يستقيم على طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة، التي تمزق اتجاهاته وقواه!

وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح (هل يستويان مثلاً؟) .. إنها لا يستويان... ويعقب على هذا المثل الناطق الموحى بالحمد لله رب العالمين، الذي اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار، وهم مع هذا ينحرفون وأكثرهم لا يعلمون»^(١).

إذن فإن تعظيم الله عَزَّجَلَّ والتسليم له محبة وخوفاً ورجاءً، يثمر في القلب حلاوة ولذة وأنساً، قد حرم منها من أعرض عن ربه سبحانه، ولم يقدره حق قدره، حيث يرحل من هذه الحياة وما ذاق حلاوة الإيمان فيها، وما شعر بقيمة الحياة فيها. وامتلاء القلب من تعظيم الله تعالى ومحبته والتذلل له يكسب العبد همة ونشاطاً للعبادة، وشعوراً بلذة أدائها وحلاوتها، وهذه عاجل بشرى المؤمن، حيث يدخله جنة الدنيا قبل جنة الآخرة. وجنة الدنيا هي السعادة القلبية واللذة الروحية والطمأنينة النفسية. وعن هذه الحياة يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فاحرص أن يكون همك واحداً، وأن يكون هو الله وحده، فهذا غاية سعادة العبد، وصاحب هذه الحال في جنة معجلة قبل جنة الآخرة،

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٤٩ - ٣٠٥٠).

وفي نعيم معجل كما قال بعض الواجدین: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا: إنهم لفي عيش طيب. وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم أهل الجنة إلا هذا»^(١).

وتعظيم الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يعطي العبادة روحها وجلالها ولذتها، وهو الذي يجعلها عبادة مقبولة خالصة صحيحة تامة الشروط والأركان، أما عبادة بلا تعظيم، فإنها كالجسد بلا روح، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الشئ على المحبوب المعظم فذلك حقيقة الحمد»^(٢).

الثمرة السابعة: رقة القلب وخشوعه وبكاء العين.

إنه متى ما امتلأ القلب من تعظيم الله عَزَّجَلَّ ومحبه وإجلاله، فإن ذلك يثمر وجلًا وانكسارًا ورقة في القلب، وخشوعًا في الجوارح، يظهر على العين ببكائها، وعلى اللسان باللهج بذكر الله تعالى، وعلى بقية الجوارح سكينه ووقارًا وبهاءً.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص ٣٠، ٣١). تحقيق: عبدالله المديفر.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٥).

سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿[الحج: ٣٤، ٣٥]، وقال سبحانه عن أوليائه وأحبابه المعظمين له: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الاسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقال سبحانه عن أثر عظمتة وعظمة كلامه على عباده المؤمنين: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِيَ نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يذكر السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم: «ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»^(١)، قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لهذا الحديث: «السابع: رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، فهذا رجل يخشى الله في سره ويراقبه في خلوته، وأفضل الأعمال خشية الله في السر والعلانية، وخشيته الله في السر إنها تصدر عن قوة إيمان ومجاهدة للنفس والهوى، فإن الهوى يدعو في الخلوة إلى المعاصي، ولهذا قيل: إن من أعز الأشياء الورع في الخلوة، وذكر الله يشمل ذكر عظمتة وبطشه وانتقامه وعقابه. والبكاء الناشئ عن هذا هو بكاء الخوف؛ ويشمل ذكر جماله وكماله

(١) انظر الحديث بتمامه في صحيح البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

وبره ولطفه وكرامته لأوليائه بأنواع البر والألطف، لا سيما رؤيته في الجنة، والبكاء الناشئ عن هذا هو بكاء الشوق، ويدخل فيه -أيضاً- رجل ذكر أن الله معه حيثما كان، فتذكر معيته وقربه واطلاعه عليه، حيث كان، يبكي حياء منه، وهو من نوع الخوف أيضاً^(١).

وأحوال السلف في بكائهم من عظمة الله تعالى وخشيته كثيرة ومتنوعة، سبق ذكر شيء منها في الفصول السابقة.

الثمرة الثامنة: محبة الله عَزَّجَلَّ للمعظمين له، ورحمته بهم، ونصرته لهم ورضاه عنهم.

إنه على قدر تعظيم العبد لربه سبحانه تكون رحمة الله عَزَّجَلَّ له الرحمة الخاصة، التي تتمثل في هدايته سبحانه وتوفيقه وتسديده ومعيته لعبده وتفريج كرباته، هذا في الدنيا وما أعده الله عَزَّجَلَّ لعباده المؤمنين المعظمين له من الرضوان وجنان النعيم أعظم وأكبر، وقد قص الله عَزَّجَلَّ في كتابه خبر أنبيائه المحبين والمعظمين له، الذين نالوا محبته ونصرته، وذلك كما في إنجائه سبحانه لخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام من النار وكفلق البحر لموسى عَلَيْهِ السَّلَام ونصرته سبحانه لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار، وفي جميع غزواته وأحواله حتى أكمل الله به الدين وأزال به الكفر والشرك.

(١) فتح الباري، لابن رجب (٦٣/٤).

الثمرة التاسعة: كسب محبة الناس وتقديرهم وإلقاء القبول بينهم.

وهذا من عاجل بشرى المؤمن المحب المعظم المجل لربه، حيث يجازى من جنس عمله، فيلقي الله عَزَّوَجَلَّ له المحبة والمهابة والتقدير بين الناس، كما يلقي له القبول والاستجابة بينهم، ومع أن المحب لربه والمخلص والمعظم له يكره الشهرة والظهور بين الناس، إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ يظهره، ويجعله إمامًا محبوبًا مقبولاً عند الناس، وهذا من ثمار تقواه ومحبته وتعظيمه لله عَزَّوَجَلَّ.

جاء في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه. فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: أن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»^(١).

الثمرة العاشرة: قبول الأعمال عند الله عَزَّوَجَلَّ بصلاح السريرة.

المعظم لربه سبحانه لا تجده إلا معظماً لشرعه، متبعاً منقاداً لنصوص الكتاب والسنة، معظماً لهما. كما أن تعظيمه ومحبته لربه سبحانه يأبى عليه أن يريد بعمله أحداً غير الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا جماع صلاح السريرة، لأن متابعة الشرع والإخلاص لله تعالى هما الشرطان اللذان عليهما مدار قبول الأعمال عند الله عَزَّوَجَلَّ، وبضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

(١) البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

في القلب يضعف الإخلاص وتضعف المتابعة، وبضعفهما تفسد السريرة، ويتخلف قبول العمل عند الله عَزَّجَلَّ، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، والمتقي هو من صلحت سريته، وامتلاً قلبه من محبة الله عَزَّجَلَّ وتعظيمه وخوفه ورجائه والإخلاص له والانقياد لشرعه.

الثمرة الحادية عشرة: دعاء الله عَزَّجَلَّ والتضرع والانكسار بين يديه.

إن الصادق في تعظيم ربه سبحانه لا تراه إلا منكسراً بين يدي ربه، متضرعاً له سبحانه، لاهجاً بذكره ودعائه، متبرئاً من الحول والقوة، سائلاً ربه أن يصلح له شأنه كله، وأن لا يكله إلى نفسه، ولا إلى أحد من خلقه طرفة عين، حتى لا يضيع ويهلك. والمتدبر لكلام الله عَزَّجَلَّ وما قص علينا فيه من أحوال أنبيائه ورسله وأوليائه يرى أنهم أكثر الناس دعاءً وانكساراً وتضرعاً لله عَزَّجَلَّ، وذلك لمعرفة العظيمة بالله عَزَّجَلَّ، التي أثمرت في القلوب تعظيماً وإجلالاً لربهم سبحانه، ظهرت آثاره في كثرة ذكرهم لله عَزَّجَلَّ ودعائهم وتضرعهم لله عَزَّجَلَّ. وأسوق فيما يأتي بعض الآيات من كتاب الله عَزَّجَلَّ الدالة على آثار تعظيم الله عَزَّجَلَّ في قلوب أنبيائه في كثرة دعائهم له سبحانه، لأنه لا يطلب قضاء الحاجات وتفريج الكربات وإقالة العثرات، إلا من العظيم الكبير: العظيم في رحمته، والعظيم في بره وإحسانه وجوده،

والعظيم في قدرته وقوته وعزته، والعظيم في علمه وحكمته، قال الله عزَّ وجلَّ عن خليله إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتضرعه في دعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣) ﴿وَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) ﴿وَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥) ﴿وَاعْفِرْ لِأَيَّتِي إِثْمًا، كَانَ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٩]، وقال عن نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ (١١٧) ﴿فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ، فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (١١٩) ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧-١٢٠]، وأخبر عنه أيضًا بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ، عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وأخبر عن دعاء نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥) ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦]، وأخبرنا سبحانه عن مجموعة من أنبيائه وسؤلهم له سبحانه في آخر سورة الأنبياء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ: أُنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ، وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (٨٤) ﴿وَلِسَمْعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ

إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ
نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ
الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ،
إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا
خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٣-٩٠]، فإذا جئنا إلى أدعية نبينا محمد ﷺ
وتضرعه إلى ربه رأينا في ذلك الأمثلة الصادقة، والنماذج العظيمة في
عبادته ﷺ، وانكساره وتضرعه وتذله لربه سبحانه.

ونظرة فاحصة سريعة لما ثبت عنه ﷺ من الأذكار
وجوامع الدعاء التي كان يواظب عليها ﷺ داخل الصلاة
وخارجها في أحوال اليوم والليلة، وفي غزواته وحله وترحاله، ترينا
ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، الذي ملأ قلبه ﷺ
لربه، والذي أثمر في حياته ﷺ تلك العبوديات العظيمة
والأدعية الجامعة الشرعية التي يدعو بها ربه سبحانه.

الثمرة الثانية عشرة: أمن الأسرة المسلمة وطمأنيتها وأمن المجتمع ورخاؤه.

إنه متى ما تحقق تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله وتعظيم حرَماته في
البيوت والأسر، فإن الطمأنينة والأمن النفسي والاستقرار الأسري
والترابط بين أفرادها، يسود في أجوائها، وتسلم مما يكون في البيوت،
التي لم يرب أهلها على تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم شعائره وحرَماته،

حيث تنتهك حرمان الله، ويسود الظلم والقلق وقطيعة الأرحام في كثير منها، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ومثل هذا يقال أيضاً في المجتمعات التي تعظم الله عَزَّجَلَّ، وتعظم شعائره وحدوده، وتعظم شريعته وتلتزم أحكامه فلا يحكم بين الناس إلا بها، ولا يتحاكم إلا إليها، ويرفض ما سواها. ومتى ما تحقق هذا فإن الأمن والتكافل والعدل والمحبة والترابط يعم أرجاء المجتمع، كما يعم الرخاء والعطاء المبارك من الله عَزَّجَلَّ. قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، والعكس بالعكس كما هو الحاصل اليوم في كثير من مجتمعات المسلمين، حيث فشو الظلم والحسد والتقاطع والتدابير.

الثمرة الثالثة عشرة: التجافي عن الدنيا والإنابة إلى الله والدار الآخرة.

إن من ثمرة تعظيم الله عَزَّجَلَّ في القلوب تعظيم ما عظمه الله سبحانه ومحبة ما أحبه والحذر والتجافي عن كل ما أهانه الله عَزَّجَلَّ وحذر منه، وإن مما عظمه الله عَزَّجَلَّ وفخمه اليوم الآخر والدار الآخرة، وما أعد فيها من النعيم المقيم والعذاب العظيم، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، ومما حذر منه سبحانه الدنيا وزخرفها والتنافس فيها وسماها متاع الغرور، وذلك

في قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، فالحاصل أن التعظيم الصادق لله تعالى، لا بد وأن يثمر في القلب هذه الثمرة العظيمة، حيث لا يركن من امتلاء قلبه من محبة الله تعالى وتعظيمه إلى هذه الدنيا الفانية، ولا يجعلها همه فلا مكان لها في قلبه، لأن الله حقرها وحذر منها، وإنما إنابته وهمته إلى الله عَزَّجَلَّ، وما رغب فيه سبحانه في الدار الآخرة ودعا إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرَفَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وقال سبحانه في وصف الحياة الدنيا والآخرة: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْقُونَ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

الفصل الخامس

الأسباب الجالبة لتعظيم الله عزَّجَلَّ

الأسباب الجالبة لتعظيم الله عَزَّجَلَّ

إن أعظم نعمة ينعم بها الله عَزَّجَلَّ على عبده المؤمن أن يرزقه سبحانه أعظم الرزق وأحسنه، ألا وهو الإيمان واليقين الناشئين من امتلاء القلب من تعظيم الله عَزَّجَلَّ وإجلاله ومحبته وخوفه ورجائه. وما فقد العبد شيئاً إذا ذاق طعم هذا الإيمان وحلاوته، وما وجد شيئاً من فقد هذا الرزق وحلاوته، ولذا لا جرم كان حقاً على العبد المؤمن الذي يحب لنفسه الخير والنعيم في الدنيا والآخرة أن يسعى جاهداً في الأخذ بالأسباب الشرعية، التي جعلها الله عَزَّجَلَّ باباً ووسيلة لتعظيمه سبحانه وإجلاله ومحبته وإخلاص العبودية له وحده لا شريك له.

ومن أهم هذه الأسباب:

السبب الأول: دعاء الله عَزَّجَلَّ وصدق الطلب منه سبحانه للفوز بهذه النعمة.

إن دعاء الله عَزَّجَلَّ والتضرع بين يديه وسؤاله وحده صدق الإيمان والتعظيم والمحبة له سبحانه، هو أعظم الأسباب في الفوز بهذه النعمة، لأن منة الإيمان واليقين الناشئين من معرفة الله عَزَّجَلَّ وتعظيمه ومحبته، لا يملكها إلا الله عَزَّجَلَّ، فهو الذي يقلب القلوب،

ويثبتها على الإيمان بفضله، ويزيغها إن شاء بعلمه وحكمته وعدله. ولا يملك ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل. لذا وجب سؤال هذه النعمة العظيمة من مالکها ومسديها سبحانه بصدق وإخلاص، والله عزَّجَل لا يرد دعاء من دعاه، وهو يعلم صدقه وإخلاصه في طلبه، قال الله عزَّجَل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، والمتدبر لأدعية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الواردة في القرآن الكريم، وكذلك جوامع الكلم في كثير من أدعية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليرى ذلك جلياً في أدعيتهم عليهم الصلاة والسلام، وأذكر هنا بعض هذه الأدعية على سبيل المثال لا الحصر:

- قول نوح عَلَيْهِ السَّلَام في دعائه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فهنا نوح عَلَيْهِ السَّلَام استعاذ بربه من سؤاله عزَّجَل بغير علم، وهذا من تعظيمه لربه سبحانه، ثم سأل ربه معظماً وخائفاً منه سبحانه أن يغفر له ما بدر منه من سؤاله ربه لابنه.
- قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

• تعظيم موسى عليه الصلاة والسلام لربه بعد أن تجلى لربه للجبل فجعله دكاً: ﴿وَحَرَّ مُوسَى صِعْقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ودعاؤه عليه الصلاة والسلام وتعظيمه لربه وخوفه منه يوم أخذت السبعين رجلاً من قومه الرجفة، فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦].

ومن جوامع أدعية نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله في دعائه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا»^(١).

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سلوا الله العافية واليقين في الآخرة والأولى»^(٢).

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا»^(٣).

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين»^(٤).

(١) الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٨٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٧٩٢)، وصححه الألباني في كتاب الإيمان لابن تيمية.

(٣) رواه الترمذي (٣٤٠٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٣٨)، والحاكم

(١/ ٦٨٨ رقم ٩٤)، وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٤) أحمد (١٥٤٩٢).

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم زيننا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»^(١).

والحاصل: أن دعاء الله عَزَّجَلَّ وسؤاله قوة الإيمان واليقين من أعظم الأسباب الجالبة لتعظيمه سبحانه في القلوب، نسأل الله عَزَّجَلَّ أن يملأ قلوبنا من تعظيمه وإجلاله ومحبته والخوف منه والرجاء في ثوابه وحسن الأدب معه عَزَّجَلَّ، كما نسأله سبحانه العافية واليقين، وأن يذيقنا طعم هذا التعظيم والإيمان واليقين.

السبب الثاني: العلم بالله عَزَّجَلَّ وأسمائه الحسنی وصفاته العلا وأثارها. يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن منزلة التعظيم: «هذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً»^(٢).

ومعرفة الله عَزَّجَلَّ لا تتم إلا بمعرفة أسمائه الحسنی وصفاته العلا سبحانه، كما أثبتتها لنفسه وأثبتها له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ثم التبعد له سبحانه بموجباتها من المحبة والتعظيم والإخلاص والخوف والرجاء وغيرها من أعمال القلوب.

(١) النسائي (١٣٠٥)، وحسنه الألباني.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٥).

يقول العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «إن الإنسان إذا سمع وصفاً وصف به خالق السموات والأرض نفسه، أو وصفه به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليملاً صدره من التعظيم، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال والشرف والعلو ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيكون القلب منزهاً معظمًا له جَلَّ وَعَلَا، غير متنجس بأقذار التشبيه...»^(١).

وقال بعض السلف: «من عرف الله أحبه على قدر معرفته به وخافه ورجاه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ولهج بذكره، واشتاق إلى لقائه، واستحيا منه، وأجله وعظمه على قدر معرفته به»^(٢).

ويقول السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء والعظمة والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع له والتذلل لكبريائه»^(٣).

والمقصود: أن تعظيم الله تعالى لا يكون إلا بعد معرفة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا وأفعاله الجليلة الجميلة.

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص ٣٦).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٣٩).

(٣) تفسير السعدي (ص ٩٤٦).

وعظمة الله عَزَّجَلَّ شاملة لجميع صفاته، وهي في ذروة الكمال والجلال، فهو عظيم في قدرته، وعظيم في حكمته، وعظيم في كبريائه، وعظيم في لطفه ورحمته، وعظيم في عزته وقوته وقهره، وقل ذلك في بقية أسمائه وصفاته. وأشد الناس تعظيماً لله تعالى أعرفهم به سبحانه، ولذا نرى أن الملائكة والنبين هم أشد تعظيماً وإجلالاً وخوفاً ومحبة من غيرهم. ومعرفة الأسماء الحسنى هي مدخل التعريف بالله رباً، وهي كذلك مدخل التعريف بالله إلهاً واحداً. كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، إن جماع توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية إنما ينشأ من إثبات الأسماء والصفات لله رب العالمين إثبات إيمان وتسليم من غير تحريف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تكييف، فهو تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ولذا كان أسعد الناس بتعظيم الله عَزَّجَلَّ هم أهل السنة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، حيث أثبتوا لله عَزَّجَلَّ ما أثبتته لنفسه، وأثبتته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات، وتعبدوا له سبحانه بها. وحرّم من هذه المعرفة من انحرف عن هذا المنهج من أهل البدع والتأويلات الباطلة والتعطيل والتشبيه، فضعف تعظيم الله في قلوبهم، وعاشوا في حيرة واضطراب.

والحاصل: أن من أعظم الوسائل التي تستجلب بها عظمة الله عَزَّجَلَّ، وتمكنها من القلوب معرفة أسمائه سبحانه الحسنی وصفاته العلا، ومعرفة معانيها وثمراتها، ودعاء الله عَزَّجَلَّ بها، والتعبد له سبحانه بها.

السبب الثالث: تدبر كتاب الله عَزَّجَلَّ.

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَانِ﴾ ﴿٢٩﴾ [ص: ٢٩].

إن من أعظم وسائل تعظيم الله تعالى في القلوب تدبر القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وإن التأمل في سور هذا الكتاب العظيم وفي آياته ليرى أنها تنطق بالتعظيم والتمجيد والتحميد والتسبيح لله عَزَّجَلَّ، كما يرى في مواطن أخرى آيات تظهر فيها عظمة الله عَزَّجَلَّ في خلقه وأمره وشرعه. ومن المواطن التي تثمر تعظيم الله عَزَّجَلَّ في النفوس في آيات الكتاب الكريم المواطن التالية:

الموطن الأول: تلكم السور التي افتتحها الله عَزَّجَلَّ بقوله سبحانه (الحمد لله) وكذلك السور التي افتتحها تعالى بقوله: (سبح لله)، (يسبح لله). ولا تكاد تخلو آية من آيات هذا الكتاب الكريم من ذكر

لاسم أو أكثر من أسماء الله الحسنى، التي تدل على عظمته سبحانه، وعظمة الوصف الذي تضمنته هذه الأسماء الحسنى، ولذا وصف الله عَزَّجَلَّ كتابه الكريم بالعظمة، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ثم ذكر بعد هذه الآية موجبات هذا الخشوع والتصدع من الحجارة الصماء، فقال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٣) ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وإذا تدبر المسلم هذه الآيات المتضمنة لذكر أسماء الله الحسنى وفهم معانيها، فإنها تثمر في القلب تعظيمه سبحانه وإجلاله، كما ذكر ذلك في الوسيلة السابقة. وهذا لا يتأتى إلا من تدبر آيات القرآن الكريم.

الموطن الثاني: تلك المواطن من كتاب الله عَزَّجَلَّ التي ينبهنا الله عَزَّجَلَّ فيها على خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وعجائبه، وما في ذلك من عظيم صنع الله عَزَّجَلَّ ودقته ونظامه وحكمته ولطفه وإحسانه وقدرته وعزته ورحمته، والآيات التي يأمرنا الله عَزَّجَلَّ فيها بالتفكير في خلق الكون والأنفس كثيرة، وهي بلا شك تنمي عظمة

الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله ومحبته وخوفه ورجاءه في القلوب، لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقوله سبحانه: ﴿سَرِّبْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، والوقوف على عظمة خلق هذه المخلوقات، تدل على عظمة الخالق لهذه المخلوقات وكمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته ولطفه وقهره، فكلما أدمن العبد الفكر في هذه المخلوقات في الآفاق وفي الأنفس، وما فيها من العظمة والحكمة والقوة والقدرة، أحدث هذا في قلبه تعظيماً واجلالاً ومحبة لله عَزَّوَجَلَّ، ولا سيما إذا استحضرنا أن هذه المخلوقات العظيمة خاضعة ذليلة منقادة لربها سبحانه، وقد مر بنا في فصل سابق ذكر شيء من هذه الآيات في الآفاق والأنفس، ولولا خشية الإطالة لنقلت ما ذكره أهل العلم في القديم والحديث عن تفاصيل آيات الله عَزَّوَجَلَّ في الآفاق والأنفس، وما فيها من العظمة والدقة والحكمة والقدرة، ولكنني أكتفي هنا بالإحالة إلى الكتاب النفيس للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، والمسمى (مفتاح دار السعادة)، ففيه البغية للمستزيد.

وكم هي الآيات العظيمة التي يدلنا الله عَزَّوَجَلَّ عليها في كتابه الكريم، مما يملأ القلب رهبة وتعظيماً وإجلالاً له سبحانه، ولكن تكرار ذلك أمام الحس والنظر جعلها مألوفة، فتعطل أو قل التفكير والتأمل في كونها آيات عظيمة، توقف الحس، وتملأ القلب رهبة وتعظيماً لخالقها سبحانه، ولكن ما إن ينتقل الحس من إلف العادة والتكرار إلى التفكير الجاد في هذه الآيات العظيمة حتى يكون له شأن آخر.

يصف الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ جانباً من عظمة مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ، الدالة على عظمة الله تعالى، وذلك في بعض أسفاره، فيقول: «عرض لي في طريق الحج خوف من العرب، فسرنا على طريق خبير، فرأيت من الجبال الهائلة والطُّرق العجيبة ما أذهلني، وزادت عظمة الخالق عَزَّوَجَلَّ في صدري، فصار يعرض لي عند ذكر الطرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها.

فصحت بالنفس: ويحك! اعبري إلى البحر، وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالاً هي أعظم من هذه.

ثم اخرجني إلى الكون والتفتي إليه؛ فإنك ترينه بالإضافة إلى السماوات والأفلاك كذرة في فلاة.

ثم جولي في الأفلاك، وطوفي حول العرش، وتلمحي ما في الجنان والنيران.

ثم اخرجني عن الكل، والتفتي إليه؛ فإنك تشاهدين العالم في قبضة القادر، الذي لا تقف قدرته عند حد.

ثم التفتي إليك، فتلمحي بدايتك ونهايتك، وتفكري فيما قبل البداية، وليس إلا العدم، وفيما بعد البلى، وليس إلا التراب.

فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى؟!

وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟!

بالله لو صحت النفوس عن سكر هواها لذابت من خوفه، أو لغابت في حبه؛ غير أن الحس غلب فعظمت قدرة الخالق عند رؤية جبل، وإن الفطنة لو تلمحت المعاني لدلت القدرة عليه أوفى من دليل الجبل»^(١).

الموطن الثالث: ما تضمنه القرآن الكريم من هذه الشريعة العظيمة العادلة الحكيمة الرحيمة، التي ما من خير إلا دعت إليه ودلت عليه، ولا من شر إلا نهت عنه وحذرت منه، فكفلت للناس مصالحهم، وجلبت الخير لهم في دنياهم وأخراهم، والمتأمل لهذه الشريعة العظيمة وما فيها من الأحكام والتشريعات، التي تبهر العقول في حسناتها وشمولها وكمالها وعدالتها وصلاحياتها لكل زمان ومكان، يستدل بذلك على عظمة منزلها ومشرعها، الذي له صفات

(١) صيد الخاطر (ص ٢٧٥، ٢٧٦).

الكمال والجلال والجمال والعظمة، حيث جاءت شريعته سبحانه متصفة بصفات منزلها سبحانه العليم الحكيم اللطيف الخبير العزيز الرحيم، ومثل هذا التأمل والتدبر يقود صاحبه إلى تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وحمده وتنزيهه ومحبته وإجلاله.

الموطن الرابع: ما تضمنه كتاب الله العظيم من أخبار ملائكته وأوليائه من النبيين والصديقين العارفين المعظمين لله عَزَّوَجَلَّ، المختبين له الخائفين الراجين له سبحانه، الذي قال عنهم سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الاسراء: ٥٧]، وقال عنهم أيضًا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذَا نُنَادِيهِمْ عَلَيْهِمْ أَيُّتَ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾ [مريم: ٥٨].

فالعيش مع هذه الآيات ومثيلاتها في القرآن الكريم تثمر في القلب تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك بالتأسي بأحوال أنبيائه وأوليائه سبحانه، الذين أكثر الله من ذكرهم عبرة لمن بعدهم: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وفي المقابل تدبر ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم من عظيم عقوبته وأليم عذابه، الذي أنزله بالقوم المكذبين الذين أعرضوا عن دعوة أنبيائه، وصدوا عن سبيله، فإن تدبر هذه المثالات في تدمير

أعدائه وأعداء رسله، يثمر تعظيم الله عزَّجَلَّ والخوف منه واليقين بوعده، وتعظيم حرمانه وأوامره ونواهيه، قال الله عزَّجَلَّ بعد أن قص علينا خبر أنبيائه في سورة هود وإنجائه لعباده المؤمنين، وإهلاكه للقوم الكافرين: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ۝ وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٣].

الموطن الخامس: المواطن التي يذكرنا الله عزَّجَلَّ فيها عظيم نعمته علينا وسعة رزقه وغناه وجوده وكرمه. إن التفكير في نعم الله عزَّجَلَّ العظيمة الدينية منها والدينية تثمر في القلب تعظيم مسديها ومحبه وإجلاله والالهي بذكره وشكره وحمده والثناء عليه، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُتَمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، وهو مع عظيم نعمته على خلقه، فهو عظيم الحلم والمغفرة لعباده على ظلمهم وكفرهم لنعمه، إن تدبر مثل هذه الآيات ليثمر في القلوب الحية تعظيم الله عزَّجَلَّ ومحبه وتسبيحه وتحميده وخوفه ورجائه.

الموطن السادس: المواطن التي فيها آيات الوعد والوعيد والبعث بعد الموت واليوم الآخر، وما فيه من الأحوال والأحوال التي تظهر فيها عظمة الله عَزَّجَلَّ لكل ذي عين، حيث لا ملك يومئذ إلا لله، ولا أمر هنالك إلا أمره، ولا حكم إلا حكمه، توارى فيه كل عظيم وجبار في الدنيا ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ جَمْعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [١٣] وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا نَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥]، إن تدبر مثل هذه المشاهد في كتاب الله عَزَّجَلَّ، ليملأ القلب الحي تعظيماً لله عَزَّجَلَّ ورهبة وخشية وإجلالاً.

الموطن السابع: تلکم الآيات من كتاب الله عَزَّجَلَّ التي أخبرنا فيها ربنا سبحانه بالخبر اليقين عن الآيات، والمعجزات الدالة على عظيم قدرته وقوته وقهره، وانقياد كل شيء لأمره وحكمته. إن تدبر هذه الآيات والمعجزات الباهرات، لتثمر في القلب الحي تعظيم الله عَزَّجَلَّ ورهبته والخوف منه والتوكل عليه وحده، لأنه القاهر لكل شيء، الذي إذا قال للشيء كن فيكون. وقد ذكر الله عَزَّجَلَّ في كتابه كثيراً من هذه الآيات والمعجزات، التي أيد بها رسله وأوليائه، ودمر بها أعداءه المكذبين لرسله، ومن هذه الآيات إحياء الموتى، كما في قصة البقرة، وقصة الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، وقصة طيور إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقصة الألوف من بين إسرائيل، الذين قال لهم الله

موتوا ثم أحياهم، ومن هذه الآيات آية عصا موسى، وما فيها من العجائب وقصة أصحاب الكهف، الذين أنامهم الله عَزَّجَلَّ ثلاث مئة سنين، وازدادوا تسعاً، وقصة إنجاء الله عَزَّجَلَّ لخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من النار وغيرها من الآيات والمعجزات.

إن تدبر مثل هذه الآيات ليملاً قلب المسلم من تعظيم الله عَزَّجَلَّ ورهبته ومحبته وخوفه ورجائه، وذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، نسأل الله عَزَّجَلَّ أن يجعلنا منهم.

والحاصل: أن في تدبر كتاب الله عَزَّجَلَّ وما فيه من الآيات التي تثمر تعظيم الله عَزَّجَلَّ في القلوب ما يدفع المؤمن إلى العناية بهذا الكتاب العزيز، الذي من تدبره بقلب حي حاضر، فإن ذلك يقوده إلى إجلال الله عَزَّجَلَّ وتعظيمه ومحبته والإخلاص له سبحانه، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ومجاري هذه الفكرة تدبر كلامه، وما تعرف به سبحانه إلى عباده على السنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزه نفسه عنه، مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه، وتدبر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه، التي قصها على عباده، وأشهدهم إياها، ليستدلوا بها على أنه إلههم الحق المين، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدلوا بها على أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه شديد العقاب، وأنه غفور رحيم، وأنه العزيز الحكيم، وأنه

الفعال لما يريد، وأنه الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة، لا يخرج شيء منها عن ذلك، وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه والنظر إلى آثار أفعاله»^(١).

وأختم الحديث عن تدبر القرآن الكريم وأثره في تعظيم الله عزَّ وجلَّ وإجلاله في القلوب، بذكر بعض الأسباب المعينة على التدبر منها:

أولاً: تصحيح النية.

يجب تصحيح النية في قراءة القرآن، وابتغاء وجه الله عزَّ وجلَّ، ومحاسبة النفس على العمل بالقرآن، والدعوة إليه، والحكم به، والتحاكم إليه، والرضى بحكمه.

عن عثمان وابن مسعود وأبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى، حتى يتعلموا ما فيها من العمل؛ قالوا: فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»^(٢).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أخوف ما أخاف أن يُقال لي يوم القيامة: يا عويمر، أعلمت أم جهلت؟ فإن قلت: علمت لا تبقى آية أمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها: الأمرة هل ائتمرت؟ والزاجرة

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٥)، دار الكتب العلمية.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١/ ٣٩).

هل ازدجرت؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يُسمع»^(١).

ثانيًا: فهم المعاني ودلالات الألفاظ والوقوف عند الآيات وإحضار القلب عندها.

وهذا أمر لا بد منه لتدبر كتاب الله عَزَّجَلَّ، ومن رحمة الله تعالى وفضله: أن جعل كلامه ميسرًا للفهم والإدراك؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَرَّنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، ولكن يبقى بعض الآيات تحتاج من المتدبر إلى فهم معانيها، والرجوع إلى كتب التفسير، وإلى أهل العلم، ليتجلى المعنى المراد منها، وليس العلم بمعنى الآيات مقصودًا لذاته، وإنما هو وسيلة لتدبر كلام الله عَزَّجَلَّ، وإحضار القلب والفكر، والتأثر باطنًا وظاهرًا بمعاني كلام الله عَزَّجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ويلزم على هذا إحضار القلب عند سماع القرآن أو تلاوته حضور من يخاطبه القرآن، وتصور عظمة من تكلم بهذا القرآن، وعظمة مخلوقاته في الآفاق وفي النفس، الدالة على عظمته سبحانه وجلاله، وعلى أسائه سبحانه وصفاته.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه، منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك على لسان

(١) حلية الأولياء (١/٢١٣).

رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضى، ومحلّ قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا، وهذا هو المؤثر. وقوله: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل؛ والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٦١) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴿يس: ٦٩، ٧٠﴾، أي: حي القلب. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَلْقَ السَّمْعَ﴾ أي: وجه السمع، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثير بالكلام. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيابه عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله. فإذا حصل المؤثر - وهو القرآن - والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر^(١).

ويقول أحمد بن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينبغي للتالي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، فليعلم عظمتة ويتلمح قدرته في

(١) الفوائد (ص ٣).

كل ما يريد، وإذا تلا: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]، فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء كيف تنقسم إلى لحم وعظم، ... وإذا تلا أحوال المعذنين، فليستشعر الخوف من السطوة، إن غفل عن امتثال الأمر... وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه المقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتبه سيده بمقصود، وليتأمل الكتاب وليعمل بمقتضاه»^(١).

ثالثاً: هجر المعاصي والذنوب والتقرب إلى الله عزَّجَلَّ بالطاعات.

فإن مما يحول بين القلب وبين تدبر كلام الله عزَّجَلَّ كثرة الذنوب حتى يقسو بها، ولا يجد لذة العبادة والطاعة وقراءة القرآن، وكلما تخفف العبد من الذنوب وتقرب إلى الله عزَّجَلَّ بالطاعات، كان حظه من تدبر كلام الله عزَّجَلَّ والتأثر به أكثر وأعظم.

رابعاً: خلو القلب من هموم الدنيا وعدم التعلق بما فيها من مال أو رئاسة أو صورة والتعلق بالدار الآخرة.

فإن القلب إذا امتلأ من الدنيا والاهتمام بها، وضعف فيه هم الآخرة والاستعداد لها، لم يكن فيه محل لتدبر كلام الله عزَّجَلَّ، فالتعلق بالآخرة وعدم الانشغال بالدنيا هو رأس كل خير.

(١) منهاج القاصدين (ص ٥٣) باختصار.

خامساً: سماع القرآن من قارئ حسن الصوت يخشى الله ويتقيه.

ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله»^(١).

السبب الرابع: كثرة ذكر الله عزَّ وجلَّ مع التدبر وكثرة الطاعات مع الخشوع والإخبات.

إن ذكر الله عزَّ وجلَّ يمكن أن يكون ثمرة من ثمار التعظيم، وسبباً من أسبابه، فإذا تمكن تعظيم الله عزَّ وجلَّ في القلب ظهر ذلك على الجوارح، ومنها ذكر الله عزَّ وجلَّ من تسبيح وتحميد ودعاء وثناء، وقد مرت بنا هذه الثمرة في الفصل السابق، كما أن كثرة ذكر الله عزَّ وجلَّ مع تدبر معاني الذكر والدعاء يقود إلى الاطمئنان بذكره سبحانه وقيام تعظيمه وإجلاله في القلب، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، لأن مفردات الأذكار والفاظها كلها تعظيم وتقديس وتحميد لله عزَّ وجلَّ، فإذا أكثر العبد من ذكر الله عزَّ وجلَّ بما ورد في السنة في أحوال اليوم الليلة وفي أداء العبادات المتضمنة لأذكار التكبير والتحميد والتعظيم كالصلاة والحج، وأداها بتدبر وخشوع كلما أحدث ذلك في قلب قائلها تعظيماً وإجلالاً ومحبة لله عزَّ وجلَّ.

(١) ابن ماجه (١٣٣٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٠١).

السبب الخامس: مصاحبة المعظمين لله عَزَّجَلَّ الْمُخْبِتِينَ لَهُ، الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّجَلَّ.

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وروي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ لَا ثَلَاثٌ لَّمَّا أَحْبَبْتُ الْبَقَاءَ: لَوْ لَا أَنِ أَحْمَلَ عَلَى جِيَادِ الْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَكَابِدَةِ اللَّيْلِ، وَمَجَالِسَةِ أَقْوَامٍ يَنْتَقُونَ أَطْيَابَ الْكَلَامِ كَمَا يَنْتَقِي أَطْيَابَ الثَّمَرِ»^(١)، وقال أيضًا: «اقْتَرَبُوا مِنْ أَفْوَاهِ الْمُطِيعِينَ، وَاسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ تَجَلَّى لَهُمْ أُمُورٌ صَادِقَةٌ، وَذَلِكَ لِقَرَبِ قُلُوبِهِمْ مِنَ اللَّهِ»^(٢). ففي هذه المجالس ترى القدوات في خوفهم من الله تعالى وتعظيمهم له، ولأوامره ونواهيه. ومن علامة توفيق الله عَزَّجَلَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يَرْزُقَهُ أَصْحَابًا صَالِحِينَ، مُعْظِمِينَ لِلَّهِ تَعَالَى، مُخْبِتِينَ لَهُ، تَذَكَّرَ رُؤْيَتَهُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ، قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا

(١) مدارج السالكين (١/٤٤٩).

(٢) المصدر نفسه (١/٤٤٩).

ذكر الله تعالى»، ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت»^(١).

ومما يلحق بهذا السبب القراءة في سير السلف الصالح، الذين ضربوا أروع الأمثلة في تعظيمهم لله تعالى، وخشيتهم له ومحبتهم وإخلاصهم له عَزَّجَلَّ. وقد سبق في فصل سابق ذكر شيء من هذه النماذج المؤثرة، ولا شك أن القراءة في سيرهم وتراجهم رحمهم الله تعالى لمن أعظم الأسباب في شحذ الهمم في اللحق بهم والافتداء بهداهم.

السبب السادس: الإكثار من تذكير النفس المستمر بعظمة الله عَزَّجَلَّ، ومحاسبتها على ذلك وتربية الأهل والأولاد على ذلك.

والتكثير من طرحة، والحديث في الكتب والمقالات والدروس والمحاضرات والخطب والمحاضن التربوية والإكثار من الأمثلة والمشاهد والقصص، التي تثمر تعظيم الله عَزَّجَلَّ، الذي هو أس أعمال القلوب، حيث إن كثيراً من أعمال القلوب إنما هي نابعة من تعظيم الله عَزَّجَلَّ وإجلاله، وذلك كالمحبة والخوف والرجاء والتوكل والإخلاص، وهو الذي يجعل من العبادة لذتها وحلاوتها، وهو الذي يقي من كثير من الشرور والآفات، التي تلم بالقلب من لمة الشيطان، الذي لا يفتأ يفسد القلوب بأمراض الشكوك والكبر والرياء والحسد والشحناء.

(١) مسند أحمد (٢٧٥٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٤٦).

السبب السابع: تذكر الثمرات اليانعة للتعظيم:

سبق في الفصل السابق ذكر بعض ثمرات التعظيم لله تعالى، التي من شأنها أن تشحذ همة العبد المؤمن، وتدفعه إلى أن يحفل بهذا الأمر العظيم، فيربي نفسه ومن تحت يده على الاهتمام به علماً وعملاً وحالاً، ويربي أهله وأولاده عليه، ويكثر من طرحه في المجالس والمناسبات.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله وتوفيقه تنال الهدايات، وتحل الرحمات، فما بنا من نعمة فمنه وحده. إن أطعناه وعظمناه فله المنة علينا، وإن عصيناه ونسيناه فله الحجة علينا، نسأله المزيد من فضله وتوفيقه، ونستغفره من ذنوبنا وعثراتنا.

أحمده سبحانه على عونه وتوفيقه في إتمام هذا البحث، الذي لم أوفه حقه وقدره، وهل يستطيع عبد أن يوفي حق الله عَزَّجَلَّ وتعظيمه؟ ولكنه جهد المقل. أسأل الله عَزَّجَلَّ أن يملأ قلوبنا من تعظيمه ومحبه وخوفه ورجائه، وأن يجعلنا من عباده المنيبين إليه المخبتين له، كما أسأله سبحانه أن ينفعني وإخواني المسلمين بهذا الكتاب، وأن يرزقنا الإخلاص والصواب.

وأود في هذه الخاتمة أن أسجل الوقفات التالية:

الوقفة الأولى:

ألخص في هذه الوقفة، أهم ما ورد في الكتاب من مباحث، فأقول وبالله التوفيق:

جاء الكتاب في مقدمة وخمسة فصول. وذكرت في المقدمة تمهيداً يبين أهمية هذا البحث والدوافع التي دفعت إلى إخراجه، وذكرت من

أهمها الضعف العام الذي نجده في قلوبنا في الأعمال القلبية، وعلى رأسها عبودية التعظيم والمحبة لله عَزَّوَجَلَّ، مما كان له الأثر في ضعف الإخلاص والخشوع في الصلاة، والجرأة على المعاصي والغفلة في ذلك عن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيم حرماته، وقد أدى ذلك عند أهل النفاق والقلوب المريضة إلى الجرأة على نصوص الكتاب والسنة، والاعتراض عليهما، وكأنها كلام مخلوق مثلهم، يؤخذ منه ويرد. بل إن ضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ أو انعدامه في القلوب، هو الذي يؤدي اليوم إلى وقوع بعض أبناء الأمة في أمراض الشك والإلحاد.

وفي الفصل الأول: ذكرت بعض الآيات والأحاديث والآثار التي جاءت في الأمر بتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك من خلال النماذج من سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيرة أصحابه والتابعين لهم بإحسان، ظهر فيها تعظيمهم لله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيمهم لشعائره وحرماته.

وفي الفصل الثاني: ذكرت فيه بعض مظاهر عظمة الله تعالى في ذاته وأسمائه وأفعاله وخلقه وأمره.

وفي الفصل الثالث: ذكرت بعض مظاهر وعلامات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب، وذلك كتعظيم حرماته سبحانه، وتعظيم كتابه، وتعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسالته واتباعه، وتحكيم شريعته سبحانه، والغيرة على حرماته، والدعوة إلى دينه والجهاد في سبيله.

وفي الفصل الرابع: ذكرت أهم ثمرات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أهمها السكينة والطمأنينة في القلب، والفوز برضى الله عَزَّوَجَلَّ وجنته، وكثرة ذكره وحمده، وتسبيحه والخوف، والحياء منه، والتوكل عليه سبحانه، والرضى بقدره والتسليم لحكمه.

وفي الفصل الخامس: ذكرت بعض الأسباب الجالبة لتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى رأسها دعاء الله سبحانه، وسؤاله الهداية، وتعظيمه والخوف منه، فلا مال لك للهداية والتوفيق والثبات إلا الله عَزَّوَجَلَّ. ومن هذه الأسباب العلم بالله عَزَّوَجَلَّ، والفقہ في أسمائه وصفاته وآثارها، والتعبد لله سبحانه بها، ومنها تدبر القرآن العظيم، وما فيه من الأمر بالتفكر في الآفاق والأنفس الدالة على عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك ما في القرآن من ذكر أسمائه الحسنی وآثارها، وما فيه من أخبار الغابرين، وما حل بهم من العقوبات الأليمة، وما فيه من نصره سبحانه لأنبيائه وإنجائه لهم، وإجراء الآيات والمعجزات على أيديهم، والتي تدل على عظيم قوته وقهره وعزته وحكمته ورحمته.

ومن هذه الأسباب مصاحبة المخبئين المعظمين لله تعالى والاعتداء بهداهم، ومن هذه الأسباب كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وتدبر المعاني العظيمة لهذه الأذكار، المتضمنة لحمد الله وتسبيحه وتعظيمه سبحانه، ومن هذه الأسباب التواصل بالاكثار من الحديث عن هذا العمل القلبي

العظيم وتربية النفس والأهل والأولاد عليه، وتكرار الحديث عنه في المؤلفات والدروس والمواظظ والخطب ومجامع الناس، وذلك لما نشعر به من ضعف شديد في هذا العمل القلبي العظيم في نفوسنا.

الوقفه الثانية:

تبين لي بعد الكتابة في هذا الموضوع المهم من موضوعات الاعتقاد والعمل: أن ما نعانيه اليوم من بعض السفهاء والمنافقين، والذين في قلوبهم مرض من الاستخفاف ببعض جوانب الاعتقاد والتشريع في ديننا الحنيف، وجرأتهم على معارضتها، وإثارة الشبهات حولها، لم يكن لجهلهم بالأدلة ومدلولاتها، وإنما السبب في ذلك عند كثير منهم هو ضعف تعظيم الرب سبحانه في قلوبهم، أو خلوها منه، وحينها يزول العجب من صنيعهم ومواقفهم، لأن القلوب إذا خلت من تعظيم الله عَزَّجَلَّ وعدم تقديره وتوقيره، فإن هذا المرض يقود ولا بد إلى الاستهانة بكل ما يجيء منه سبحانه من أخبار وأحكام، وتخلو القلوب بذلك من تعظيم كلام الله عَزَّجَلَّ وأوامره ونواهيه، ويجد هؤلاء الذين في قلوبهم مرض أنفسهم وقلوبهم جريئة في رد كل ما لا يوافق أهواءهم، والاعتراض عليها بكل صفاقة وقلة حياء وعدم تعظيم ولا مبالاة ولا خوف من الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، هذا هو السبب الرئيس في مصيبة القوم العظمى، فهم غير معظمين

لله عَزَّوَجَلَّ، وذلك بما في قلوبهم من أمراض الشبهات والشهوات، الأمر الذي يحول بينهم وبين التسليم والإذعان والقبول لله عَزَّوَجَلَّ، ولما يبلغه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه. نسأل الله عَزَّوَجَلَّ لهم الهداية قبل حلول آجالهم، كما نحمده سبحانه على العافية مما ابتلاهم الله به، ونسأله الثبات على دينه والاستقامة على أمره حتى نلقاه. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ولذلك أوصي من يواجه شبهات القوم واعتراضاتهم من الدعاة والمصلحين، أن يبينوا قبل الرد عليها بأن مصيبة القوم عدم تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيم كلامه في قلوبهم، وعدم تسليمهم لأخباره وأحكامه، إلا بما يوافق أهواءهم. يجب أن يبين للأمة حقيقة مصيبتهم، وأن يعرى للناس منهجهم الفاسد، وأن يدعو إلى التوبة والدخول في السلم كافة، دون أي اعتراض: بكيف ولماذا؟ إذ كيف يعترض مخلوق ضعيف حادثٍ فانٍ ظالم جاهل على فاطر السموات والأرض، الذي له الكمال والجلال والحمد والثناء، المبرء من النقص والجهل والهوى، الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً وقهراً وحكمة وقدرة وبرّاً وإحساناً، أما أن يغفل عن هذه المصيبة العظمى عند القوم ويرد على شبهاتهم، كما لو كان الأمر خلافاً بين عالين من علماء المسلمين، أو يرد على مفردات شبهاتهم، التي لا تنتهي، وكأن الإسلام في قفص الاتهام، فهذا منهج خاطئ في الرد على مثل هؤلاء السفهاء والمنافقين، نعم

بعد أن يبين للناس فساد منهجهم ومنطلقاتهم، فلا مانع أن يرد على شبهاتهم حماية للناس من خطرهما.

الوقفه الثالثة:

إنه لمن المناسب في نهاية هذه الرسالة، التي عنوانها: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، والتي موضوعها عظمة الله عَزَّجَلَّ وتعظيمه، أن أتطرق لما سمعته من بعض الإخوان من صور مفزعة ممن قابلوه أو رأوه أو سمعوه في بعض (مواقع الشبكة العنكبوتية) من ظهور مواقف إحادية تشكيكية، يتبناها قلة من شباب الأمة، خلت قلوبهم من معرفة الله عَزَّجَلَّ وتعظيمه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ووافق هوى في النفوس، أفرز لديهم بعض الشكوك والامتراء في بعض أصول الإيمان الستة: (الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر)، وإبراء للذمة، ونصحاً لمن وقع من شباب الأمة في هذه الملمة، أود تسجيل التقارير الآتية:

التقرير الأول:

أنصح في هذا التقرير من وقع في هذه الآفة الخطيرة: أن يشعر أولاً بخطورة ما هو فيه، وأنه أمر كارثي، نهايته العذاب السرمدي يوم القيامة إن لم يتوبوا ويعرفوا الله عَزَّجَلَّ قدره وتعظيمه. إنهم بذلك

إنما يضرّون أنفسهم، والله عَزَّوَجَلَّ غني عنهم وعن عبادتهم وإيمانهم. وأذكرهم قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧]، وكذلك قوله سبحانه عن أنبيائه صلى الله عليهم وسلم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، كما أذكرهم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه سبحانه: «يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا..» الحديث (١).

التقرير الثاني:

إنه باستقراء أحوال الكثير من هؤلاء الذين مرضت قلوبهم، وشارت فيها الشكوك والاعتراضات والشبهات، فأصغوا إليها، واقترفوا بسببها ما هم مقترفون نجد أن أغلبهم وجلهم من أصحاب الشهوات الذين يرون أن الذين يحول بينهم وبين شهواتهم أو أنهم

(١) مسلم (٢٥٧٧).

قد مروا في حياتهم الاجتماعية بأمراض نفسية من القلق والاكتئاب، اضطرب بسببها تفكيرهم، وتشوشت بها عقولهم وفطرتهم، وبدلاً من أن يعالجوا هذه الأمراض النفسية من جذورها بعلاج أسبابها، راحوا يسقطون معاناتهم على التشكيك في مسائل الإيمان والغيب، واستغل الشيطان الرجيم ضعفهم هذا، فأزهم إلى هذه الشكوك والشبهات أزاً، وزينها لهم في عقولهم المشوشة. ولذا لا يمكن أن يوجد سوي في عقله وتفكيره وفطرتة ونفسيته، ثم يميل إلى هذه الأمراض والشكوك، لأن الله عَزَّجَلَّ قد أودع في الفطر والعقول السوية السليمة معرفته سبحانه وتعظيمه ومحبه وعبادته ﴿فَطَرَتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، وقد ذكر الله سبحانه في كتابه الكريم، وفي أكثر من آية بأن كل من كفر فقد فسد فطرته وألغى عقله، لأن العقل السليم والفطرة السليمة يهديان إلى الله عَزَّجَلَّ. قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

التقرير الثالث:

إن أصل الأصول في أركان الإيمان هو الإيمان بوجود الله تعالى، والإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فإذا استقر هذا

الإيمان في القلب لزم عليه الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر، لأنها غيب أعلمنا الله إياه، فإيماننا به سبحانه يقتضي تصديقه عَزَّجَلَّ في أخباره كلها والإذعان لأحكامه كلها، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام. والمقصود أن الإيمان بالله عَزَّجَلَّ هو أصل الأصول، وبتحقيقه تتحقق بقية الأصول والأركان، ولذا ففي هذا التقرير سيكون التركيز على إثبات وجود الله عَزَّجَلَّ وتفرد بالربوبية والألوهية وكمال الأسماء والصفات، وبقية الأركان تابعة لذلك. فأقول وبالله التوفيق:

إن الإيمان بوجود الله عَزَّجَلَّ، وتفرد بالخلق والأمر، هو أمر مستقر في القلوب والفطر السليمة، ولا يجادل في ذلك إلا من فسدت فطرته، أو اضطرب عقله بمؤثرات خارجية، بل إن الذين يجادلون في ذلك يشعرون بصراع داخلي بين الفطرة والعقل وبين أهوائهم، كما قال عنهم الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُومًا﴾ [النمل: ١٤]، ولذلك فلن نطيل الكلام في إثبات أمر تدل عليه الفطرة والعقل والحس والسمع، وأكتفي بما قاله الله عَزَّجَلَّ وهو يخاطب عقول الجاحدين، وذلك في بضع كلمات بينات ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿[الطور: ٣٥، ٣٦]. جاء في صحيح البخاري أن جبير بن مطعم قال: «سمعت

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ قال: كاد قلبي أن يطير^(١). أي لظهور الحق ووضوح بطلان الباطل. وتكفيها هذه الآية حجة عقلية على الملاحدة والدهريين، ولا حاجة لنا بعدها إلى كلام أهل الفلسفة والمنطق في ردهم على الملاحدة بواجب الوجود، وممكن الوجود، وغير ذلك من فلسفة علم الكلام وسفسطته.

إن الله عَزَّجَلَّ يخاطب عقولهم إن كان لهم عقول يفقهون بها، ويوقفهم أمام سؤالين كبيرين، ليجيبوا عليهما جواباً صريحاً مقنعاً، لمن يحترم عقله وفطرته وإنسانيته:

فأما الأول: فقلوه سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي هل خلقوا وخلق هذا الكون من حولهم من غير خالق مريد عالم قادر حكيم، وإنما بمجرد الصدفة والموافقة العمياء تشكل هذا الخلق العظيم الدقيق المنتظم في الآفاق والأنفس؟!!!

وأما الثاني: فقلوه سبحانه: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي إذا كانوا لا يقولون بأن هذا الخلق المنتظم المتناسق، الذي تبرز فيه الحكم الباهرة، لا يمكن أن يكون بغير خالق، فهل هم إذن الذين خلقوا أنفسهم والكون من حولهم؟!!! وهذا ما لم يقل به أو يدعيه أحد من الخلق لا

(١) البخاري (٤٨٥٤).

في القديم ولا في الحديث، إذ كيف يخلقون أنفسهم وقد كانوا عدماً؟ إذن بقي السؤال الأول، والجواب عليه، حيث يتبنى بعض المتكبرين المكابرين بأن هذا الخلق وجد هكذا بالصدفة من غير خالق، وأقسم بالله غير حاث أن هذا الفريق من الملاحدة غير صادقين وغير مقتنعين بما يجادلون فيه، إذ كيف يكون هذا الكون العظيم بنواميسه ونظامه الدقيق، وما فيه من الحكم الباهرة التي لا تصدر إلا من خالق عظيم مرید عالم قادر حكيم، كيف يكون هذا بمحض الصدفة والموافقة، بل لو نظروا إلى أنفسهم وعجائب خلقتها وما فيها من الأجهزة والأعضاء والأعصاب والعروق والعظام التي ركبها الله عَزَّوَجَلَّ بحكمة وانتظام وعمل دؤوب دقيق. هل كل هذا الخلق العظيم في الآفاق والأنفس جاء بمحض الصدفة؟!!!

إنك لو قلت لهؤلاء القوم في مخلوق صغير من صنع الإنسان كصنع سيارة أو طائرة أو سفينة: إن هذه السيارة أو الطائرة أو السفينة خرجت علينا بمحض الصدفة قد تركز هيكلها ومحركاتها، وربط بعضها ببعض، وربطت أسلاكها بمصدر الطاقة فيها، كل ذلك تكونت أمامنا بمجرد الصدفة. لو قلت لهم ذلك لسفهوا عقلك، وردوا مزاعمك، فما بالهم ينكرون هذا في صنع صغير من صنع البشر ولا ينكرون ذلك في هذه المخلوقات العظيمة؟! إنه الهوى والمماحكة وإغواء الشيطان وهوى النفس.

ونقل هنا وبهذه المناسبة كلاماً مفيداً للمقام في مناظرة جرت بين ملحد حيران وبين عالم من علماء المسلمين وهي مناظرة طويلة، لكنني أنقل هنا كلام الشيخ للحيران في موضوع الصدفة، وأنها متهافة ساقطة من أصلها عقلياً وعلمياً وشرعياً. قال الشيخ: (إن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانات المتكافئة المتزاحمة، فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح، وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة. فإذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين، يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد اثنين)، وإذا كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد عشرة)، لأن كل واحد له فرصة للنجاح ماثلة لفرصة الآخر، بدون أقل تفاضل طبعاً.

وإلى هنا يكون الحظ في النجاح قريباً من المتزاحمين، حتى لو كانوا مئة أو ألفاً، ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخمها ثلاً، يصبح حظ المصادفة في حكم العدم، بل المستحيل. ذلك لأنه إذا اتفق لصبي أعمى أن سحب من صندوق فيه عشرة أوراق مرقمة: الرقم (١)، قلنا: إن حظ المصادفة للرقم (١) تغلب على الأعداد الأخرى المتزاحمة معه بنسبة (واحد ضد عشرة)، وأما إذا اتفق له أن سحب العددين (١ و ٢) بالتتابع، قلنا: إن حظ المصادفة للعدد الثاني هو بنسبة (واحد ضد مئة)، لأن كلا من العشرة يزاحم (لترتبة

الثانية) ضد عشرة، فيصبح التزاحم بين مئة. وإذا اتفق أن سحب الصبي الأعمى الأوراق الثلاث المرقمة (١ و ٢ و ٣) على التوالي، قلنا: إن حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد ألف)، لأن كلاً من العشرة يزاحم ضد مئة، وهكذا. فإذا افترضنا أن الصبي سحب الأوراق العشرة على ترتيب أرقامها، فإن حظ المصادفة يصبح بنسبة (واحد ضد عشرة مليارات).

ثم قال الشيخ للشاب الحيران: سأنتقلك إلى ترتيب آخر في شكل آخر وأعداد أكثر:

لو فرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها، فجاءت هزة أرضية قوية قلبت صناديق الحروف على بعضها وبعثرتها وخلطتها. ثم جاءك منضد الحروف يخبرك أنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني، فهل كنت تصدق؟

حيران: نعم أصدق.

الشيخ: ولكن لو قال لك: إن الكلمات العشر تؤلف جملة كاملة مفيدة، فهل كنت تصدق؟

حيران: أستبعد ذلك جداً، كما استبعدته في مثال الورقات العشر السابق ذكره، ولكنني لا أراه مستحيلاً.

الشيخ: ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها كونت، عند اختلاطها، بالمصادفة، كتاباً كاملاً من (٥٠٠) صفحة ينطوي على قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها ومغازيها، فهل كنت تصدق ذلك يا حيران؟

حيران: أبداً، لا أصدقه يا مولاي.

الشيخ: ولماذا لا تصدقه يا حيران؟

حيران: لأنني هنا أجد الاستحالة بديهية حقاً.

الشيخ: ولماذا يا حيران؟

حيران: لا أدري يا مولاي، ولكنني عندما أتصور أن الورقات العشر أُلقيت على ترتيب أرقامها بالمصادفة، لا أجد وجه الاستحالة واضحاً وبديهيّاً، كما أجد في مثال الكتاب.

الشيخ: أتدري ما هو السبب في ذلك يا حيران؟

حيران: كلا يا مولاي.

الشيخ: السبب يرتكز على قانون المصادفة نفسه: فالتزام بين الورقات المرقمة يجري بين عشر ورقات على عشرة ترتيبات، فيجعل حظ المصادفة بنسبة واحد إلى عشرة مليارات، وهذه النسبة، على تفاوتها

الكبير، ليست من العظم، بحيث تُحدث لك في عقلك تلك البداهة في إدراك الاستحالة. ولكن التزاحم بين حروف الكتاب يجري بين (٥٠٠) ألف حرف على تكوين (١٢٥) ألف كلمة تقريبًا، بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبدًا. وهذا ما يجعل حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عدد هائل جدًا جدًا لو قلت عنه إنه مليار مليار مليار لكان قليلًا...

هذا في المطبعة وكلماته المحدودة المعدودة يا حيران، فما قولك في كتاب الله الأعظم وكلماته التي يقول عنها جلّت قدرته: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]؟

حيران: هل يعني مولاي بكتاب الله القرآن، وما فيه من كلمات؟
الشيخ: أرجو أن يكون فهمك للقرآن أسمى من هذا، وأعمق يا حيران، فكلمات القرآن التي بين دفتي المصحف محدودة معدودة، فلا يُعقل أن تحتاج كتابتها إلى مداد ينفد به ماء البحار، ولا إلى أقلام تنفد بها أشجار الأرض.

حيران: هذا والله، ما كنت أقوله في نفسي.

الشيخ: كلا يا حيران. وإنما عنيت بكتاب الله، هنا، العالم كله، وعنيت بكلمات الله، كما أراد الله، كل ما في ملكوت السموات

والأرض من شيء محسوسٍ من عالم الخلق، أو معقولٍ من عالم الأمر، والذي لم يخلق إلا بكلمات ربي، وكيف تنفذ كلمات ربي يا حيران وكل ذرة من مياه البحار وأشجار الأرض إنما تمت بكلمات ربي؟ بل كل ما في الكون من ذرات وعناصر ونظم وقوانين ونواميس، ونسب وروابط وعلاقات، وأقدار وأحجام وأوزان، ومُدد وأوقات وأزمان، وصور وأشكال وألوان، وحركات وسكنات وأوضاع، وأجناس وأصناف وأنواع، كلها تمت بكلمات ربي... ثم تعال ندرس على ضوء (العلم والقرآن) بعض ما في هذا العالم من تقدير، واتزان، وتنظيم، وترتيب، وأحكام، وإتقان، لنعرف ما هو حظ المصادفة في تكوينه...؟ وصدق الله العظيم، إذ يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ويقول سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]^(١).

وبذلك يظهر تفاهة وسخافة عقول القائلين بأن هذا الكون في دقته المتناهية، وما فيه من الحكم الباهرة، إنما كان ذلك بمحض الصدفة والموافقة!! والله إنهم ليعلمون أنهم كاذبون متناقضون، ولكنهم هاربون من الله عَزَّجَلَّ، فماذا بعد الحق إلا الضلال، ولذلك رجع كثير من ملاحدة الفلاسفة عن القول بمبدأ المصادفة في خلق هذا الكون العظيم، وذلك عندما سفه الناس عقولهم، ووجدوا

(١) قصة الإيمان د. نديم الجسر (ص ٢٩٣-٢٩٧) باختصار يسير.

أنفسهم متناقضين مضطربين، ولكنهم وبدلاً من أن يفروا إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويؤمنوا بوجوده وعظمته وصفاته العظيمة، فيعبدوه ويوحده اختراع لهم الشيطان فكرة خبيثة، فقالوا: إن لهذا الكون خالقاً مختاراً مريداً قادراً حكيماً عليماً، ولكنهم لما كانوا هاربين من الله عَزَّوَجَلَّ نسبوا هذه الصفات من الخلق والقدرة والحكمة والإرادة إلى ما يسمونه (بالطبيعة)، فهي التي صدر عنها هذا الخلق العظيم البديع بزعمهم، وهنا نقول لهم: ماذا تقصدون (بالطبيعة)؟ هل هي عاقلة مريدة حكيمة عالمة قادرة؟ لأن هذا الكون العظيم لا يخلقه إلا من له هذه الصفات العظيمة، فإن قالوا: ثبت لهذه الطبيعة الخالقة هذه الصفات ولا بد، حينئذ نقول: إن هذه بعض صفات الله الحسنی، فتركوا كلمة (الطبيعة)، وقولوا (الله عَزَّوَجَلَّ)، ولكنهم هاربون من الله عَزَّوَجَلَّ، فكلما حوصروا بأدلة وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ وتفرد به بالخلق والإحياء والإماتة والتدبير هربوا منها، ونسبوا ذلك إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ، قال سبحانه: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧]، وكفى بهذا الإعراض والتكبر ظلماً وعتواً وعدواناً، والجزاء من جنس العمل.

التقرير الرابع:

إذا استقر الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ في القلب، وأنه المتفرد بالربوبية والألوهية والأسماء الحسنی والصفات العلا، وعرف العبد ربه

سبحانه المعرفة التي عرف بها عباده في كتابه وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل الإيمان والسعادة من بابها وأساسها، ووجد العبد نفسه مؤمناً منقاداً لبقية أصول الإيمان وأركانه، حيث إن من مقتضيات الإيمان بالله عَزَّجَلَّ تصديقه سبحانه في أخباره والإذعان له في أحكامه، ومن أخباره سبحانه في كتابه ما أخبر به عن ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، فلزم من الإيمان بالله الإيمان بما أخبرنا به عن بقية الأركان الستة، ومن كفر بشيء منها كفر بالله عَزَّجَلَّ لعدم تصديقه في أخباره. إذن فالإيمان بالله عَزَّجَلَّ هو أصل الأصول وبابها، الذي يدخل منه إلى الإيمان ببقية الأركان والأصول.

ولكن قد تجول في القلب عند بعض المتأثرين بشبهات خصوم هذا الدين، الذين يثيرون الشبه حول القرآن، وأنه من كلام محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس من عند الله عَزَّجَلَّ، وهذه الشبهة ساقطة من أصلها عند من آمن بالله عَزَّجَلَّ وأنه عظيم قادر حكيم عادل رحيم، له الأسماء الحسنى، وقد فند هذه الشبهة أهل العلم في القديم والحديث من وجوه كثيرة، وهذه الشبهة لا تستحق الرد، فهي كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وأكتفي بجواب واحد على هذه الشبهة، أنقله مختصراً من كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث يقول: «وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر

من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة، فقلت له في أثناء الكلام: أنتم بتكذبيكم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد شتمتم الله أعظم شتيمة. فعجب من ذلك، وقال مثلك يقول هذا الكلام! فقلت له: اسمع الآن تقريره، إذا قلت: إن محمدًا ملك ظالم، قهر الناس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثًا وعشرين سنة يدعي أنه رسول الله، أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بكذا، ونهاني عن كذا، وأوحى إليّ كذا. ولم يكن من ذلك شيء، ويقول: إنه أباح لي سبي ذراري من كذبي وخالفني ونساءهم، وغنيمة أموالهم، وقتل رجالهم. ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أمهم، ونسخ شرائعهم. فلا يخلو: إما أن تقولوا: إن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا إنه خفي عنه ولم يعلم به. فإن قلت لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من علم ذلك أعلم منه. وإن قلت بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته وإطلاعه عليه، فلا يخلو إما أن يكون قادرًا على تغييره، والأخذ على يديه ومنعه من ذلك أو لا. فإن لم يكن قادرًا فقد نسبتموه إلى العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادرًا وهو مع ذلك يعزه وينصره ويؤيده ويعليه ويعلي كلمته، ويحيب دعاءه، ويمكنه من أعدائه، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات، ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء، إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفه، الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلًا عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد

له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه، وهذه عندكم شهادة زور وكذب، فلما سمع ذلك قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفتر، بل هو نبي صادق، من اتبعه أفلح وسعد. قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟ قال: إنما بعث إلى الأُميين، الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه. قلت له: غلبت كل الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلى جميع الخلق، وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به، فأمسك ولم يجر جواباً^(١).

التقرير الخامس:

في هذا التقرير أتوجه بالنصح لكل من وقع في شيء من هذه الوسوس والشكوك بالنصائح التالية:

النصيحة الأولى: الجأ إلى الله عَزَّجَلَّ واسأله، وتضرع إليه في أوقات الإجابة، إلى أن يهديك ويثبتك على دينه. وأكثر من الاستعاذة والاستجارة بالله العظيم السميع العليم من الشيطان الرجيم.

النصيحة الثانية: تأمل ما ورد في التقارير السابقة بعقل متزن غير مشوش، فلعل الله عَزَّجَلَّ أن يهديك بسببها.

النصيحة الثالثة: قاطع مجالس أهل الشبهات ومواقعهم وكتبهم، وابتعد عنها، فكم كانت سبباً في زيغ القلوب، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ

(١) هداية الحيارى (١/ ٨٧، ٨٨).

عَلَيْكُمْ فِي الْكَتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ [النساء: ١٤٠].

النصيحة الرابعة: اعلم أن نعيم الروح وسعادتها في الدنيا والآخرة هي في الإيمان وعبادة الله وحده لا شريك له، وأن التعاسة والشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة لمن أعرض عن الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به، والواقع يشهد بذلك، فلقد صرح كثير ممن يعيشون هذه الخواطر الرديئة بأنهم يعيشون في عذاب وعناء وشقاء، لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وأنقل بهذه المناسبة وصية الشيخ الذي سبق ذكره في مناظرة الشباب (حيران)، وانتهت بإيمان الشباب وهدايته، يتحدث فيها عن نعمة الإيمان، فيقول: «اعلم أن الإيمان بالله حق وحاجة وضرورة. فأما أنه حق؛ فقد عرفته مما حدثتك به في تلك الليالي الطوال التي عشتها معي.

وأما أنه حاجة وضرورة فإنك تعلمه، يا حيران، حين تدرك، ويدرك المؤمنون والملحدون قاطبةً على السواء، أن الإيمان بالله هو أَسُّ الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وسند العزائم في الشدائد، وبلسم الصبر عند المصائب، وعماد الرضا والقناعة بالخطوط، ونور الأمل في الصدور، وسكن النفوس إذا أوحشتها الحياة... وعزاء القلوب إذا نزل الموت أو قربت أيامه.. والعروة الوثقى بين الإنسانية ومثلها الكريمة...

إلى أن قال: وبدون الإيمان نكون أسوأ حظاً في الحياة، وأدنى رتبة في سلم المخلوقات من أذل البهائم، وأضعف الحشرات، وأشرس الضواري.

فالبهائم تجوع كما نجوع، ولكنها في نجوة من هم الرزق، وخوف
الفقر، وكره الحاجة، وذل السؤال...

وهي تلد كما نلد، وتفقد أولادها كما نفقد، ولكنها في راحة من
هلع المشكلة، وجزع الميئمة، وهم اليتامى المستضعفين..

وهي في أجسادها، تلذ كما نتلذذ، وتألم كما نألم، ولكنها في راحة
مما يأكل القلوب، ويقرح الجفون، ويقض المضاجع، ويقطع الأرحام،
ويفرق الشمل، ويخرب البيوت من المهلكات: كالفسد،
والكذب، والنميمة، والفرية،

والقذف، والنفاق، والخيانة، والعقوق، وكفر النعمة، ونكران الجميل.

وهي تعرف بنوع من الإدراك ما يضرها وما ينفعها، ولكنها في
نجوة من أعباء التكليف، وأثقال الأوزار، ومضض الشك، وكره
الحيرة، وعذاب الضمير..

وهي تمرض كما نمرض، وتموت كما نموت، ولكنها في راحة من
التفكير في عقبى المرض، وفراق الأحباب، وسكرات الموت، ومصير
الموتى وراء القبور...

والضواري تسفك الدماء لتشبع بلا سرف، ولكنها لا تسفكها
أنفًا، ولا جنفًا، ولا صلفًا، ولا ترفًا... ولا علوًا في الأرض ولا
استكبارًا...

أما هذا الحيوان الفيلسوف، الضعيف، الهلوع، الجزوع، الطماع، المختال، الفخور، المترف، المتكبر، المتجبر، السافك الدماء، الذي لا يأتيه شقاء الحياة - أكثر مما يأتيه - إلا من تفكيره؛ فإنه لا علاج لشقائه إلا بالإيمان؛ فالإيمان هو الذي يقويه، وهو الذي يعزیه، وهو الذي يسليه، وهو الذي يُمْنِيه، وهو الذي يرضيه، وهو الذي يجعله إنساناً يسعى إلى مثله الأعلى لتسجد له الملائكة.. ومن دون هذا الإيمان يكون هذا الإنسان المسكين أتعس الخلائق وأسوأها حظاً، وأعظمها شقاءً، وأشدّها بلاءً، وأحطها رتبة، وأرذلها مصيراً^(١).

النصيحة الخامسة:

تأمل معي وتدبر هذه الآيات الكريّيات التي تهز القلوب الحية، ولو أنزلت على جبل لرأيتَه خاشعاً متصدعاً:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩].

(١) قصة الإيمان، نديم الجسر (ص ٤٤٠).

وأختم هذه الآيات بآيات من سورة آل عمران تزلزل القلوب، وتهدد من أصر على ضلاله وعناده بعد أن بانت له الحجج والبيّنات، ثم لم يهتد، واتبع هواه، وأن الله عَزَّجَلَّ قد يحول بينه وبين التوبة والهداية، عياداً بالله تعالى:

قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) **أُولَئِكَ** جَزَّأُوهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ **خَلِيدِينَ** فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا** فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ** ﴿٩٠﴾ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرَاءُ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** ﴿آل عمران: ٨٦-٩١﴾.

وبعد:

فهذا ما يسر الله عَزَّجَلَّ من كتابة حول هذا الأمر الجلل والعمل القلبي العظيم، فما كان فيه من حق وصواب فهو من الله عَزَّجَلَّ، فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله من ذلك وأتوب إليه، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

في ٥/١٢/١٤٣٧ هـ
